

كتاب الحلال

أُطُورَةٌ حَبِيبٌ

وقصص أخرى

بقلم فتحي رضوان



سلسلة ثقافية شهرية



كتاب الهلال

KITAB AL-HELAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطنحجي

العدد ١٣٨ - ربيع الثاني ١٣٨٢ - سبتمبر ١٩٦٢

No. 138 - SEPTEMBRE 1962

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي : (١٢ عددا) في الجمهورية
العربية المتحدة والسودان ١٠٠ قرش صاغا - في
سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا - في بلاد
اتحاد البريد العربي بالبريد البحري ١٣٠ قرشا صاغا
و (بالطائرة) ١٧٨ قرشا صاغا - في الأمريكتين ٥
دولارات ونصف - في سائر انحاء العالم ١٧٠ قرشا
صاغا أو ٣٥ شلنا



كتاب الحلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

أسطورة حب

وقصص أخرى

بقلم

فتحي رضوان

مقرون الطبع محفوظة لدار الهلال

مقدمة

بقلم المؤلف

ما هو هذا الانسان ؟ ..

هل عرفناه ؟ .. أو هل عرف نفسه ؟

انه لا يزال - عند نفسه - اللغز الاكبر .. فقد خرج من صفوف البشرية ، الانبياء .. فحاضوا وخاض معهم الناس معارك هائلة ، وقفوا فيها صفا ، ووقفت قوى أخرى ، في الناحية المقابلة ، تقاتلهم ، في اصرار ، وشدة بأس وضراوة . وخرج من صفوف البشرية ، مفكرون ، وفنانون ، وعلماء ، وارتفع على معارج من الاستشهاد والطموح ، قديسون وأبرار . والناس ، جيلا بعد جيل ، وعهدا بعد عهد ، يتحدثون عن الحب والسلام ، ويعلنون من شأن الفن ، ويحرقون البخور للعلم ، ويعلنون الولاء للعقل .. ولكن هذا الانسان نفسه ، لا يكف أبدا عن هدم ما بناه ، ونقض ما ابرمه ، وتلويث ما قدسه ، وانكار ما دعا اليه .. فهو في معركة دائمة ، مع نفسه ، ومع غيره : مع الذين سبقوه ، والذين عاصروه ، وأحيانا مع الذين سيأتون بعده ..

وهو على فرط حيويته ، وشدة احتماله ، وتوثبه لمنازلة الصعاب ، وتطلعه للمجهول ، واستهدافه للمخاطر ، واستعدابه للآلام ، لا يشتد نشاطه ، ولا يلهب خياله ،

ولا تتسع طاقته ، ولا يبلغ صبره أقصى مداه ، إلا اذا تحركت فيه أسوأ عناصر نفسه .. فهو عند القتال وفي الحروب وعند احتدام الغضب ، والرغبة في الثأر ، تبلغ قوته أقصى الغاية ففي هذه الساعات الحالكة يقبل بطيب نفس ، وسماحة ، أن يهدم داره ، ويقيم أطفاله ، ويخرب أعز ما يملك . يحرق التحف الغالية ، وينسف كل ما بناه في عشرات السنين ومئاتها بل وآلافها ، ويلقى في اتون النار المشتعلة بذخائره ونفائسه .. وهي عنده - في وقت السلام - أعز عليه ، وأغلى عنده ، من نور عينيه ، والروح التي بين جنبيه ..

ولو راجعنا سجل البشرية ، لوجدنا انها كشفت واخترعت وابتدعت وأتقنت ما كان بدائيا ، وأحكمت ما كان مختلا ، في وقت الحروب .. فالدبابة والسيارة والطائرة ، والصواريخ العابرة للمسافات ، وأجهزة الرادار ، واللاسلكي ، وأكبر عمليات الجراحة ، وأعظم بحوث الطبيعة والكيمياء ، وأعقد الدراسات في الإدارة البشرية ، وقيادة الأفراد والجماعات ، وأمراض نفوسهم وأعصابهم وعقولهم .. كل هذا حققه الانسان ، وهو يحارب ، ليقضى على أخوانه وزملائه الذين لا يعرف أسمائهم ، ولم ير وجوههم ، ولم يختلفوا معه على شيء ، ولم يسببوا له تعباً ولا ألماً ..

وهو حينما يعب من الدماء ما استطاع ، ويخرب الى أقصى الحدود ، ويقتل ويذبح ، يهدأ هدوءاً عجيباً ، ويشمله حزن عميق ، ويملاً نفسه تقززاً واشمئزازاً ، ويقسم أنه لن يعود الى هذه الحماسة .. ويروح يواسي ، ويعين ويلطف الذين دمر بيوتهم ، وخرب ديارهم ، وألقى بهم في جحيم البؤس والتعاسة ..

ثم لا يلبث حتى يتخذ من كل وسيلة من وسائل السعادة ، والاتصال ، والتقارب ، أداة للانتقام ، والانفصال والتباعد ،

فقد أصبح الانسان غنيا بوسائل الانتقال التى الفت
المسافات ، وأوشكت أن تلغى الزمن نفسه . . الطائرات
التى تقطع فى الساعة الواحدة ألفى كيلو ، اللاسلكى الذى
تستطيع ، وأنت فى حجرتك ، بل وأنت مستلق على
فراشك ، تقضم فى دعة ، وخلقو بال ، فطيرة وتحتسى كوبا من
قهوة او شاي القيام معه برحلة طويلة من طوكيو ، الى
موسكو ، الى القاهرة ، الى لندن ، الى واشنطن ، الى
كراتشى . . فتسمع اليابانية والروسية ، والعربية
والانجليزية والاردية ، وتسمع مع كل ذلك موسيقى
الشعوب ، وتقف على الآراء المتناقضة ، والمبادئ
المتعارضة ، غير ان هذه الادوات السحرية لم تزد
الناس الا فرقة ، ولم تدخر وسعا فى اقامة الحواجز
والحدود لا بين الامم بعضها البعض ، بل بين افراد الامة
الواحدة ، وحيانا بين ابناء المدينة الواحدة . . فالحواجز
والحدود وحملات الاذاعة والصحافة ، جعلت ابناء هذا
الكوكب ، اشد عنفا ، واكثر استجابة لدواعى القتال
والكراهية ، والشك ، والخوف ، وأميل الى دعوة الانتقام
والتدمير ، من وحوش الغابة . .

ومع ذلك لا تكاد تصفو النفوس قليلا ، ويتلاقى ابناء
شعبين متنافرين متقاتلين ، فى ميدان رياضة او على خشبة
مسرح ، او فى قاعة محاضرة ، او فى ندوة بحث ، حتى
تراهم سعداء ، فرحين يكاد يذوب كل فريق منهم فى
صاحب اليوم ، وعدو الامس ، شوقا . .
ما هذا ؟ . .

أىكون ما نظنه شرا ، هو خير ونحن لا نعلم . .
أفرض على الانسان - وقد تكون من عقل وقلب ،
ثم امعاء وجهاز هضم ، وجهاز للتناسل - ان يكون
أبدا شخصية مزدوجة . . وأن يكون كل ما يقول ، وما يفعل ،

ذا وجهين .. تكون هذه الآلام والفواجع والمآسى ، هى
سبيل الانسان الوحيد الى التقدم والابتداع والتطوير ..
أم ان هذه الحياة ، وقد دببت فينا ، بغير دعوة منا ولا
استئذان ، اكبر منا ، واعلى من مستوى عقولنا ، فبات من العبث
ان نحاول فهم مراميها ، وادراك بواعثها .. كما ان من
العبث ايضا ان نكف عن محاولة الفهم ، لان هذه المحاولة
جزء من تلك الحياة نفسها ، ولان التساؤل الابدى ، هو
الحافز وراء كل عمل فنى .. ان البحث عن الانسان ،
وكشفت غوامضه ، وتفسير بواعثه .. ان النظر فى قلب
الانسان وعقله .. والتأمل فيما يقول وفيما يفعل ..
والاعجاب به طموحا مضحيا متعاليا عن العنف .. والبرثاء
له ، وهو ينحنى تحت ثقل شقوات بدنه واحقاد ومخاوفه
واوهامه ..

ان السير مع الانسان فى سراديب حياته المظلمة المعتمة ..
سراديب التآمر والاعتداء ، والحق على الغير ، والخوف
منهم ، والتحليق معه فى أجواء تحرره وسيحات تطلعه ، الى
ما هو أعلى ، وأنبى ، وأنقى ، وألطف ..

ان هذا كله ، هو عالم الفنان سواء أكان كاتب قصة أم
ناظم شعر ، أم مؤلف مسرحية ..
وسواء أكان مصورا يرسم بالقلم أو الريشة ، أو نحاتا
أو حفارا ..

ولقد شغل الانسان بنفسه منذ الثورة الصناعية اكثر
مما شغل بها فى أى عهد مضى .. فقد كثرت بين يديه
الادوات التى فتنته بنفسه .. انه يحلق فى السماء ،
ويقتررب من النجوم ، انه يغوص فى اعماق البحر ، انه يغير
الحار الى بارد ، والبارد الى حار ، بل انه يوقف قلب
الانسان ، ويرد الميت الى الحياة .. انه يخلق انسانا يفكر

ويحسب ، ويتنبأ ويكاد يفلسف الامور .. انه عظيم ،
انه اله !

ولكنه رأى نفسه مع عظمته ، وتفوقه ، وتسخيره للكون ،
ضعيفا ، بل انه ازداد ضعفا فهو يعيش فى خوف
حتى من الجوع .. انه يخاف جيرانه ، انه لا يدري ماذا
يقرأ ، وماذا يدع .. ماذا يقول ، ومتى يقول ، وكيف
يقول ، ومع من يقول .. متى يفنى ؟ .. كيف يفنى ؟
ثم ماذا يكون بعد ذلك ؟ .. ان العالم يتحول ، ان العالم
مهدد بالفناء .. فهل سيفنى ؟ .. فالانسان يواجه اعجب
مصير يواجهه منذ خلق فى هذه الدنيا ، ودب على هذه
الارض ..

انه بلغ القمة - او على الاقل - انه يتصور ذلك ..
ولكنه حين بلغها ، وأطل منها ، على السفوح ، لم يلهمه
وقوفه على هذه القمة الا بشعور واحد .. هو رغبته فى
أن يقفز منها الى .. القاع ..
الى العدم

هل سيفعل .. ؟

ام ذلك وهم كله فلا هو وصل الى القمة ، ولا هو قادر
على الانتحار .. وليس تحته فناء ، حتى ولو قامت
حرب ذرية .. انما هو الانسان الحريص على الحياة ،
الممتلىء كبرياء وثقة بنفسه ، يتصور انه لو ذهب انتهت
الدنيا ..

ولذلك لم يكن اهتمام الانسان بالنظر فى نفسه ، وادامة
التحديق فيها ، والتأمل فى نواحيها ، الا استجابة
طبيعية .. وكان من اثار تلك الاستجابة ان رأينا طوفانا
من كتب الاعترافات ، والمذكرات الشخصية ، وتراجيم
حياة العظماء .. ولم نكتف بنشر حياة من عاشوا معنا

وعاصرونا ، بل ذهبنا ننقب ، حتى رجعنا الى الدين رحلوا
عن هذه الدنيا بمئات وآلاف السنين ، فنبشنا قبورهم
وعريناهم من ااثواب العظمة ، وسلطنا عليهم اضاء
افكارنا ، واتخذنا من اقلامنا مشارط .. ودخلنا ورائهم
الى مخادع النوم ، وفتشنا ما عساه يكون بين طيات
الفراش ، واستخرجنا من خطاباتهم وخطبهم ، ما قاله
الصغار والكبار فى حقهم ، ما اجتروا لنا معه على اتهامهم
بالضعف او الجنون او النقائص الجنسية .. ولما لم نشبع
بهذا كله ادعينا اكثر من مرة ان هؤلاء لم يكونوا ابدا ..
لم يولدوا ولم يروا الحياة ، وانما خلقهم عقل الانسان
وخياله الفنى المديد

ولما كان العلم لا يكف عن الجرى وراء الادب فقد نشأ
بفضل هذه الرغبة النهمه فى تأمل الانسان ودراسته
علم بل علوم لم يعرفها الناس من قبل .. فعلم
لنفس الانسان ، وعلم لعاداته القديمة ، وعلم لفنونه
المنثورة ، وعلم لاجناسه وهجراته .. وهكذا .. وهكذا
وليس اكثر استجابة للحركة والحياة ، والتطلع
والطموح ، والاضطراب والقلق .. من الفن !

انه صدى الانسان وصورته .. انه صوته ومؤنس
وحشته ، وسميره فى الانتصار ، وعزاؤه فى الانكسار ..
انه ملهمه ومجدد نشاطه .. انه المحرض الاكبر
للانسانية ..

فهو يسبق العلم ، ويمهد للذين ، ثم يجرى معهما ،
ثم يبقى بعدهما معلقا ، وناقدا ، ومفسرا ...
فكيف لا توجد فى هذا العالم المحتدم بالحركة والمشتعل
بالحرارة ألوان من القصة لم تكن من قبل ..
فبعد الملاحم الكبرى .. وجدت القصة الطويلة ..

والمرحية ، ثم أخيرا هذا النبت الجديد : القصة القصيرة .. ولكنها لم تكد تولد ، حتى ثبت قدمها ، وناfst غيرها من أساليب وصف الانسان ، وشرحه ، ونقده ..

فالقصة القصيرة ، هى عنوان العصر ، وصلى تفكيره ، وثمره قلقه ، وطموحه ، ولهفته ، وافتتانه بنفسه ، واشمئزازه منها ، وشدة حرصه على الحياة ، وعظم شكواه منها .. وتأرجحه بين التفاؤل والتشاؤم . واضطرابه بين روحه وجسده .. واحترامه للقديم واجترائه على الحياة .. واعتقاده بالله ، وثورته عليه .. واعتبار نفسه الها ، واعتبار الدنيا جنونا غير مفهوم .. وخطا بغير قاعدة ولا منطق ..

فالقصة القصيرة هى أدب الذين يعيشون ، وعيونهم مرفوعة الى السماء ، فى انتظار الوصول الى القمر والمريخ .. والذين يعيشون وهم يحسبون الدقائق والثوانى فى انتظار انفجار قنبلة ذرية أو قنابل .. لا تبقى ولا تذر .. والذين يعتقدون أنه لا حرب ، ولا فناء ، وإنما بقاء واستقرار ، وتقدم ..

فتحى رضوان



حاسب يا عمّ



كان « عبد الظاهر الويشاوى » سعيدا غاية السعادة بالمقهى الذى عثر عليه فى حارة متفرعة من شارع ، متفرع بدوره من عماد الدين .. أغنى طرق العاصمة بالحركة ، وأحفلها بالملاهى ودور السينما ، وأكثرها ميلا الى السهر ، والتماس المتعة ، والبعد عن جو الحياة وسخافاتنا التى لا تنتهى ..

كانت الحارة هادئة هدوءا متصلا .. فالترددون عليها قليلون ، والسيارات ، والباعة الجائلون ، وحلقات الصبية وهواة المشاجرة ، وحملة « البيانولا » مع ما يتبعهم من المتفرجين المتسكعين .. كل هؤلاء لا يعرفون طريقهم الى هذه الحارة العجيبة ، فكأنها كوكب من الكواكب التى لم تكتشف بعد ، فلم توضع على خريطة السماء ، أو واحة لم يهتد اليها الرحالة المغامرون ، فلم ترسم على خريطة الارض ..

وكان المقهى ، صورة من هذه الحارة فهى لا تحمل فوق بابها لوحة تعلن للزبائن اسمها ، ولا يوجد بداخلها « راديو » يطارد الناس صوته .. وتأدب صاحب المقهى ومساعداه العامل الوحيد بها بأدب الحارة ، فعدلوا عن الطريقة المألوفة ، فى الاعلان عن طلبات رواد المقهى بأصوات عالية ممطوطة . فالعامل على الرغم من كونه شابا قويا طويلا نشيطا ، الا انه لم يسمع وهو يصرخ كغيره من زملائه وأشباهه فى المقاهى الاخرى ، وصاحب المقهى الذى لم يشاهد أبدا خاليا من عمل يباشره ، لم يشتبك مع أحد فى حديث ، حتى ليحق لك أن تحسبه

جهازا يعمل وراء « النصبه » التى تعد عليها القهوة والشاي وغيرهما من المشروبات ، وتهيأ الجسوزة والنارجيلات ، ونارها وماؤها

وقد أرضى هذا كله « عبد الظاهر الويشاوى » ، فاتخذ من هذا المقهى ملاذا يلتمس فيه كل غروب ، راحة ساعة أو ساعتين ، فيسمى اليه فى خطوة وثيدة حيث يجلس على الأفریز الذى تصف عليه المقاعد المصنوعة من الخيزران ، وإلى جانبه منضدة مستديرة من النحاس الأصفر ، ترفع على حوامل ثلاثة من الحديد الزهر الذى ذهب عنه لون أخضر طليت به الحوامل يوما ، ثم نصل اللون مع الزمن ولم يفكر أحد فى إعادة الطلاء ، فلم تقض بذلك ضرورة ..

لم يغير عبد الظاهر مكانه أبدا ، إذ لم يفكر أحد فى أن ينافسه على هذا المقعد ، فغيره من المقاعد يشبهه .. ومع مرور الأيام أصبح مجلس عبد الظاهر على الأفریز خارج المقهى ، بجذبابه الفالى المصنوع من الصوف أو الجبردين أو السكروتة أو الكتان ، حسب فصول السنة وتغير الطقس ، جزء من المقهى ، بل جزء من الحارة . فانك لا تكاد تصل الى أولها حتى يقع نظرك عليه ، جالسا فى مكانه ، حوله هالة من وقار تكاد تلمسها باليد .. فقد كان عبد الظاهر انسانا ضخما ، كل ما فيه كبير .. فهو طويل يلفت النظر ، عريض ذو مناكب امتد ما بين طرفيها يطالعك بوجه تعلوه جبهة عالية ، يزينها طربوش طويل نظيف .. وتتألق تحت الجبهة العريضة ، عينان واسعتان سوداوان يزيد سوادهما ، سواد حاجبين كثيفين ، يتفرع عند التقائهما أنف يتناسب فى ضخامته مع شوارب غليظة تغطى شفثيه الغليظتين . ومع هذه الضخامة والكثافة والغلظة فى قسَمات هذا الوجه ، فأنت تشعر

بأنها تقاطيع متناسقة ومتناسبة ، وتشعر بشيء آخر أكثر غرابة .. هو ما يسود هذا الوجه من هدوء عميق ، فعبدالظاهر اذ يجلس في مكانه ، والى جانبه كوب الشاي غالبا ، والنارجيلة أحيانا ، لا يبدو عليه أنه يرى شيئا ، أو يفكر في شيء .. فهو صامت ، ينظر الى لاشيء .. الى فضاء الحارة .. ومن خلفه يجلس رواد القهوة ، وكأنهم أبطال رواية من روايات السينما القديمة قبل أن تنطق الشاشة بأصوات الممثلين ، وضجيج رصاص البنادق ، ورجود المدافع .. وما يشبههما من موسيقى « الجاز » ! فيبدون كالاشباح ، في أضواء المقهى الخافتة يلعبون « الدومنا » أو الورق في صمت

وسارت أمسيات عبد الظاهر في هذا المقهى على هذه الوتيرة .. وكان الظن أن تبقى هكذا ، لولا أن جلس ذات مساء الى جانبه ، على المقعد شاب جميل الطلعة ، حسن الهندام ، يكاد يقطر الخجل من وجهه ..

لم يحى عبد الظاهر ، ولم يكلمه ، بل جلس صامتا ، وطلب فنجانا من القهوة ، ثم أشعل سيجارته ، وأخذ ينفث دخانها في الهواء ، وراح يتابع ما يرسمه في الجو من حلقات . توالى حضور هذا الشاب الى المقهى، وكأنه في مكانه من عبد الظاهر ، كشخصين يقيمان في كوكبين .. الى أن حدث في ذات ليلة أن اختل توازن عامل المقهى ، وهو يحمل « صينية » في يد ، و « نجوزة » تحت الأبط، ومقعدا في يد أخرى ، فكادت تهوى الصينية على رأس عبد الظاهر لولا أن مد له الشاب يده ، فاستعاد توازنه في لمح البصر ، وانطلق كالسهم بين صفوف الزبائن كأن لم يحدث شيء .. ولكن هذا الحادث السريع العارض ، حمل كلا من عبد الظاهر ، وجاره الشاب أن ينظر

أحدهما جهة الآخر ، فتتلاقى العيون ، ثم تتبادلان بعض
الالفاظ .. وكأن كلا منهما كان يضيق بتجاهل الآخر
له ، فانهار في التو هذا الحاجز الذى أقيم بينهما :
وتكلما .. ثم انتقل عبد الظاهر في اليوم الثالث الى حيث
يجلس جاره ، وتغيرت الصورة ..

فلم يعد نظر القادمين الى الحارة يقع على «عبدالظاهر»
على مقعده فوق رأسه طربوشه العالى ، وشسارباه
الكثيفان ، وحاجباه الغليظان ، وأنفه الشامخ ، تطالع
الناس في تعال وصمت ووقار .. بل حل محل هذه
الصورة .. صورة رجل مهيب يستمع بكلياته الى شاب
نحيل صغير يتكلم في صوت هادئ لطيف ، ويضحك بين
الحين والحين ..

ولكن حدث ما هو أهم وأخطر شأنًا ، فان هذا الوجه
الجامد ، عرف كيف يتكسر جموده ، بفضل ابتسامات
كانت تعبره عبورا سريعا . وفي احدى الامسيات ارتفعت
قهقهة عالية ، من صدر عبد الظاهر ، فرفع زبائن المقهى
المجاورين وزملاؤهم الجالسون داخلها ، رؤوسهم ..
وكان لسان حالهم يقول :

— سبحان القادر على كل شيء .. !

لكن التغير الذى طرأ على عبد الظاهر لم يكن سطحيا
وخارجيا ، بل أوشك أن يكون داخليا وعاطفيا .. فقد
أصبح يسير الى المقهى ، بخطوة سريعة نوعا ، فإذا لم
يجد صاحبه في مكانه جلس وأخذ ينظر الى مدخل الحارة
بشيء من الملل والتطلع ، وأحيانا القلق !

لقد عرف من صاحبه الشاب كل شيء عن حياته ، ولم
يعرف صاحبه شيئا أبدا .. لم يسأله من هو ، ولا ماذا
يعمل ، ولا أين يعيش . وقد كان هذا سر اقباله على
هذا الشاب ، وتعلقه به ، وفرحه بصحبته .. فقد كان

يكره أن يعرف الناس عمله ، لانه كان يعتقد ان الناس اذا عرفت حقيقة دوره في الحياة تجنبوه . ولما عثر على هذا المقهى الهادىء العجيب ، لم يكن يظن أن توفيقه سيتوج بما هو أجل وأعظم .. بجار يحدثه ويمتعه ، ويروى له عجائب حياته ، ولا يدس أنفه في حياته هو ، ولا يحمله الفضول على أن يشقيه بأسئلة كأئلة المحققين ..

على ان عبد الظاهر ، كان يتوهم أحيانا ان صاحبه عرف ماذا يعمل ، استنتاجا أو مصـادفة ، واحترم شعوره فلم يقل له شيئا عنه .. ولكنه سرعان ما كان ينفى هذا الوهم ، حتى لا يفكر صفو حبه ومودته لهذا الصديق النادر ..

وقد كانت جعبة الشاب ، لا تفرغ من النوادر والطرائف حتى تمتلئ ، فقد اصبح يعمل قبل ترده على المقهى مباشرة في ملهى ليلي .. وعمله في هذا الملهى ، وان اقتصر على اجلاس الرواد في اماكنهم ، الا انه يرى بفضله كل ما يجرى في الملهى ، بل انه يعرف ما يجرى في حياة غانيات الملهى ، ومآسيهن ، ومجازفتهن ، ومغامرات الاصدقاء الذين يدورون حولهن ، ويتقاتلون عليهن ..

وقد كانت جعبة الشاب ، لا تفرغ من خيال عبد الظاهر ، وامتع العوالم عنده في الوقت نفسه ..

نساء عاريات أو شبه عاريات ، ونقود تبعثر بغير حساب ، وشيوخ ينافسون شبانا .. ورجال من ذوى السلطة والنفوذ ، يدخلون من الابواب الخلفية يشمخون بأنوفهم ، ويتظاهرون بالجد والصرامة ، فاذا وصلوا الى الغرف الكائنة وراء المسرح .. خلعوا الاقنعة من فوق وجوههم ، وشربوا وسكروا ، وصرخوا وتمرغوا في الوحل دنيا تخالف الدنيا التى يعرفها عبد الظاهر ، وكان

يود أن يكون قادراً على تمنى - مجرد تمنى - رؤية طرف منها .. ولكن كل شيء كان يمنع هذا التمنى ، ويجعله مستحيلاً .. ومع ذلك فانه يشعر بقربه الشديد من هذا العالم الفاتن الرهيب ، عن طريق صاحبه الشاب الذى لا يبدو عليه انبهاره بالدنيا التى يعيش فيها ، ويتصل بها ، أو تحمسه لها .. فانه يروى ما يراه فى صوت لا تتغير نبرته ، حتى كاد عبد الظاهر يتهمه - بينه وبين نفسه - بالنفاق والتظاهر الكاذب ..

بيد أن أعجب ما فى قصة هذا الشاب سبب اتصاله بهذا العالم المذهل الذى يعيش فيه .. فانه لا يمت اليه أصلاً ، فقد كان سائقاً لسيارة ، عند أرملة شابة أغدقت عليه الكثير ، حتى بدا شاباً أنيقاً .. وعرف فيمن عرف ممن يترددون على دار سيدته ، سائقاً مثله ، كان يسهر كل ليلة مع سيده ، فى ملهى ليلي ، حتى توثقت صلاته بموظفى هذا الملهى ، وعماله .. فلما خلا مكان أحد هؤلاء الموظفين عرضوا عليه أن يعمل بدلاً منه ، فرحب بهذه الفرصة التى لم تكن تخطر له على بال ، إلا انه لم يلبث حتى أخذ يصعد فى سلم الرقى والنجاح ، فى هذا العالم الجديد .. فترك مكانه لعمل أكبر شأنًا ، وأعظم ربحاً ، فى ملهى أكبر مكانة ، وأعلى مرتبة .. وعرض على صاحبه أن يحل محله فى مكانه هو ، وتردد هذا الأخير ولكنه قبل تحت الحاح صديقه واغرائه .. قبل تورطاً فان خجله كان يجعله فريسة سهلة لمن يثابر على الالتحاح عليه .. !

وذهب عبد الظاهر كعادته الى المقهى ، وجلس مطمئناً الى أن صاحبه سيأتى فى مواعده ، حتى تحين ساعة العمل فى ملهه .. ومرت الدقائق بطيئة ، دون أن يأتى .. ثم اكملت الدقائق ساعة ، وتجاوزت العقارب حدود الساعة

الى منتصف ساعة ثانية ، ثم أكملتها .. ؟

وبدا القلق ينشب أظافره الحامية في نفس عبد الظاهر .. ماذا ؟ أيمن ؟ ألا يحضر الشاب هذه الليلة ؟ .. ان هذا مستحيل ، لانه ألف منذ شهور ، ان يراه ويستمتع اليه .. تماما كما يرى كل يوم شروق الشمس وغروبها بل انه لا يرى شروق الشمس ولا غروبها ، وان كان يحس بها ويرى نورها ، اما صاحبه فيراه ، ويستمتع اليه ، ويملا أذنيه وقلبه بأحاديثه .. وانقضت الامسية دون أن يأتي الشاب ، ولم يرد عبد الظاهر الاستسلام لليأس فبقى في مقعده ، مؤملا أن يأتي صاحبه ، ولأول مرة يعود الى بيته متأخرا عن عادته .. ولما عاد لاحظت زوجته وأولاده انه كاسف البال ، متعب ، كأنه عاد من عمل شاق ، وخائب ، ولم يسأله شيئا ، فلم يكن في الدار من يجروا على توجيه السؤال .. !

وفي المساء التالي ، أسرع عبد الظاهر الى المقهى ، في مشية تخلي عنها بعض وقارها ، وجلس على مقعده التقليدي في مكانه المألوف ، وصفق في عصبية لم تكن تخفى على العين البصيرة الناقدة ، وطلب كأسا من الشاي ، دون أن ينتظر قدوم العامل اليه ، وسأل - خلافا لكل تقليد سابق - هل حضر « منعم » ؟ .. فأجاب عامل المقهى في دهشة ، مجيلا نظره في الجالسين والرواد على الافريز وفي الداخل :

- لا .. لم يأت موعد مجيئه بعد .. وألقى نظرة لا شعورية على الساعة في معصمه !

وتعلقت عينا عبد الظاهر على مدخل الحارة .. فلما أهل « منعم » ، تنفس الصعداء ، وكأن جبلا انزاح من فوق صدره ، ولكنه لم يلبث أن أدار وجهه ناحية

أخرى ، وتظاهر بأنه لم يكن مشغولا ولا موزع البال ، وسلم « منعم » وفسر غيابه ، بعذر عما يطرأ لكل انسان وعينا عبد الظاهر تحيطان به وكأنما هما ذراعا أم تتلقيان ابنا طال غيابه ..

وعادت الحياة رتيبة .. يحضر عبد الظاهر في مواعده ويحضر « منعم » كذلك ، ويروى قصصه وأعاجيب دنياه لأذننى عبد الظاهر الشرهة المتشوقة الى مزيد من الاسرار والفضائح والغرائب ..

ولكن عبد الظاهر لم يستطع أن يخدع نفسه ، فان « منعم » قد طرأ عليه ما غيره ، انه هو هو ، فى خجله وأدبه ومواظبته وهدهوء صوته ، ولكن شيئا من الشحوب علا وجهه ، وشيئا من تشتت الخاطر ، ظهر من تقطع حديثه ..

ان جديدا دب فى حياته .. ليس هذا بمستغرب ، فان الدنيا التى يعيش فيها والمخلوقات التى يجاورها ، ويعمل معها ، خليفة بأن تقلب وجود مثل هذا الشاب رأسا على عقب .. فاذا كان قد نجح فى الإبقاء والاحتفاظ بأصله الى الآن ، فذلك سر جودة طبعه ، ومتانة خلقه .. وانقطع « منعم » عن المقهى يومين ثم جاء واعتذر بمرض ، ثم عاد فانقطع أياما أخرى ، واعتذر بعذر جديد . وتوالى الانقطاع ، وتوالى الاعتذارات .. وقلب عبد الظاهر يحدثه ، بأن الكارثة الكبرى موشكة أن تقع .. ولم تكن عند عبد الظاهر كارثة أكبر من أن يفقد صاحبه الى الأبد .. !

ولم يطل الانتظار ، فقد انقطع صاحبه نهائيا .. وأصبحت حياة عبد الظاهر عذابا لا يطاق فهو فى عمله عصبى المزاج سريع الغضب ، شديد البطش .. وهو فى البيت ساهم ، واجم ، لا يتحدث .. وهو فى المقهى ،

قلق ، يطلب « الجوزة » التى لم يكن يفكر فيها مطلقا ..
واذا جاءت فأوامره لا تنتهى .. فطلب النار والاعتراض
على « التركيبة » يتكرر ، وعامل المقهى ، بل صاحبها
لا يفهمان ماذا حدث لعبد الظاهر ، ولولا انه زبون
مواظب يكاد يكون قطعة من المقهى ، لضاقا به أو لتخلصا
منه ..

ولكن الانفعال الناجم عن هذه الوحشة القاسية ،
خف مع الايام ، وتلطفت حدته ، وترسب في أعماق
نفس عبد الظاهر حزنا عميقا ، ويأسا كاملا ، ولكن ندبة
الجرح الخارجية لم تخف عمق الجرح نفسه .. فاذا نظر
عبد الظاهر يوما الى مدخل الحارة نظرة عفوية غير
مقصودة ، تذكر انه كان يفعل ذلك في الماضى عندما يتأخر
عليه صاحبه .. أما اليوم فلا أمل في نظرة ولا نظرات ،
فان صاحبه قد اختفى ..

وأصبح عبد الظاهر يوما على عزم جديد ..

لماذا لا يذهب الى الملهى الذى يعمل فيه « منعم » ؟
وكان القرار هائلا ، فانه لم يخط خطوة واحدة نحو
هذه الناحية من المدينة ، وهو لا يدرى لغة أصحابها ،
ولا مداخلها ومخارجها فماذا يفعل ؟ ثم ماذا تكون
النتيجة لو شوهد هناك ؟ .. أى تفسير يقوله للرؤساء
الذين لا يبعد أن يكون أحدهم أو بعضهم ممن يترددون
على هذه الملهى .. ونفى الفكرة عن نفسه وقرر
الاستسلام لليأس والاخلاد الى راحته ..

وعادت الفكرة تعرض نفسها عليه بعد أيام وعاد
يقاومها ، وطالت المعركة وجمع أطراف شجاعته ، وذهب
يضرب في شارع عماد الدين ، ووقاره يحيط به ، وجزعه
في الداخل يتزايد ، ووقف على أبواب الملهى كتمثال من
لحم .. ونظر إليه بعض الشبان الذين يتبعثرون على

أبواب هذه الأماكن ، واخترقت أذنه عبارات سخرية
لأذعة كاوية .. ضحكوا من شواربه ، ومن طربوشه ،
ومن وقاره في عالم يموج بالخفة والطيش والنزق
وعاد الى بيته كالنسر الجريح ..

ولعن « منعم » والمقهى الذى ساقه اليه .. وصمم
ألا يفكر فيه أبدا . وفي الساعة التالية ، كان أمام أحد
هذه الملهى ، وقد دبّت فيه شجاعة عجيبة وأخذ يسأل
في ثقة واعتداد ، وظن الموظفون أنه يسأل عن ابنه ،
واحترموا هذه العاطفة ، واستمعوا اليه وأطالوا
الاستماع ، وأرشدوه الى ملهى آخر ، وهناك دلوه على
ملهى ثالث ، وأخذ يتنقل ، وينظر على أبواب تلك الملهى
الرئيسية ، وأبوابها الخلفية .. ورأى الراقصات يدخلن
محتشمات وعلى وجوههن كآبة وحزن .. ورأى العمال
يعدون هذه الصالات ، في جد ، تماما كما يعمل زملاؤهم
في الأعمال الجادة

ولكن « منعم » لم يكن له وجود في كل هذه
الملهى والصالات .. بل أن اسمه لم يكن معروفا لأحد ؛
فثبت لعبد الظاهر أن له أسما آخر في هذه الدنيا ، وأن
مصيرا مجهولا ابتلعه .. فعاد من محاولته الفاشلة بقلب
حزين ، مفعم يئأس أنهى معه كل أمل ، وماتت كل رغبة
في السعى من جديد ..



بعد زمن - لا يدري عبد الظاهر بالضبط حسابه -
نشرت الصحف التى لا يقرؤها وإنما تتناهى الى سمعه
أخبارها الكبرى المثيرة .. نشرت الصحف نبأ مقتل
راقصة على يدى شاب فى ملهى ، وتحركت لهذا النبأ
ذكرياته الهاجعة التى لم تنطفىء جذوتها أبدا ، وطلب

أن ينظر الى صورة الشاب القاتل ، وان تقرأ له تفاصيل النبأ .. ولم يستطع عبد الظاهر أن يتبين ملامحه ، فأضواء عدسات المصورين ، غشت لها عينا القاتل ، فأغمضها ، فبدأ كالنائم .. وكان آخر الامر شابا نحيفا ، له شارب خفيف ، وثبتت حول عارضيه ، ذقن لم تمسها الموسى من أيام ، وتهدل شعره فوق جبهته ، وبدأ متعبا ، غير مكترث لشيء .. وقد طافت حول شفتيه ابتسامة أو شيء شبيهة بالابتسامة واطمأن قلب عبد الظاهر ، فلم يكن بين القاتل وبين «منعم» أية صلة حتى الاسم ، كان أبعد ما يكون عن اسم «منعم» ، كل ما في الامر انهما في سن الشباب ، وان كليهما نحيف .. وعلى الرغم من هذه الطمأنينة الظاهرة ، فان شيئا ما داخل عبد الظاهر ، كان يدفعه في الحاح مستمر الى أن يطلب من أولاده وزملائه الذين يعرفون القراءة والكتابة ، أن يقرأوا له كل حرف تنشره الصحف عن القضية حتى كفت الصحف عن الكتابة عنها ، فنسيها عبد الظاهر أو تناساها ، وشغل الجمهور عنها بما جد من أحداث وقضايا وأمور ، ثم طفت من جديد على السطح حينما عرضت على محكمة الجنايات ، وقضت فيها بالاعدام شنقا ، لاقتران جريمة القتل بجرائم أخرى وقعت على رجال البوليس حين هموا بالقبض عليه ، وعلى صديق كان مع الراقصة عند الاعتداء عليها .. وقيل ان القاتل طعن في الحكم أمام محكمة النقض واختفت القضية تماما ..

خرج عبد الظاهر الويشاوى من داره الى عمله في الصباح المبكر ، والناس نيام .. وبعد خروجه بقليل ، كانت زنازين ثلاثة في سجن الاستئناف ، قد أصبحت موضع اهتمام غير عاد من مأمور السجن ومعاونيه ،

ورجال النيابة ، ورجال الصحافة ، فنزلاؤها قد حان موعد تنفيذ حكم الشنق فيهم ..

وكان نزيل الزنزانة الاولى رجلا ضخما ، لم يكد يفتح عليه الباب حتى تكوم فحملة عساكر السجن حملا ، وهو غائب عن صوابه تقريبا ..

وكانت في الزنزانة الثانية امرأة أحرقت أختها لطمع في ميراث ، فحملت الى مكان التنفيذ وهي تصرخ وتولول ، وتحلف بالله العظيم انها بريئة .. وجاء دور الثالث ، وتهيأ الجلاد لاستقباله ، ونظرت هيئة التنفيذ الى نهاية الطريقة الطويلة السوداء الداكنة التي يقدم منها المحكوم عليهم وظهر في أول الطريقة ، في ضوء شاحب ، يتسلل من نافذة عالية ، والحرس يجذبه . فوقعت الانظار على شاب نحيل ، ثابت القدم ، ينظر الى الامام ، وفي عينيه تهب صرخ ، وجزع شديد ، ولكنه مع ذلك بقي متماسكا وساد كيانه كله هدوء عميق ، يكاد يكون رصانة ووقارا .. ووصل الى نهاية الطريقة وعيناه مضمومتان .. ثم أدار بصره في حركة لا شعورية في الواقفين ، وتركزت عيناه على الجلاد .. وخيل الى البعض انهما اتسعتا في دهشة هائلة ، وان شفتيه انفتحتا عن صيحة لم يتبين أحد مدلولها ..

واقترب الجلاد من المحكوم عليه ، وبدأ يشد وثاقه ، فانفتحت الشفتان مرة أخرى لا عن صيحة ولكن عن عبارة قصيرة اخترقت أذن الجلاد ، وكأنها قسدية ، فتوقف وقد ارتعشت يداه ، وغص بريقه .. فقد سمع :

— حاسب .. حاسب ياعم عبد الظاهر ..

والتفت المحكوم عليه برأسه نحو الجلاد ، وفي مثل لمح البرق رأى عبد الظاهر الويشاوى نفسه أمام « منعم » ،

نعم انه هو .. هو بنفسه . وصرخ المأمور في عبد الظاهر
بأن أسرع . وعاد « منعم » يقول في صوت وأهن :
- حاسب .. حاسب ..

ولم يستطع عبد الظاهر ان يعبر عما اصابه الا بأن
زاد الوثاق ، وان دفع « منعم » امامه بشدة الى غرفة
التنفيذ حيث تكون خاتمة المطاف .. وطافت على
شفتي المحكوم عليه ابتسامة او ما يشبهها ..
واحس عبد الظاهر بالاختناق .. ولما اسدل الطاقية
السوداء على الوجه الذي احبه وصاحبه .. سمع أو
لعله خيل اليه انه سمع :

- ادع لي يا عم عبد الظاهر ..

وخرج عبد الظاهر من السجن الى البيت ، وهو يحس
بمفص شديد يمزق أمعائه .. ثم تبع المفص الحاد ،
صداع لم يصب بمثله أبدا .. وتلقته زوجته صارخة :
- كفى الله الشر .. فقد كان زوجها في مثل صفرة
الاموات ، ولم يرد بحرف عليها ، وأشار الى فراشه ،
فأعد له .. فارتمى عليه ولم يلبث أن تصيب العرق من
كل جسمه ، كأنما أوشك أن يتحول الى ماء ، وأدنت
الزوجة يدها من رأسه ، فاذا هي ملتهبة تكاد الايدي
لا تطيق لمسها ..

ولم يكن من شأن الاسرة ، سرعة دعوة الطبيب اذا
مرض أحدها ، فمر يوم ، ثم يوم ، وعبد الظاهر فيما
يشبه الغيبوبة . وفي اليوم الثالث حضر الطبيب ونصح
بنقله الى مستشفى الحميات ، وان لم يقطع بنوع الحمى
التي أصيب بها ..

وبقى في المستشفى أياما وتشخيص الاطباء يرجح انها
حمى التيفويد ، ولكن التحاليل أثبتت المرة بعد المرة
سلبية العينات التي أخذت .. وبعد أسبوعين خطر على

بال أحد الاطباء أن المرض قد يكون الحمى المالطية ..
وبدأت تحاليل أخرى ، وعلاج آخر ..
وخرج عبد الظاهر ، بعد عدة أسابيع واهنا ، ضعيفا ،
لا تكاد أقدامه تقوى على حمله ..
ومنذ اليوم الاول الذي استطاع فيه الخروج من
داره ، قصد توا الى المقهى وجلس حيث كان يجلس ،
واتجهت عيناه الى مدخل الحارة ..
كان ينتظر قدوم « منعم » ..
كان يعتقد أن كل ما سمعه في بهو السجن .. وما
رآه وهم لا أصل له ..
وفي ذات مساء ، عاد الى منزله كعادته وحيدا شاردا
فداس بقدمه على قدم بائع متجول نشر بضاعته على قطعة
من قماش « النايلون » على الارض ، وصرخ البائع في
صوت خافت :
— حاسب ياعم ! ..
وانطلق عبد الظاهر والعيسارة تدوى في أذنه دوى
الرعود ، ولم يكد يصل الى بيته حتى ألقي بنفسه في
الفراش وعادته الحمى ..



الساعة



حينما خرج الصبى « نعيم » من مدرسته كان يحس أن الطريق بين المدرسة والبيت طويل ، وأن خطواته الصغيرة لن تقصر من طوله مهما مد فيها ، ومهما أسرع . وقد كان يعرف في نفسه ، أنه وثيد الخطوة .. يسير وحيدا ، يسائل نفسه : لماذا لا تهفو نفسه الى ضرب حصص الارض بقدمه ، ولماذا لا يتعلق بمؤخر عربات « الخنطور » ولماذا لا يسابق زملاءه في الشارع ، كما يفعل أكثر رفاقه في الفصل .. وبطبيعة الحال لم يسائل نفسه قط ، لماذا لا تساوره الرغبة في أن يأخذ حظا من لذائذ « الشقاوة » التي يتفنن فيها اخوانه في المدرسة .. ويصلون في تفننهم ، وابتداعهم وشجاعتهم ، الى صور باهرة .. انهم يخطفون أرغفة العيش من فوق رءوس عمال المخابز ويختفون وراء الابواب ، وانهم يضعون في أيدي الشحاذين المكفوفين أو مدعى العمى ، قطعاً من الحجارة أحيانا ، وأشياء أسوأ من قطع الحجارة أحيانا أخرى .. فاذا أمطرهم الشحاذ بوابل من الشتائم كمنوا في ركن من بناء ، وكنتموا في صدورهم ضحكات تود أن تنفجر .. وتقدم واحد منهم الى الشحاذ ، مدعيا أنه خف لنجدته ، حتى اذا ما اطمأن اليه خطف منه عصاه ، أو صفعه على قفاه !

كان « نعيم » يرى هذه المفامرات وقلبه يكاد يعصر عصرا ، لانه يشعر بأنها فوق متناول شجاعته .. لذلك لم يجرؤ - حتى ولا في خياله - ان يتصور أنه سيكون بطلا لوأحدة منها في يوم من الايام . كان يعرف بالضبط

حدود شخصيته ويلزمها تماما ، وقد كان أخص صفاته انه ولد هادىء ، وديع ، مرتب ، مطيع ، نظيف ، وانه أول فرقة دائما .. واليوم تأكدت صفاته ومزاياه هذه من جديد كما تأكدت من قبل مرارا .. فقد ظهرت نتيجة امتحان الثلاثة شهور الأولى ، فى السنة الثالثة الابتدائية بمدرسة القرية الابتدائية ، وكان الأول ، وحصل فوق ذلك كله ، على الدرجات النهائية فى المواد جميعا .. وقد اهتز الناظر اهتزازا شديدا - اهتزاز الاعجاب والفخر بطبيعة الحال - بهذه النتيجة المنقطعة النظير ، فدأب طرف شاربه المعقوص بيده اليسرى ، وهو يتأمل شهادة « نعيم » كما يتأمل الانسان لوحة فنية باهرة ، أو منظرا طبيعيا ساحرا ثم مرر يده اليمنى فوق ركبته اليمنى ، مرة ومرة .. ونظر الى ضابط المدرسة وسأله - كما يسأل السلطان فى حوادث الاطفال وزيره - ماذا يمكن أن يمنح صاحب هذه الشهادة من جوائز ؟ ..

ولم تكن شوارب ضابط المدرسة أقل ضخامة ، أو تقوسا من شوارب الناظر .. ولكن لم تكن تفوح منها رائحة « الجوزماتيك » الذى كان يستعمله فى تلك الايام ، الرجال المتأنقون ، ليكسبوا شواربهم القالب الذى يحبون أن يصبوها فيه .. واهتزت هذه الشوارب وكأنها تقول ، كما يقول الوزير فى « الحوادث » :

- التدابير لله يا ملك ..

وأخذ الناظر فى الحال يبحث فى أركان مكتبه وحجراته عن كتب أو خرائط ، أو أى شىء آخر متروك يصلح أن يكون مكافأة قبل نهاية السنة ، وأخيرا ، قرر فى حزم وعزم معا أن يهدى الى هذا الصبى النجيب ، ساعة يد ، وأن يدبر المال اللازم ، بتدابير تخرس لوائح الحكومة

وتربك وزارة المالية ووزارة المعارف معا .. ولما اشترى الساعة ، وتأمل فيها كما كان يتأمل في شهادة « نعيم » من قبل ، أحس بأنه بذل في سبيل النهوض بالتعليم مثلما بذل على باشا مبارك تماما .. وقرر أن تقدم هذه الساعة الى « محمد عبد المنعم خير الله الشوافي » أمام تلاميذ المدرسة ، وبحضور المدرسين جميعا ، وضابط المدرسة « مسعد أفندي حسين » ، وشيخ الفراشين « عم مصطفى الحصرى » .. ولما التأم الشمل وقف الناظر بين الجمع خطيبا ، وفي يده الساعة ، وأطال في الكلام ، وأسهب ، وتحدث عن مزايا الاجتهاد ، وطلب العلم ثم الطاعة والنظام ، وأدار الخطبة بعد ذلك ، عن الساعة ، وكيف انها تدق كما يدق قلب الانسان تماما ، وان شوقى أمير الشعراء لم يخطئ فيما قال .

« دقات قلب المرء قائمة له :

ان الحياة دقائق وثوان .. »

ومد يده بالساعة فاشرب جميع المدرسين والتلاميذ بأعناقهم الى حضرة الناظر ، وهو على الدرجة العليا من درجات سلم قليل الدرجات يؤدي الى طريقة تؤدي بدورها الى مكتبه ، ولكنه لم يلبث حتى ضم كفه على الساعة ، وبدأ يتناول معنى جديدا وهو « المكافأة » ودورها في النهوض بالافراد والامم ، وقال : ان الله يجازى ويكافئ ، وأخذ يستشهد بالآيات والاخاديث وشعر الشعراء وأقوال العظماء ، حتى يش الحاضرون من تسليم الساعة الى « نعيم » الذي كان واقفا أمام الناظر على آخر درجة من درجات السلم ، والمدرسة كلها من خلفه ، لا تنظر اليه بقدر ما كانت تنظر الى يد حضرة الناظر ، وقد انطوى كفه على الساعة .. كان « نعيم » هادئا كعادته .. شعر أول الامر بالخجل

الشديد ، عندما بدأت خطبة الناظر ، فلما أطلال وكرر وأعاد ، كاد ينسى تماما أنه موضوع هذه الخطبة ، وفقد حتى الرغبة في أن يأخذ الساعة .. فقد كانت انفعالاته قصيرة العمر ، تولد هادئة ، ثم تصبح باردة ، ثم تموت بلا ضجة أو عناء ..

ولكن دبت في الحاضرين جميعا حرارة شديدة ، حينما مد حضرة الناظر ذراعه في اتجاه « نعيم » وخطا نصف خطوة ، في اتجاه الدرجة الثانية ، للدرجة التي ألقى الخطبة منها ، فقد أحس الجمع بأن الاجتماع وصل الى ذروته ، وان الساعة قد حان اطلاق سراحها وانهم سيصفقون ، وقد يهتفون بحياة حضرة الناظر ، وقد يندفعون الى « نعيم » ليروا الساعة معه .. أى ان حالة التجمد والوقار ، ستنتهى . ولكن حضرة الناظر خيب أملهم ، فقد بقى على هذا الوضع ذراعه ممدودة في اتجاه « نعيم » ، وساقه تتهيا أو كأنها تتهيا للنزول .. واستمر يخطب ، وقد زاده هذا الوضع الجديد فصاحة ، وميلا للكلام . الا ان معين هذه البلاغة نصب آخر الامر ، فهبط درجات السلم حتى أخذ « نعيم » من يده وقال له :

— لقد كنت دائما رجلا فأهنتك وأهنيء والديك ومدرستك وأهل وطنك ..

وتدافع المدرسون نحوه يهشونه ويصافحونه .. ثم جاء التسلاميذ فأحاطوا به في حين اختفى الناظر في الطريقة المؤدية الى مكتبه . وشجاعت الفوضى في الصفوف ، وتعالى الهتاف ، وتعالى مع الهتاف بعض الطرابيش الصغيرة طيرها الاولاد فرحا لا بحصول « نعيم » على الساعة ، بل بانتهاء هذه الحفلة ، وبوقوع هذه المناسبة التى تبرر هتافهم وصراخهم .. ولم يطل بقاؤهم

فى ساحة المدرسة ، فقد تدافعوا نحو باب الخروج ، وهم يصيحون ويتضاربون ، ويتضحكون ..

وأخيراً وجد « نعيم » نفسه وحيداً .. عاد الى وحدته المألوفة ، فراح يسير على رصيف الشارع ، وكأنه لم يكن منذ قليل بطلاً يشار اليه بالبنان .. سار هادئاً ، الكتب فى يده ، والساعة فى جيبه .. فقد كان كل التغيير الذى طرأ على حياته انه كان يسير فى ذلك اليوم بخطى أوسع ، ولكنه لم يجر كما كان يجرى زملاؤه ، الذين لم يكن نصيبهم من حفلة عصر ذلك اليوم الا الاستماع والتصفيق والتهليل .. وكم كانت تبلغ سعادته ، لو انه استطاع أن يجرى ..

ولما وصل الى الباب ، باب منزله ، شد « السقاطة » التى كانت تقوم فى تلك الايام ، مقام الجرس الكهربائى فى أيامنا .. ورفع رأسه كالعادة الى أعلى ، فرأى خلف ثقب « المشربية » التى تطل من ورائها أمه ، كلما شدت « السقاطة » .. رأى هذا الوجه الحبيب ، هادئاً رصيناً ، فهزته الفرحة من الاعماق ، فانه سيعطيها بعد لحظات الساعة وسيلقى بنفسه فى أحضانها ، وستقبله — كما تفعل أحياناً — وسيشم رائحتها التى أحبها والتى تبقى عالقة فى أنفه ، فكل رائحة أخرى لا تعادلها ، الا رائحة أبيه ، حينما يعود من البلد التى يعمل فيها .. رائحة عرق العمل ، ممزوجة بالدخان ، وكأنهما تعلنان معاً عن طيبة الرجل ، ومدى تعبته وكده فى الحياة .. كما تعلن رائحة أمه ، عن ثباتها وجدها ، وثقتها بنفسها وترفها عن الاشياء والاحداث التى تجرى فى محيطها .. ولكن الباب لم يفتح .. ماذا حدث ؟ أكون هو الذى نفذ صبره وتغير ، وعاد يشد « السقاطة » ثم يفتح الباب ، ويرى نفسه فى مدخل بيته الذى اجتازه مئات

أو ألوف المرات ، عند الخروج وعند العودة .. هذا المدخل المظلم نوعا ، الذى لم يغط وجهه ، بلاط أو رخام ، فبدأ طينا أسود ، كأنه مدخل فى بيت بالفلاحين ، وفى نهاية المدخل كانت درجات السلم العتيق ، تنيرها فى الليل ، لمبة فى فانوس ، تزيد قدم السلالم قدما .. ولكنه كان يحب هذا المدخل ، وهذه السلالم ، وهذا الفانوس ، كما يحب أمه وأباه ، وفردوس ..

ولم ير « نعيم » بأسا فى أن يجرى ، وأن يقطع المدخل عدوا ، وأن يثب ويقفز درجات السلم العتيق ، درجتين درجتين ، بل درجتين حيناً وثلاثا حيناً آخر .. ورأى أمه على أعلى السلم ، وهى تتساءل :

— ماذا جرى .. ؟

فأخرج الساعة من جيبه وهتف :

— ساعة ..

وعقدت أمه ما بين حاجبيها فى تساؤل يفيض دهشة :

— ساعة ! ؟

: وامسكت أمه بالساعة ، وهى تتأرجح فى يده فى الهواء وعادت تسأل ، وقد بدأ عليها إعجابها بالساعة :

— ساعة من ؟ .. أين وجدتها ؟ ..

وضحك « نعيم » بكل جارحة فيه ، وقال :

— لقد أعطيت لى ..

ووضعت أمه يدها على كتفه ، وأدنته منها ورفعت وجهه الصغير إليها ، وقالت :

— من الذى أعطها لك ؟ ..

وقاطعها « نعيم » ..

— الناظر ..

وبدا أن الأمر أخذ يتضح لأمه ، فقالت وهى تهم بتقبيله :

— لاي سبب ؟

فقال :

— أنا الاول ..

فضمته الى صدرها بشدة وقبلته مرتين على جبينه
وخده وهى تقول :

— انت الاول دائما ..

فتخلص قليلا من ذراعيها ، ووصف لها الحفلة والخطبة
وقد بدأ جبينه يتندى بالعرق ، شاعرا بأقصى السعادة
لانه يتكلم بسرعة وبجرارة ، وبلا تحفظ ولان أمه خرجت
عن وقارها ، واستجابت لفرحته ، وانها عادت تقبله ،
وتضمه فى الوقت الذى كانت فيه ، فردوس ، قد
خرجت من المطبخ ، وفى يدها اناء كانت تغسله .. وقبل
أن تفهم الامر جيدا ، صاحت :

— أزغرد .. أزغرد ياناس ..

ووضعت أم « نعيم » أصبعها على فمها وصاحت :

— ما هذه الفضائح ؟

وصاحت فردوس ، وقد وضعت الاناء على الارض :

— فضائح ! .. كفى الله الشر ؟ هو الفرح حرام ..

ورنت زغرودة ، شعر لها « نعيم » بالخجل ، فأطرق ..

وأراد أن يدخل حجراته ، فتتابعت الزغاريد ، كأجراس

من ذهب ، من ناحية ، وكقذائف من بندقية ، متتابعة ،

سلطت على خجلة وانكماشه ، فخلصته منها من ناحية

أخرى ..

وتوالى شد « السقطة » ، فالجيران سمعوا الزغاريد

.. فجاءوا متتابعين يسألون :

— ما الخبر ؟ ..

فعادت أمه الى صفاتها الاصلية .. عادت الى الوقار

والميل الى الاقلال من الكلام ، ولكنها لم تستطع أن

تخفى سرورها ، فقد كانت عيناها تلمعان في الوقت الذي راحت فيه فردوس في تنقل لا هدف له ، وفي حركة لا ضابط لها ..

وكان « نعيم » يتابع تجولاتها ، وصيحاتها بسرور عظيم .. فقد كانت رفيقته الوحيدة في المنزل ، ولم يكن يحس بأنها في البيت لتخدمه بقدر ما كان يشعر بأنها مثله ومثل أمه صاحبة نصيب في هذا البيت الذي كان دنياه ..

وفي صباح اليوم التالي ، شعر بأنه مقبل على تجربة جديدة .. أنه الآن بطل من أبطال المدرسة ، فخطبة الأمس لا تزال ترن في آذان التلاميذ ، وحفلة اهدائه « الساعة » كانت حدثا غير مسبوق في حياة المدرسة كلها . ووصل الى المدرسة ، وبدأ يحس للحظة الاولى ان الاصابع تشير اليه .. الصغار ينظرون اليه ، ولا يقوون على الاقتراب منه .. والكبار ينظرون اليه وعلى شفاههم ابتسامة عصبية تترجم عن الغيرة منه مع الادعاء بأنهم لا يهتمون : أبطال الكرة والكشافة ، والقسم المخصوص ، يتظاهرون بعدم الاكتراث به ولا بساعته ، لانهم يعيشون في عالم أرقى وأكبر من هذه السفاسف التي تسمى بالدروس والكراريس والامتحانات ، أما المدرسون فقد نادوه مرارا ، ودعوه ليخلع الساعة من فوق معصمه ، يأخذونها ويتأملونها ، ويذكرون ماركات مختلفة للساعات لم يسمع بها من قبل .. ما هذا كله ؟ ان هذه الساعة لم تعد مجرد مكافأة لتفوقه ، لقد أصبحت اعلانا معلقا على ظهره يستوقف الناس ، انها حجر ألقى في سطح المدرسة فأثار فيه اضطرابا هائلا .. ولما تقدم النهار أدرك أن « الساعة » قررت أن تصبح زائلا لا يكف عن هز المدرسة .. ففي درس اللغة

الانجليزية كان الموضوع هو « الساعة » .. كتب المدرس فوق السبورة السوداء :

— كم الساعة الآن ؟

وعلم التلاميذ كيف يجيبون حينما يكون الوقت في منتصف النهار ، وحينما يكون الزمن ساعة ودقائق ، وساعة الا دقائق ، ساعة ونصف أو ثلث ، أو ربع .. وهكذا .. ولما دخل مدرس الانشاء ، كتب على السبورة فور وصوله الى الفصل :

— الوقت كالسيف .. ان لم تقطعه قطعك ..

ومدرس الحساب ، جعل حساب المائة يدور كله حول مقارنات بين ساعات فضية ، وذهبية ، وبرونزية ، وطلب الى تلاميذه ان يقولوا كم يكون ثمن ساعة فضية ، اذا كانت تقل عن ثمن الساعة الذهبية بخمسين في المائة ، وكان ثمن الاخيرة خمسة جنيهاً ..
الساعة .. الساعة .. الساعة .. !

أينما ذهب ، في أى مكان اختفى ، وجد « نعيم » الساعة أمامه تطارده وتلاحقه .. ولكن أمله كان كبيراً في أن تنسى الايام القادمة التلاميذ والمدرسين والمدرسة كلها الساعة ، ولكن أمله هذا أخذ يتناقص ويضعف ، حتى كاد يتلاشى .. فبعد أيام من اهداء الساعة اليه ، حضر مفتش ، فنودى عليه وهو يتناول طعام الغداء في صالة الطعام ، فخرج والعيون تتعقبه .. فاذا بضابط المدرسة يقوده من يده متجهاً به الى حجرة الناظر ، وقال له الضابط وهما في طريقهما الى الحجرة ان سعادة المفتش سمع بك ، وبالساعة التى اهديت اليك وانه يريد أن يراك .. وأن يراها .. ورفع الضابط ذراع « نعيم » الايسر ، حيث كانت الساعة تدق على معصمه ، ونظر اليها مبتسماً . ودخل « نعيم » الى الحجرة فوجد

المفتش جالسا في صدر الحجرة ، والظاهر انه كان يتبادل مع الناظر حديثا ضاحكا ، اذ لاحظ « نعيم » ان المفتش أخفى ابتسامة كانت على شفثيه ، ووضع رجلا فوق رجل .. وعاد الى الورا وتجهم قليلا ، ونادى « نعيم » بصوت يمزج التشدد بالتلطف :

— تعال .. تعال يا ابني ! هذه هى الساعة فى يدك .. عال .. عال .. انت تستحقها لقد رأيت شهادتك .. شهادة عظيمة ولكن اياك والكسل .. اياك واللعب .. اقترب ، اقترب لا تخف .. ما اسم أبىك ؟ ..

وأجاب « نعيم » وقد أدرك — على ضوء ما حدث فى المناسبات المشابهة — ان المفتش سيطلب منه أن يريه الساعة ، فخلعها من معصمه سلفا ، وقدمها للمفتش الذى تأملها ثم التفت الى ناظر المدرسة وهو يقول :

— شىء عظيم .. « ماركة » غالية ..

ثم عاد فنظر الى « نعيم » قائلا :

— ولكن كما قلت لك هذه الساعة ستنبهك الى الواجب .. والدك محتاج الى مساعدتك كما فهمت من اجابتك .. الفقر ليس عيبا يا ابني ، أصل الفتى ما قد حصل ، هل تستطيع أن تعرب أصل الفتى ما قد حصل ؟ ..

وأخذ « نعيم » يعرب الجملة والساعة فى يد المفتش ، فلما أتم اعرابها بنجاح رد له الساعة ، وربت على كتفه وصافحه ، وزوده بنصائح لا تختلف عن النصائح التى استقبله بها ..

ولم تمض على زيارة هذا المفتش الا أيام قليلة ، حتى أعلن أن المدرسة ستتشرف بزيارة كبير المفتشين ، وكان هذا المفتش الكبير مشهورا بالغلظة ، وبأنه لا يتورع عن ابداء تعليقات جارحة على عمل المدرسين أمام تلاميذهم

لذلك استعد المدرسون جميعا لاستقباله في أحسن حالاتهم ، وأصدروا أوامر مشددة ، بالنظافة والنظام ، وفتشوا أدراج التلاميذ ، وحملوهم على تنظيمها والقاء الورق الزائد منها في سلة المهملات ، وكتب كل منهم عنوان الدرس بخط جميل ، ووقفوا في منتصف المسافة بين باب الفصل والجدار المقابل للباب ، وفي منتصف المسافة بين الصف الاول لمقاعد التلاميذ والسبورة الموضوعة أمامهم ، وأخذوا يسألون تلاميذهم - على سبيل التجربة والاستعداد - الأسئلة ، وأخذ التلاميذ - طبقا لخطة موضوعة - يرفعون أصابعهم جميعا .. الذين يعرفون منهم والذين لا يعرفون - ولم يكن رفع الأيدي متروكا لحرية التلاميذ ، إذ كانت الأوامر تقضى بأن يسند التلميذ مرفقه الى أعلى درجة ، وظهره مشدود ، ورأسه مرفوع ، وعيناه متجهتان الى الامام .. ودخل كبير المفتشين الى الفصل أخيرا ، ووقف التلاميذ دفعة واحدة ، كأنما هم عرائس خشبية .. يحركها محرك آلي ، وكان كل منهم في وقفته العسكرية يسمع دقات قلبه خوفا من كبير المفتشين ، وأسئلته .. وأشار المفتش بطرف أصبعه للفصل ، فجلسوا جميعا ، وهم يدعون الله أن يأخذ بيدهم في هذه المحنة الداهية وبدأ مدرس الفصل في القاء درسه ، في الموضوع الذي اختاره ، وبالعبارات التي انتقاها .. وأخذ صوته يرن في الفصل ، مرتبا منسقا .. وزالت عنه آثار الاضطراب قليلا قليلا ، والمفتش يتجول بين الصفوف مطرقا ، كأنما يتأمل فيما يقوله المدرس ، ثم وقف فجأة الى جانب « نعيم » .. فوضع يده فوق كتفه قائلا :
- اذن هو أنت .. لقد كنت أبحث عنك .. قف ووقف « نعيم » ووجهه شاحب ، كأنما فارقت روحه

ورجع المفتش الى الوراء قليلا واستأنف كلامه :
- ولكن أنت أقصر من في الفصل .. حقا اذا كانت
النفوس كبارا تعبت في مرادها الاجسام ، ما اسمك
يا شاطر ؟

وأجاب « نعيم » في صوت خافت متعثر ..
فصرخ المفتش :

- ما هذا ؟ .. هل انت ميت ؟ هل أنا غول ساكلك
.. اسمعنى صوتك .. عاليا .. عاليا جدا

وجمع « نعيم » كل شجاعته ، وقال اسمه كاملا ..
فضحك المفتش ضحكة مفتعلة قصيرة وقال :

- لا .. لا .. لا ينفع هذا .. أريد أن يسمعك من في
الفصل المجاور .. أنت رجل وتخطب رجلا .. فتكلم
كما يتكلم الرجال هل فهمتنى ؟ .. هل سمعتنى ؟ .. أم
انك لا تسمع ؟ !

وراح « نعيم » يرتجف ارتجافا شديدا ، ولكنه أدرك
انه لا مفر من هذا الموقف الا بالصراخ على الوجه المطلوب ،
فنطق اسمه بصوت عال ، وبطريقة تضحك من يسمعها
لولا ان الجميع في ذلك الحين ، كانوا يعانون من خوف
المفتش الذى بدا عليه الارتياح اذ نفذ أمره كما صدر منه
تماما ، وقال له :

- اخرج أمام الفصل وأرنى « شطارتك » التى
حصلت بفضلها على ساعة .. ساعة غالية

وخرج « نعيم » وكأنما هو مجرم ضابط متلبسا
بجرمه ، ووقف أمام التلاميذ ، صغيرا شاحبا .. ولكنه
كعاداته لم يبد عليه شيء من الاضطراب سوى صفرة
وجهه

وأخذ المفتش يسأله في الحساب ، واللغتين : العربية ،
والانجليزية ، والمحفوظات ، والتاريخ ، والدين ، وهو

يذرع الحجرة ذهابا وإيابا ، و « نعيم » يجيب بصوت خافت ، لا يلبث حتى يرتفع ، كلما صدرت عن المفتش الكبير ، صرخة عالية .. وتثلجت يدا الطفل المسكين ، وتندت جبهته بالعرق ، ولكنه بقي صامدا ، وفيما هو يفكر في جواب سؤال ، سمع دقات الساعة في يده ، فنظر إليها بسرعة .. وكان بوده أن يلعن ويلعن اليوم الذي حصل فيه عليها ويلعن تفوقه الذي جعله هدفا لكل هذه المتاعب ، وضحية لكل من في المدرسة ، ولكنه جبل على الاستسلام لقدره ، واحتمل ما يصيبه في غير تمرد ولا ثورة ..

وشبع المفتش الكبير أخيرا من تقلب « نعيم » بين يديه ، كما يقلب القط الكبير فأرا صغيرا يكاد لا يكون لحم فيه ولا عظم .. ونفض إحدى يديه بالآخرى ، كأنما فرغ من شيء - ذبح شاة مثلا - ونظر الى « نعيم » نظرة طويلة ، توحى بأنه ينوى تدبير هجوم جديد ، ولكن تكسر تقطيب هذا الوجه المتجهم الخيف ، بفضل ابتسامة انتشرت في صفحته ، ثم قال في صوت - هو في الواقع أرق من صوته الذي خاطب به « نعيم » عند بدء الامتحان - ولكن رفته كانت أمرا نسبيا ، فلم تستطع آذان التلاميذ ولا المدرس تنبها ، قال :

- أنت معجزة .. حفظك الله .. ولكن اياك والغرور انه يقصم الظهور ، اياك والادعاء انه أس البلاء .. وتقدم الى « نعيم » وداعب خده بأصبعه مداعبة اهتز لها الطفل المسكين ، وكأنها صفة ..

وانصرف كبير المفتشين ، فتنفس الاولاد الصعداء ، وعبروا عن سرورهم بالحرية التي عادت اليهم ، بحركات كثيرة لا معنى لها ولا مبرر ، فقد فتح بعضهم الادراج وركل بعضهم من أمامه ، بمقدم حذائه ، وانتقل أحدهم

من آخر الفصل الى تلميذ في مقدم الصفوف وصفه
وجرى ، من حيث لا يراه المجنى عليه . . أما المدرس
فقد بقى في مكانه جامدا ، لا يصدق انه نجا ، وان كان
قد تولاه شعور خفى بالمهانة . . اذ ان المفتش دخل
الفصل وخرج منه ، ولم يوجه كلمة واحدة له ، لم يحيه
في القدوم ، ولم يحيه عند الانصراف وكأنه لا شيء . .
وأفاق المدرس الى نفسه ، فوجد ان قطعة الطباشير التي
كانت في يده ، كادت تذوب من كثرة العرق الذي تدفق
من مسام كفه الذي اطبق عليها ، والذي كان يزداد
اطباقا عليها كلما صرخ المفتش ، أو اقترب منه في تجوله
بالفصل . .

وعاد « نعيم » الى مكانه ، كجريح خرج من المعركة
وهو لا يكاد يعرف طريقه الى الصفوف الخلفية ، ولما
وصل الى مكانه لبث جامدا لحظة ، ثم امتدت يده الى
جيبه فأخرج منديله ، ومسح عرقه وصمت . . والفصل
من حوله ، يزداد ضجيجا . .

ونام « نعيم » ليلته - بعد زيارة المفتش - نوما متقطعا
وسمعت أمه أصواتا تصدر عنه ، تدل على انه يعاني من
كابوس طويل لا يريد أن ينتهى . . ولما استيقظ في اليوم
التالى شاحبا مهدود القوى ، شاعرا بصداغ شديد ،
وميل الى القىء ، تأكدت أن ابنها مريض . . وان عينا
أصابته ، فان الجيران من النساء والرجال ، لم يكفوا عن
الحديث عنه ، وعن الساعة التي ظفر بها ، وعن الحفلة
التي أقيمت له في المدرسة . . وهولوا في ذلك ، وبالفوا
حتى أقسم بعضهم أن وزير المعارف حضر بنفسه ليراه ،
وانه سيرسل الى السراى ، وأن نفقات تعليمه ستكون
على حساب الحكومة ، وان أباه سينقل الى القاهرة . .
والى جانب هذه المبالغة ، جرت مبالغة أخرى ، القصد

منها النيل من « أم نعيم » وأبيه ، وقد بدأت أول الامر بمفتريات صغيرة محتملة ، وانتهت الى مفتريات هائلة لا تدع محرما ولا مقدسا عند عائلة الطفل ، الا واجترأت عليها وداستها ..

وتماسك « نعيم » ، وقرر انه لابد أن يذهب الى المدرسة ، ولم تحاول أمه أن تنهيه عن عزمه ، لأنها كانت تود أن تراه كعادته ، يحمل كتبه ، ويخرج الى المدرسة .. ولكنها صممت أن تذهب معه « فردوس » وأن تحمل عنه الكتب ، وعارض الطفل ، ما استطاع المعارضة ، فقد خجل أن يراه زملاؤه ، وفردوس معه - كأنما هو في حاجة الى حماية - ولكن ميله الشديد الى الطاعة ، غلبه على أمره ، فأذعن لإرادة أمه ، وإن كان قد رفض أن يعطى فردوس « الكتب » ، ولما هم بالخروج رأت أمه « الساعة » فوق وسادته ، فسألته بعد تردد :

— ألن تأخذ الساعة ؟ ..

ووقف « نعيم » ينظر الى الساعة ، فوق الوسادة ، وكأنها حشرة سامة ، يخشى أن يدنو منها .. ولكن يده امتدت اليها ، وأخذها في صمت يقطر حزنا وأسى وألما ، واتجه الى الباب ، وأخذ يهبط درجات السلم كاسف البال ، وسار مع فردوس صامتا ، لا يكلمها ، ولا تكلمه .. لقد احترمت حزنه ، حتى إذا ما اقترب من المدرسة طلب اليها أن تعود ، فتركته يذهب ، وتظاهرت بالعودة ، ولكنها وقفت ترقبه ، حتى غاب والتلاميذ وراء أسوار المدرسة العالية ..

وكان الدرس الأول ، للمدرس اليوم السابق الذى حضر المفتش حصته .. فدخل الفصل ، مرتبكا لا يدرى ماذا يفعل ، ولكنه رأى نفسه - من حيث لا يدرى - يتجول

في الفصل ، بين صفوف التلاميذ ، كما كان المفتش يفعل في اليوم السابق ، ورأى التلاميذ أن مشيئته أصبحت أشبه ما تكون بمشيئة المفتش ، ثم وقف فجأة ، وصرخ في « نعيم » ، فانتفض « نعيم » من مكانه ، والتفت الى المدرس مأخوذاً .. فصرخ المدرس :

— هل أصبت بالصمم ؟ ..

ووقف الطفل وأجاب :

— كلا ..

فقال المدرس وهو يقترب منه :

— أخرج الكراس .. وأرنى ماذا فعلت بواجب يوم

الخميس الماضي ..

« واجب يوم الخميس ! » ..

كرر « نعيم » هذا السؤال لنفسه ، وكأن كابوس الليلة الماضية لم ينته ، أو كأنه عاد اليه .. فقد كان مستحيلاً عليه أن يقوم بهذا الواجب الليلة الماضية ، فقد كان أشبه بالمريض ، بل كان أسوأ حالا من المريض ، ولكنه لم يعتذر قط عن واجب .. ولم يتخلف يوماً عما يؤمر به أو يطلب منه ، ولكن كل هذا لن يشفع له الآن ، فشكل مدرسه ، وصوته ، وحالته كلها ، تدل على أنه بات يكرهه أشد الكره ، ولم يكن عقل « نعيم » الصغير قادراً على أن يفهم أن تجاهل المفتش للمدرس أمام تلاميذه ، ترك جرحاً عميقاً في نفس المدرس ولم يكن يعرف أن المدرس قضى ليلته ، وهو يتقلب في فراشه المألم من هذا الجرح ، كما كان « نعيم » يعاني من كابوسه المخيف ، وقال « نعيم » انه لم يكتب الواجب لانه كان .. وقبل أن يتم الجملة حدث ما لم يدره ، فقد تطاير شرر أمام عينيه ، ثم اشتمله صوت عميق وأحاط به ظلام كثيف ..

فُتِح «نعيم» عينيه ، فرأى نفسه على سريرهِ بالمنزل،
ورأى أمه الى جواره تضع رأسه على فخذها ، وفي يدها
منديل مبلل بالماء و « الكلونيا » ومن الناحية الثانية
رأى أباه ، ينحني فوقه ، وتلاقت عينا الاب ، بعيني
الابن ، وطال تلاقيها في صمت عميق ، وسأله أبوه في
حنان شديد :

— هل أنت أحسن الآن ؟ ..

وتحركت شفتا الطفل ببطء :

— الحمد لله ..

ورفع الصبي عينيه ، فتلاقت بعيني أبيه مرة أخرى،
وفي هذه المرة لاحظ أن عيني ابنه تترقق بدمع أشبه
ما يكون بدموع رآها في عيني الناظر يوم أن أعطاه الساعة
وانقطع « نعيم » عن الدراسة يوما تماثل بعده
للشفاء ..

ولما عاد الى المدرسة ، كان أخوف ما خافه حصة
المدرس الذي اعتدى عليه في اليوم الأسبق ، ولكن
« نعيم » فوجيء بأن المدرس دخل الحصة مرتبكا ، وأنه
تحاشى النظر اليه ، والاقتراب منه ، ومضت الحصة
دون أن يوجه اليه كلمة واحدة ، وفي فترة راحة الظهر
— بعد تناول الغداء — كان يسير في إحدى طرقات
المدرسة ، فاذا به يرى نفسه أمام هذا المدرس وجهها
لوجه ، وامتقع وجه « نعيم » وجمد في مكانه ، ولم يدر
ماذا يفعل .. ولكن حيرته لم تطل فالمدرس بدوره تردد
في سيره قليلا ، ثم أطرق ، وأحس أن هذه المقابلة أربكت
مدرسه أكثر مما أخافته هو ، وفيما هو يهم بالرجوع
من حيث أتى ، سمع صوت أستاذه يناديه :

— نعيم .. ! نعيم .. !

واتجه « نعيم » اليه .. ولما وقع نظره على وجهه ،

رأى تقاطيعه ناطقة بالخجل .. وبعد قليل سأله مدرسه :
- لماذا لم تحضر الى المدرسة أمس .. هل كنت مريضا ؟

ولم يدر « نعيم » بماذا يجيبه ، ولكنه قال بصوت خافت :

- بل متعبا ..

وأطرق المدرس ثم قال :

- من أى شيء ؟ ..

وأطرق « نعيم » بدوره وتلعثم .. ولم يجر جوابا ..
ومد له المدرس يده وقال وكأنه يعتذر :

- هل أخبرت والدك ؟ ..

ولم يكمل المدرس سؤاله .. وشعر « نعيم » بالدموع تملأ عينيه ، تأثرا بهذا الموقف الغريب المفاجيء الذى وقفه منه المدرس الذى صفعه منذ يومين صفعات هائلة وكأنه يود أن يقطع رأسه ، وأفحمته الدموع حتى عادت اليه ذكرى تلك الصفعات المذوية ، ولكنه تمالك نفسه وقال :

- أبى غائب أكثر الوقت عن المنزل ..

فزاد صوت المدرس رقة وقال :

- أنا مثل أيبك .. هل لا تزال متأثرا ؟ .. قل

يا « نعيم » .. قل ..

ولمح المدرس الدموع فى عينى تلميذه الصغير ، فربت على كتفه مرارا وهو يقول :

- انس ما حدث .. فأنت تعرف أننا نحبك جميعا

ومد يده مرة أخرى الى ذراع « نعيم » اليسرى التى

تحمل الساعة ورفع الذراع بالساعة قليلا ، وهو يقول :

- أنت تستحق أكثر من هذه الساعة .. ان لك

مستقبلا عظيما ..

وبعد فترة صمت دار المدرس على عقبه وترك «نعيم»
الذى أحس بالحاجة الى الجلوس ، فسار حيث وجد
جدارا منخفضا يطل على ناحية خالية من ساحة
المدرسة ، فجلس ثم أخذ ينتحب انتحابا شديدا ..



ومرت أيام قليلة هادئة ، اذا قورنت بما سبقها من
أيام ، حتى نقل واصف أفندى مدرس اللغة الانجليزية
وحل محله شامل أفندى .. وقد تعلق به قلب «نعيم»
منذ اللحظة الاولى ، فقد كان شابا نشيطا ، حسب
الفصل حسابه من الدقيقة التى بدأ يتكلم فيها . لم تكن
يده تمتد بالضرب ، كما لم يمتد لسانه بالسب ، ولم
يكن يكثر من أوامر المنع ، ولم يكن الدرس عنده ، دواء
يجرعه لتلاميذه ، فيتجرعونه وهم يلتوون ، وبودهم لو
تقبلوه . توفى والد أحد التلاميذ ، فطلب اليهم أن يذهبوا
جميعا الى بيت زميلهم ليعزوه ، ورقى أحد الاساتذة
الى وظيفة مدرس بالمدارس الثانوية .. فطلب اليهم ،
أن يجتمعوا خلال فترة الراحة ليهنئوه ، وأوعز لـ «نعيم»
فجمع من كل تلميذ نصف قرش ، ليقدّموا للمدرس
المنقول هدية صغيرة ، فرح بها المدرس فرحا عظيما ،
ولكن لم يكن «نعيم» يظن أن هذا المدرس نفسه سيجر
عليه بلاء عظيما ..

فى ذات يوم سأل شامل أفندى «البشتيلى» أن يلقى
أحدى المحفوظات التى علمهم اياها المدرس السابق ،
وكان «البشتيلى» تلميذا طويلا عريضا يجلس فى آخر
الفصل ، ويمد ساقيه الطويلتين ، ويقضى الوقت كله
مشغولا بأمور كثيرة ليس فيها شيء ما يتصل بالدروس،
ولو من بعيد ، وكان التلميذ يهابونه ، وكان المدرسون

يتحاشونه .. فقد كان شرسا ، يستثار بأتفه الأمور ،
ولكن شامل أفندى ، مدرس كامل لم يعتبر البشتيلي
إنسانا متروكا ، ولا كما مهملا ، بل عالج به بالرفق وأشركه
فى الدرس ، وهنأه على أبسط أجابة تصدر عنه ، ولو
كان نصفها خطأ .. وفى اليوم المشهود ، سأل شامل
أفندى ، البشتيلي عن هذه القطعة الصغيرة من
المحفوظات ، فأجاب بغلظة ظاهرة وفظاظة ملؤها التحدى
بأنه لا يحفظها ، فابتسم شامل أفندى وقال :
— لماذا لم تحفظها ؟

فأجاب وكأنه ثور يتهيا للنطاح :
— لان أحدا لم يطلب منا أن نحفظها ..
فعادت الابتسامة التى تخرج وتورط أغلظ النفوس ،
وأشدّها قسوة :
— اذن سأسأل غيرك ..

وسأل شامل أفندى واحدا ، واثنين ، وثلاثة من
تلاميذ الفصل ، وأدرك التلاميذ انهم جميعا لو أجابوا ،
لكان معنى ذلك ، انهم يتحدون البشتيلي ، ويشبتون
كذبه .. فادعوا جميعا انهم لا يحفظونها ، وأحس شامل
أفندى ، ان الامر يحتاج الى حزم ، وان علاج البشتيلي
بالرفق ، والملاطفة ، يجب أن يؤكد بلون آخر من العلاج ،
هو دور الحزم والشدة ، فتلفت فى الفصل يمينا ويسارا ،
وكانه يود أن يجد مخرجا للأزمة .. وقع نظره فجأة على
الساعة فى يد « نعيم » وكان قد سمع بقصتها ، ولكنه
لم يكن قد حفظ بعد اسم صاحبها ، فاتجه نحوه ،
ووضع يده على الساعة ، وقال :

— قم أنت يا صاحب الساعة .. انت لا تكذب ..
انت لا تخاف .. قم واسمعنا المحفوظات .. ان
البشتيلي لا يخيفك ..

وامتقع وجه « نعيم » واصفر حتى أصبح في مثل
بياض قميصه ، وأدرك « شامل » مدى ما أصاب
« نعيم » من حرج ، فوقف الى جانبه وأخذ يربت على
كتفه ، وهو ينظر الى البشتيلي ، محاولا تهدئته قائلا :
البشتيلي .. نسي فقط .. انه سيحفظها غدا اليس
كذلك ؟ وزمجر البشتيلي وكأنه كلب عقور ، ووقف
« نعيم » زائغ العينين ، لا يدري ماذا يفعل .. ولكن
شامل أفندى بقى يستحثه ، حتى وقف وألقى القطعة في
صوت هادىء ولكنه رصين ، جميل ، كان أشبه شيء
بصوت منبعث من خارج الحجرة ، أعلى من هذا الصراع
الدائر بين مدرس يريد أن يحفظ النظام في الفصل
ويضرب المثل لتلاميذه وبين ولد فاسد لا يريد أن يوافق
اليد الرحيمة التى تمتد لانقاذه .. كان صوتا ملائكيا
لطيفا .. لكنه لم يكد « نعيم » ينتهى من القائه العذب
حتى صدرت عن البشتيلي ، حركة مصحوبة بصوت ،
اندفع لهما الدم في وجه شامل أفندى ، فانطلق كالسهم
الى موضع البشتيلي ، ورفع بكليتا يديه من مقعده ،
ثم أخذ يصفعه يمينا ويسارا ، ويهزه هزا عنيفا ، أطار
طربوشه من فوق رأسه .. ثم قذف به الى حيث كان ..
واتجه شامل أفندى وهو منفعل الى مقدمة الفصل ،
وأمر التلاميذ واحدا بعد واحد ان يؤدوا هذه القطعة
من المحفوظات .. وأداها الجميع ، ولكن فى عصبية هائلة
.. كانوا يرددون الالفاظ ترديدا بلا فهم ، ولا توقف ..
لقد كانت الصفعات التى رنت على وجه البشتيلي ، رأس
الذئب الطائر ، فاتهموا بها جميعا ..



وانتهى اليوم ، وتبعه يومان أو ثلاثة و « نعيم »
يحسب ان الدهر قد اكتفى بما ابتلاه به منذ ظهرت

الساعة في حياته وفي اليوم الثالث أو الرابع ، خرج من المدرسة ومعه كتبه هادئا ، مرتبا وديعا ، نظيفا كالعادة ، وتفرق تلاميذه من حوله كالعصافير .. هذا يجرى ، وذاك يثب ، والثالث يتعلق بمؤخرة عربة « حنطور » ورابع يشد من الخلف عربة « كارو » .. يجرها حمار هزيل يكاد يقع اعياء من فرط الجوع والضعف ، فيقع بين ذلك الحمار والصبى ، سباق من قبيل شد الحبل ، وتجمع عدد منهم ، ولبسوا من ورق جرائد كان معهم « طراير » فوق رؤوسهم ، وراحوا يزمرون ويصفرون ويهرجون ، مثيرين في الطريق ضجيجا عاليا وازعاجا لا يدع مارا في الطريق من رجل أو طفل أو امرأة ، حتى يناله بشيء ..

وسار « نعيم » وحده ، حتى بعد عن المدرسة وهدأت الشوارع ، وانعطف في حارة جانبية ، ثم دخل الى عطفة صغيرة .. وفيما هو يدخل اليها ، خيل اليه أن شخصا ما يتبعه ، وكان ظنه أن « فردوس » هي التي تتبعه ، فقد لمحها أكثر من مرة في أكثر من يوم ، تسير خلفه من بعيد ، وسأل أمه فأكدت له انه وأهم وان فردوس لم تترك المنزل ، فصدقها ، لانه كان يصدقها دائما ، ولان التي اشتبه فيها ، كانت تلبس ملءة « لف » ، وفردوس كانت تخرج عارية الرأس .. ثم أحس ان الشخص الذى كان يتبعه قد اقترب فالتفت الى الخلف فاذا به يرى « البشتيلى » ، مندفع ، وقد خرج شعره الخشن من تحت طربوشه وانفتح أعلى قميصه ، عن صدر ضخم ، يرتفع وينخفض ، مع أنفاسه التي كاد يقطعها العدو خلفه ، وقبل أن يدرك تماما ما حوله ، أحس بأن شيئا ساخنا جرى على وجهه ، ثم شعر بألم حاد وراء أذنه ، ثم بكتبه تناثرت في الهواء ، ثم بجدار يصدم رأسه من

الخلف .. تتابعت هذه الاشياء جميعا في أقل من لمح
البصر، ثم توقفت فجأة .. رأى بعدها الاشياء والاشخاص
واضحة ، فهذا هو البشتيلي ، يهم بالهجوم عليه مرة
أخرى .. وها هو ذا ، واقف أمام البشتيلي ، بلا خوف ،
وها هو ذا يضع يده في أعلى فتحة قميص البشتيلي ،
عندما اقترب منه ، ويجمعها في قبضة يده اليسرى ..
وها هي ذى قبضة يده اليمنى ، تجمع بحركة لا ارادية
وها هي ذى ترتفع إلى وجه البشتيلي .. ثم حدث
أعجب شيء .. لقد انطلق دم غزير من أنف البشتيلي ،
وفمه .. وتتابعت الاشياء الغريبة بلا مقدمات فها هو
ذا ، يركل ، ويضرب ، ويعض .. والبشتيلي يصرخ :
« آه يا ابن ال .. عيني .. ينعل .. شعري .. الخ »
كيف حدث هذا كله .. ؟

وقبل أن يعرف الإجابة على سؤاله ، رأى جمعا
ضخما من النساء والرجال والاطفال ، قد أحاط به
لا يدرى من أين بعثت ، ورأى رءوسا أخرى كثيرة أطالت
من نوافذ المنازل المتداعية الفقيرة القليلة بالعطفة التي
وقعت فيها المعركة ، ورأى من خلف كل ذلك ، فردوس
بملاءة « لف » .. رآها تشق الزحام ، وتقرب منه ،
وتخرج منديلا فتمسح به الدم الذي غطى وجهه ، ثم
ترفع طربوشه الصغير الذي وقع .. ترفعه من الأرض
وتعيده إلى رأسه ، ثم تنظر عند مواقع الاقدام ، فتجد
الكتب والكراسات قد تناثرت .. هذه الكتب المرتبة
المنظمة ..

فعلت هذا كله دون أن تتكلم أو تنطق بحرف ، فلما
جمعت ما تبعثر من « نعيم » نفسه ومن أوراقه ، وضعت
يدها في يده ، وقالت :

— الله لا يكسبك يا بعيد ..

أين ذهب « البشتيلي » ؟

دار « نعيم » بعينيه في الزحام بحثا عنه فلم يجده ، فسار وراء فردوس .. يدها في يده ، وكتبه تحت إبطها ، وهي مرتبكة متعثرة ، فقد كانت حديثة عهد بالملاءة « اللف » ، والناس من خلفهم يتكلمون كلاما كثيرا لم يفهم منه شيئا ، ولما وصل الى نهاية المطقة رأى البشتيلي جالسا على حجر ، ودما غزيرا يتدفق من وجهه وأنفه .. وامرأة عجوزا ، تحاول أن تحبس الدم المتدفق بمنديل « محلاوى » ضخمة في يدها ..



وبعد أن سار « نعيم » بضع خطوات صرخ :
- الساعة !

وأشار « نعيم » الى معصم يده اليسرى حيث يضعها وصرخت فردوس بدورها « وقعت منك ؟ » وعادت أدراجها ، وقد سقطت الملاءة من فوق رأسها ، وكادت تسقط الى الأرض والكتب تحت إبطها ، ومن خلفها « نعيم » ، ولما وصلا الى حيث دارت المعركة ، أخذ كلاهما ينظر في الأرض والناس يسألون :

- هل ضاع شيء ؟ .. وكلاهما مشغول بالبحث غير ملتفت لما يقال ، وبعد قليل هتفت فردوس :
- لقد وجدتها .. !

ورفعت شيئا من الأرض الى « نعيم » الذي أخذه بلهفة ثم بدأ عليه وجوم شديد ، فقد كان ما وجدته فردوس حطام الساعة ، قطع سوار الجلد الذي كان يربطها على المعصم ، وحطمت زجاجتها ، والتوت عقاربها .. وأدناها « نعيم » من أذنه ، ثم هزها مرة ثم مرة ، ثم عاد يهزها بشدة ، وبدأ عليه بعد ذلك شيء من الارتياح ،

وآرتسمت فوق شففيه ابتسامة باهتة ذابلة وقال في صوت لا يسمع :

— انها لا تزال تدق ..

وفي اليوم التالى ، لم يكن ممكنا لـ « نعيم » أن يذهب الى المدرسة .. فقد ارتفعت درجة حرارته قليلا ، وكان يحس بألم فى حلقه ، وتعب قليل فى كل جسمه . ولما أنتصف النهار ، قال لأمه ، انه لابد أن يكون قد أصيب باحتقان فى اللوزتين ، ونظرت أمه الى حلقه ، فوجدته ملتهبا ، وأسرعت تعد له غرغرة من عصير الليمون وتضع له كمادات من الخل والماء ، والكولونيا والماء .. وكما تقدم النهار ، زادت حالة « نعيم » سوءا

وفي اليوم التالى بدا عليه التعب ، وقل ميله للحركة ، وضعف نشاطه فى الكلام ، وحضر أبوه ، وقرر أنه لابد من دعوة طبيب ، وعارضت الأم فى ذلك ، ولما كان اليوم الثالث زادت حالة « نعيم » تأخرا ، فدعى طبيب مجاور ، يستدعيه الجيران فى جميع حالاتهم .. فهو مولد فى حالات الوضع ، والجراح عند الحاجة الى عملية جراحية ، وعلمه يتسع للحميات ، وأمراض النفس والعقل ، ووقته يتسع لسماع مشكلات العائلات ، وبالجمله فهو صديق وطبيب وقد لبي الدعوة ، حينما دعى لزيارة « نعيم » وقاس درجة الحرارة واطمأن اذ لم يجدها مرتفعة ، وكتب أدوية ، وخرج وهو يؤكد أنها نزلة برد ، مع تعب سابق ، احتقن لها الزور ..

ولكن « نعيم » لم تتحسن حالته ، وقلت قدرته على بلع طعامه ، وازداد ضعفه وشحوبه .. وقلق أبوه ، فقصد أحد ذوى قرباه من طلاب كلية الطب ، ليرى « نعيم » ولم يكد ينظر طالب الطب ، فى حلق « نعيم » حتى تيجهم وجهه ، ولم يستطع اخفاء انزعاجه ، وسألت

الام والاب ماذا هنالك ؟ فقال :

— لا بد من استشارة طبيب ، ونصح بطبيب ذكره ،
وبعد قليل ، عاد الاب ومعه الطبيب الذى تأمل فى خلق
« نعيم » ، ونظر الى قريبه الطالب وقال :
— دفتريا .. !

ولم يكن مثل هذا الاسم معروفا عند اهل الحى الذى
ينتسب اليه « نعيم » فى تلك الايام ، ولكن الام حينما
سمعت الاسم احست ان قلبها قد تعطل ، وان دمها قد
جمد .. ونظرت الى ابنها « نعيم » ، فلم تره فى مكانه
على فراشه ، اذ دارت الارض بها ولم تدرك بعد ماذا
اصابها ..

ولما افاقت ، كان « نعيم » فى فراشه ، كالمهد به منذ
ايام ، احسن حالا ، يلعب بشيء فى يده .. ونظرت الام
الى مافى هذه اليد التى كانت صغيرة ونحيلة فأصبحت
اضال ، واكثر نحولا .. فاذا هى الساعة وابتسم « نعيم »
ابتسامة منعشة لطيفة وقال لأمه وهو يدنى الساعة من
أحدى أذنيه « انها عادت تدق » ، وفرحت الام كثيرا
حينما علمت ان الساعة عادت الى الحياة بعد أن توقفت
وخطفتها من ابنها ، وألصقتها بأذنها ، وكأنها تود أن
تسكب دقات الساعة فى أذنها ، كما يرفع عطشان كأسا
من الماء المثلج الى شفثيه فى يوم حار .. وسمعت الام
دقات ضعيفة متقطعة كأنها هى خطوات كسيح يحاول
المشى عبثا .. ثم توقفت الدقات تماما ، فوقف معها
قلبها .. ولاحظ « نعيم » ما بدا على وجه أمه ، فأخذ
الساعة منها ، وهى تأبى أن تفلتها من بين أصابعها ،
وهزها قبل أن يلصقها بأذنه ثم ضحك وقال لأمه ، وهو
يعطيها الساعة :

— اسمعى .. انها تدق .. انها تسير كما كانت ..

لا تخافى يا أمى لا تخافى .. سأشفى وسأعود الى المدرسة
من جديد .. وسنصلح الساعة ، سيصلحها لى أبى ..
وسمعت الام الساعة ، قلمع وجهها بفرح غامر .. فقد
كانت فعلا تدق ، دقا منتظما ، وسارت كأنها رد اليها
الشباب

ومدت الام يدها بالساعة الى ابنها ، فأخذها وهو
يقول :

— لم يبق من عقاربها الا عقرب الساعات .. طار
عقرب الدقائق السريع النشيط ، وعقرب الدقائق، وبقي
العقرب البطيء الذى كنت أقول لك دائما انه يشبهنى
وقامت الام الى الخارج ، لتمسح دموعا كثيرة ملأت
عيونها .. فقد حدثها قلبها ، انهم تأخروا كثيرا فى
استدعاء الطبيب المختص .. وفهمت على الرغم من كل
التعمية والتغطية التى أسدلت ستائرنا عليها ، ان
الطبيب المختص كان فى وسعه أن يحصن « نعيم » فى
أوائل المرض بحقنة جديدة ، تقتل المرض فى مهله
ولكنهم تأخروا .. تأخروا كثيرا ..

وقبل الفجر ، انتفضت وهى جالسة على مقعد بجوار
فراش « نعيم » على حركة وصوت ، اذ خيل اليها أن
« نعيم » يناديها .. وفتحت عينيها اللتين لم تعرفا النوم
ليالى طويلة .. فوجدت « نعيما » نائما نوما هادئا
وعميqa .. ولا شيء الا الساعة ملقاة فى الارض ..
والتقطت الساعة ، وهزتها .. هزتها بشدة ، فلم
تتحرك ، فألقت بنفسها على ابنها النائم ولم تبال أن
توقظه .. ولما أدركت الحقيقة ، من برودة جبهته ، لم
تستطع أن تصرخ ، فقد مات صوتها فى أعماق صدرها ..



ولما حانت لحظة تشييع الجنازة ، وقف ناظر المدرسة

وكانما هو شيخ فان ، معتمدا على ذراع ضابط المدرسة
من ناحية ، وذراع شامل أفندى من ناحية أخرى ، وقال
وهو يكاد يترنح :

— أنا أعرف أنه مات بالدفتر يا .. ولكن لست
أدرى لماذا أشعر بأن لى يدا فى موته .. هذه الساعة ..
هذه الساعة ! ..

وأراد الضابط مسعد أفندى أن يهون الأمر على الناظر
فقال :

— لقد كان ابن موت !

فحدجه الناظر بنظرة تقصف شررا وقال :

— ماذا تعنى ؟ .. هل لا يريد الموت أن يترك لنا إلا
النفاية ..

ومسح « شامل » دمة انحدرت على الرغم منه فوق
وجهه وقال :

— لقد تعلمت منه .. تعلمنا منه الكثير ..



وسارت الجنازة ، وبعيدا فى آخر الصفوف ، كان
يسير شخصان .. البشستيلى ، وفردوس .. وكانت
فردوس تتعثر فى ملاءتها « اللف » ، تماما كما كانت تفعل
حينما كانت تراقب « نعيم » خشية أن يصيبه شر ..
كانت تراقبه من بعيد .. تماما كما تفعل الآن ..



صراف في النافذة



كان الناس يسرون في حارة «شاكر أغا» دون أن يرفعوا
رعوسهم الى النافذة التي كان يتدفق منها صراخ يزداد
علوا وارتفاعا على وقع عصا تهوى بشدة على جسم ،
فيسمع لها رنين كرنين آتاء من نحاس ، يطرق بعصا
من خيزران .. فقد ألف الناس سماع هذا الصراخ ،
حتى أصبح أمرا عاديا لا يستوقف أحدا ، ولا يثير انتباهها
.. وقد سمع أول ما سمع مرة في الاسبوع الواحد ، ثم
مرتين ، ثم أصبح يسمع كثيرا ولكن بغير نظام مضبوط
.. وحينما كان هذا الصراخ جديدا كانت نوافذ المنزل
المجاورة تفتح ، وتطل منها رعوس متزاحمة فيها رعوس
النساء ، ورعوس البنات ، تتخللها رعوس صـغيرة
لا يستطيع أصحابها أن يصلوا الى حافة النافذة فيشبوا
على أطراف أصابعهم ، ليعرفوا ما الخبر ، ويرضوا
فضولهم .. وفي أحيان كثيرة كان يقف في النوافذ مع
النساء والصغار ، رجال كبار يطلون كما تطل زوجاتهم
وبناتهم ، ولكن تحت ستار مفضوح من أدعاء عدم
الاهتمام ..

ولم يجد أهل حارة «شاكر أغا» صعوبة في أن
يعرفوا سبب هذا الصراخ .. فهم يعرفون الشقة التي
ينبعث من نافذتها .. انها شقة يسرى أفندي

ويسرى أفندي ساكن قديم في هذه الحارة ، وعلى
الرغم من قدمه فيها ، فان صلاته بسكانها محدودة ،
فهو لا يزور ولا يزار الا نادرا ، وقد كان يروح الى عمله
ويغدو منه صامتا لا يكلم أحدا ، ولا يكلمه أحد ، يسير

في الشارع الموصل من الميدان الى الشارع الذي تتفرع
منه الحارة ، وكأنه لا يرى انسانا ، أو كأن ما حوله مجرد
فضاء .. وكان وجه يسرى أفندى أبيض مشربا بحمرة
تنتثر فيه نقط كثيرة صغيرة حمراء ، شبيهة بلون شعر
رأسه الأحمر ، وكان لونه ومسلكه ، وبعده عن الناس
سببا في تكهن أهل الحارة المتضارب في شأن جنسه ..
فمن قائل انه تركي ، ومن قائل انه « ارناءودي » نزحت
عائلته من البانيا ، ومن زاعم انه شركسي من بلاد القوقاز .
أما يسرى أفندى ، فلم يكن يصل الى سمعه شيء من
هذا كله .. لانه ما يكاد يصل الى شقيقته ، حتى يفلق
بابها عليه فلا يخرج ..

وقد سرت في الحى ، اقوال بدأت على استحياء ، ثم
ازدادت على الايام قوة ، وكلها تؤكد أن يسرى أفندى
رجل يدمن على الشراب .. وانه من الساعة التي يعود
فيها الى بيته ، لا يكف عن تجرع كؤوس لا حصر لها ، من
زجاجة كبيرة يشتريها بنفسه ، ويخفيها في أوراق
جريدة .. فاذا فرغت الزجاجة ، قبل أن يشبع ، أو
فرغت ولم يسرع النوم الى نجلته ، أو لم يكن لديه
ما يشتري به هذه الزجاجة ، أو اذا حدث في البيت ،
ما يعكر مزاجه ، وهو في خلوته مع كأسه وطأسه ، انفجر
احتجاجة في صورة واحدة لا تتغير ، وهي امتداد يده
بسرعة البرق الى عصاه ، وانطلاقه الى حجرة ابنه
« سيف » وأنه ياله عليه ضربا ، كأن « سيف » قد
تجمعت في شخصه كل أسباب الحرمان والاثارة التي
يعانى منها أبوه ..

وكان « سيف » صبيا نما جسمه ، نموا لا يتناسب
مع سنه ، فبدأ بين زملائه في المدرسة ، واخوانه في
الحارة ، عملاقا بين أقرام ، كان طويلا عريض الصدر ،

مليًا بالحيوية ، فأنت لا تراه إلا وهو يعدو ، أو هو في عراك ، أو هو بين لاعبي الكرة ، يدفعها بقدمه ، لاهثا ، وعرقه يتصبب من جبينه .. ويداه وكتفاه تزيع من أمامه ومن جواره كل من تحدثه نفسه بالاقتراب منه وكان بعينه « حول » ، جدير بأن يغرى الصبيسان بالسخرية منه كعادتهم مع كل ذي عاهة ، مهما صغرت أو خفيت .. فالالتهع ، والاكتع ، والاحول ، والقصير المفرط في القصر ، والطويل المسرف في الطول ، لا ينجون من عبث الاطفال الذين يمتلئ قاموسهم باسم لكل صاحب عاهة من هذه العاهات وغيرها

ولكن « سيف » مع حول عينيه ، كان قويا سريع الحركة متفوقا بحكم ميزته البدنية على أقرانه في اللعب ، فدانوا له بالطاعة المشوبة بالخوف شيئا ما ، وبالكراهية الى حد قليل . ومع كل هذه الصفات والمزايا ، بقي « سيف » هدفا لعصا أبيه .. بل بقي الهدف الوحيد لها بين كل أفراد العائلة ...

يضرب مرة كل بضعة أيام .. وأحيانا يضرب في اليوم الواحد مرتين .. وفي كل مرة ، كان يصرخ صرخات تهتز لها جدران الدور الذي يقيم فيه مع والده وعائلته ، بل حارة « شاكر أغا » كلها ، فان صدره الواسع كان ينطوى على رثتين قويتين شابتين لصبي رياضي ، قوى البدن ، صحيح الاعضاء لا يكف عن الجري والوثب ، والكر والفر وكان الظن انه حينما يألف الضرب ، سيقبل احساسه بالآلم ، أو على الاقل سيضعف صراخه ، الذي يصدر عنه تعبيرا عن هذا الآلم .. ولكن هذا الظن لم يتحقق ، فقد زاد صراخه على مر الايام ارتفاعا ، وفي بعض الاحيان كان هذا الصراخ يقترب بأفعال رهيبة يجمد لمراها الدم في العروق ، فكثيرا ما شاهد أهل حارة « شاكر أغا »

« سيف » وقد تدلى نصفه من النافذة وكأنه موشك على السقوط الى الحارة كومة من اللحم الممزق مختلطا بعظم مهشم سابحا في بركة من دماء . ولكن هذا الجسم المتدلى ، كان يبقى معلقا دون أن يسقط ، ودون أن يرتد الى الداخل ، الى أن ينتهى الضرب الذى يستمر فى ايقاع رتيب زمنا غير قصير وكأنه يصدر عن آلة لا تحسب حسابا لاحد أو لشيء . وكان الذين يستطيعون أن يروا ماذا يحدث داخل شقة « يسرى أفندى » يرون ماذا يقع بعد مثل هذا المشهد الفاجع ، فلا يكاد يصدقهم أحد ، اذ كانوا يؤكدون أن « يسرى أفندى » لم يكن يكف عن الضرب . وهو يكف غالبا فجأة - حتى يلقي بعصاه على منضدة فى صالة المنزل ، ثم يجلس على مقعد قريب من هذه المنضدة ، وقد علاه وجوم شديد ، واستولى عليه جمود كالشلل ، يثبتته فى مقعده زمنا طويلا ، لا تطرف له خلاله عين ، ناظرا الى لا شيء ، أما « سيف » فيندفع الى حجرة من حجرات المنزل ، وهوى عواء مدويا ، ثم يأخذ عواؤه فى التناقص حتى يسكت تماما ، ثم يمرق الى باب الشقة الخارجى كالسهم ، يهبط درجات السلم فى خفة وسرعة . . كل درجتين أو كل ثلاث درجات فى قفزة واحدة ، فاذا ما وصل الى الحارة ، اندفع الى أول مجموعة من الصبيان تصادفه واختلط بها ، واشترك مع أفرادها فيما يمارسون من لعب ، وكأنه كان معهم منذ البداية . ولم يحدث أن فكر أحد من هؤلاء الصبيان - ولو مرة واحدة - فى أن يشير ولو بحرف واحد ، الى هذه الواقعة الساخنة التى ملأ دويها أرجاء الحارة التى خرج منها « سيف » لتوه . . بل انهم كانوا يستحون أن يلفتوا نظر « سيف » الى ما يتخلف أحيانا عن هذه الواقعة من دم متجمد على جبهته أو فى أحد ركنى فمه ؛

أو غير ذلك من المواضع في جسمه .. ولم تكن هذه العلاقة الغريبة بين « يسرى أفندى » وابنه ، هى كل خصائصه من غريب الأطوار ، فقد كان شهر رمضان موسما تحيا فيه شخصية جديدة تخرج من شخص « يسرى أفندى » الذى أصبح معروفا لكل أهل الحارة وما يجاورها ، وهى شخصية تخالف الأصل الذى خرجت منه كل المخالفة .. فالنافذة التى كان يتدفق منها صراخ « سيف » كل يوم ، ينبعث منها منذ اليوم الأول من رمضان كل سنة صوت « يسرى أفندى » وهو يقيم الصلوات الخمس فى مواعيدها ، ثم وهو يتلو القرآن فى صوت جميل ، يحمل الكثيرين والكثيرات من الجيران على أن يقتربوا من نوافذهم ليسمعوا هذا الترتيل الحلو ، فتخشع له قلوبهم وتدمع عيونهم .. أما المارة فيرفعون رؤوسهم إلى النافذة وهم يتمهلون فى سيرهم ، وإذا كان الضحى من كل يوم فى رمضان لبس « يسرى أفندى » ثيابه ، وحمل فى يده اليمنى عصاه ، وخرج .. وعلى وجهه ابتسامة تحيى كل من يقابله فى الطريق ، فيقف له فى الشارع الذى تتفرع منه الحارة : « عبده البقال » ، و « صادق البواب » وغيرهما ممن تقع حوائيتهم على جانبى الشارع الكبير . وفى هذه الأيام يجمع بعض أهل الحى شجاعته ، فيستوقفون « يسرى أفندى » فى طريقه ، ويسألونه عن أمور حياتهم أو يطلعونه على ورقة حكومية وصلتهم ، أو يطلبون وساطته عند أحد زملائه من موظفى الدولة .. فلا يضيق بشيء من هذا كله ، ولا يتأخر أبدا فى أن يساعد ويعين ، ويشرح وينصح ..

ولقد عرف أهل الحى أن « يسرى أفندى » ضعيف غاية الضعف أمام النساء اللواتى يلبسن الملايات الف

السوداء ، وذلك في يوم من أيام رمضان أيضا .. فقد كان عائدا من عمله ، فرأى أمامه واحدة من لابسات هذه الملايات ، تتمايل وتنثنى ، والملاية تكشف عن تكوين جسمها ، وذراعاها العاريتان ، يثبتانها فوق رأسها ، أو يحكمان لفها حول خصرها ، فتوقف قليلا ، ثم اندفع الى الجانب الآخر من الشارع ، فرارا من الفتنة .. ولامر ما انتقلت السيدة الى نفس الجانب ، فمرق الى الرصيف المقابل ، ولكن شاء سوء حظه أن يرى سيدة أخرى أكثر رشاقة ، تسير أمامه ، في خلاعة مثيرة .. فنزل الى وسط الطريق ، وعلى وجهه فزع من تهدده خطر داهم ولكن ما يكاد الناس يفرغون من أداء صلاة العشاء في رمضان حتى تنهار ارادة « يسرى أفندى » فيقف على نفسه الباب ويخلو الى زجاجته ، قد يشرب منها ويسرف في الشراب ، حتى الثمالة ، وقد لا يشرب ولكن يبقى طوال الليل مؤرقا ، يروح ويفدو في أرجاء المنزل ، هائج الامصاب ، يود لو ينفجر على عادته ، في شيء أو في شخص ولكنه يلجم نفسه الهائجة .. وكثيرا ما هددته نفسه بأن يستعين بالعصا ليطلق عن طريقها الابخرة المنعقدة في نفسه وصدره ، ولكنه كان يقبض يده عنها ، ثم يبعدها عن نظره حتى لا يعذبه مرآها في تناول يده ، وهو عاجز عن أن يتذوق لذة استعمالها ، أما « سيف » فكان أشبه شيء بالطبق الشهى المصرى للصائم شديد الحب للطعام .. فأكتافه العريضة ، وظهره المنبسط ، وجسمه الممتلئ كلها كانت دعوة ملحة لـ « يسرى أفندى » وعصاه ، ولكن « يسرى أفندى » لم يستعمل العصا قط في شهر رمضان ، ولم يسمع الناس من النافذة خلاله صوت « سيف » الهدار المدوى . صحيح أن « يسرى أفندى » لم يكن يحترم العيد ، احترامه لأيام رمضان ،

ولم يكن يرى بأسا من أن يسلط عصاه على جسده ابنه في أيام الاعياد ، بل في صبيحة اليوم الاول من بعض هذه الاعياد .. ولعل فلسفته في ذلك ان الحرمان مفروض عليه في أيام رمضان فقط .. وان الاعياد ، تباح فيها الملذات والمتع ، ومتعته الاولى ، هي أن يجلد ابنه ، كلما ضاق بشيء في الدنيا ، أو عكر مزاجه معكر أو فسدت نقوده فعجز عن شراء ما يكفيه من الخمر الرخيص ..

ولم يكن « سيف » هو ابن « يسرى أفندى » الوحيد فقد كان له « سيف » أخ هو « ممتاز » ، وكان « ممتاز » هذا على النقيض من أخيه .. كان أكبر من « سيف » سنا ، وأضال منه جسما ، وأقصر قامة ، وأقل حظا من الحيوية ، فهو لا يكاد يحس له وجود في المنزل أو في الحارة أو في الحى .. لا يعرف الا المدرسة والكتاب .. لا يدع من يده أبدا دفاتر المدرسة ولا كتبها ، ولا يمل من حفظ دروسه عن ظهر قلب .. يحفظ ما يطلب منه أن يحفظ ، ويحفظ ما يطلب منه أن يفهمه . ولذلك لم يسبقه الى مرتبة الاولوية في فصله أحد ، وتكدست عنده مكافآت التفوق ، فمن أقلام رصاص ثمينة ، الى كتب مهداة اليه من النظار موقع عليها منهم . ولكن « ممتاز » هذا لم يكن في حياة أبيه شيئا مذكورا .. صحيح انه كان يذكره في مباهاة ومفاخرة في ديوان العمل اذا ما ذكر الابناء الفالحون الناجحون ، وكان يعطيه أحيانا ورقة ، أو يطلب اليه أن يكتب لاحد خطابا .. ولكنه لم يصحبه معه أبدا في مهمة ، ولم يدعه للصلاة معه ، أيام الجمعة من رمضان .. ولم تمتد له يده أبدا بأذى ، بل لم يفكر يوما في أن يمنحه نصيبا من الشتائم التي تنطلق منه اذا ما ثارت أعصابه ، انطلاق القذائف من مدفع رشاش .. وفي الاعياد كان يعطى « سيف » مثلما يعطى « ممتاز » ،

ولكن ما يكادان ينصرفان حتى يلعو «يسرى أفندى»
ابنه « سيف » على انفراد ، وينهال عليه بالسباب متهما
اياه بأنه حمار وبليد ولا يستحق أن يتنفس الهواء الذى
يعيش فيه ، ثم يضع يده فى جيبه ويعطيه ضعفى ما أعطى
أخاه ..



وفى ذات يوم أفاق أهل حارة « شاكر أغا » على
حقيقة هائلة لم تصدقها آذانهم وعقولهم ، تماما كما
يفيق الانسان الذى اعتزم عند نومه أن يستيقظ فى اليوم
التالى قبل شروق الشمس ، ثم تفتح عيناه فجأة على
نور الشمس وقد ملأ الدنيا ، فيقفز ليستدرك ما فاتته ،
وهو يعلم أن ذلك مستحيل ..

تلفت أهل الحارة حوالىهم ، ونظر كل منهم الى الآخر
وكانه يسأله :

— هل لاحظت مثلما لاحظت أنا .. ولم يجب واحد
منهم على تساؤل صاحبه ، وانصرفوا جميعا الى أعمالهم
كأن شيئا لم يحدث ، وتتابع مر الايام حتى لم يعد من
الممكن الفرار من هذه الحقيقة ، فان « يسرى أفندى »
انقطع عن ضرب ابنه ، وانقطع بالتالى هذا الصراخ الذى
كان يتدفق وينفجر من النافذة ، كما تنفجر القنبلة ثم
تتناثر شظاياها فى كل ناحية .. فما الذى حدث ؟ ..

وتحسب كل فرد فى الحارة موضع قلبه ألما وحسرة
حينما علموا أنه فى ذات يوم رفع « يسرى أفندى » يده
بالعصا ، ليشق بها ظهر « سيف » ، وبقيت معلقة فى
الهواء ، وقد جحظت عيناه ، وبدا كتمثال ، فقد أصيب
فى هذه اللحظة ذاتها بشلل نصفى ، حمل بعده الى
الفراش ، وقد عجز عن النطق ، ورفض «يسرى أفندى»
أول الامر أن يذعن لهذا القضاء ، فكان دائم البكاء ، وكان

يجاهد ليقول بلسانه المفلول ، وبيديه اللتين فقد بينهما التوازن ، انه لن يقبل أن يتحول الى طفل يحمل الى فراشه ويحمل من فراشه ، ولكنه أدرك أن ذلك كله عبث لا نفع منه ، فانقطع عنه ، كما انقطع عن محاولات صبيانية متشابهة كمحاولة الانتحار ، بالقاء نفسه من النافذة التي كان ابنه يتدلى منها ، مهددا بالقاء نفسه الى الشارع ..

لم يعد الناس يرون « يسرى أفندى » قاطعا الحبال والشارع الكبير المتصل من بدايتهما الى نهايتهما مترفعا عن الناس بعيدا عنهم ، ولم يعد قادرا على أن ينزع من نفسه شخصا آخر كل رمضان يحيى الناس بابتسامة تفيض طيبة ووداعة وخبا ، أصبح من المستحيل أن يضرب ابنه بعصاه وان يسمع الناس صراخه مرة على الأقل كل أسبوع ..

وآلف كل من في بيت « يسرى أفندى » هذه الحالة الجديدة ، شأن الناس في جميع أمورهم حتى « يسرى أفندى » ذاته ، استطاع أن يضع حياته الجديدة أسسا وبرامج تتفق مع ارتبساطه الوثيق بحجرتة عموما ، وبالمقعد الذي كان يجلس اليه خصوصا .. فقد اكتشف أن في الحارة اثنين من أرباب المعاشات لا يعرفان كيف يصرفان وقتهما ، أحدهما مطربش اشتغل في المحاكم حتى أصبح رئيس قلم فيها .. والثاني معمم ، اشتغل بوزارة الاوقاف ، وقضى حياته في درجة واحدة وبمرتبة يزيد قروشاً في مدى سنين طويلة ، بينما تزيد أسرة صاحب المرتبة في سرعة يدهل لها كل الناس ، إلا رب هذه الأسرة نفسها .. ولكن وسط هذا المجتمع الذي قبل الأمر الواقع واستطابه ، بقي شخص واحد لا يعلم به ، ولا يرضى عنه هو « سيف » .. فقد حزن لمصاب أبيه حزنا

لم يعبر عنه قط بالبكاء أو بالكلام ، وإنما عبرت عنه حياته كلها ، ووجوده كله . . فقد زهد اللعب مع الاولاد ، وزهد الشجار معهم ، ومال جسمه الى الهزال شيئا فشيئا . . ابتدا يقرأ . . قرأ أول ما قرأ الجريدة اليومية لانيه قراءة كانت تثير الوالد المشلول لكثرة ما فيها من خطأ ، ثم اتقن القراءة في الجريدة ، وانتقل منها الى قراءة كتب كانت متروكة ملقاة في أركان مختلفة في المنزل . . كتب مختلفة في النوادر ، وفي التاريخ ، وفي الطهو وشغل الابرة ، والفلك . . كتب بعضها ضاع أوله ، وبعضها ضاع آخره ، ولكنها كانت تؤنس المريض الذي يريد أن يسمع صوتا يخفف عنه ثقل الوحدة وآلامها ، وتسعد الابن الذي يريد أن يشارك أباه هذا السجن الذي لاتعرف له نهاية . .

وعلى مر الايام ، أصبح صديقا « يسرى أفندي » الملازمان ، مجرد نواة لدائرة وأسعة من الاصدقاء ، كانت تتردد على منزله . . منها الطبيب ، ومنها المحامي ، ومنها المزارع ، ومنها الموظف . . ولم يترك « سيف » مكانه أبدا في الحجرة التي تستقبل هذه الجماعة ، فقد اختار له ركنًا . . يستمع فيه بعد عودته من المدرسة الى كل كلمة تقال ، ثم يلتقطها ويحفظها عن ظهر قلب . .



وفي ضحى أحد الايام ، دوى في حارة « شاكر أغا » صوت رفع له الناس رءوسهم ، ليبحثوا عن مصدره ، وكل منهم يتمنى شيئا يضمه في نفسه ، ويعلم أن تحققه مستحيل . .

سمعوا صوتا رنانا عاليا ، ذكرهم بصوت « سيف » وهو يضرب ، غير أن هذا الصوت كان حادا مرهفا ، لم يصدر وحده ، بل يصدر مختلطا بأصوات أخرى

تشببه ثم تسكت جميعا الاصوات لتعود من جديد ..
اذن ليس هذا صوت « سيف » ، ف « سيف » لم يعد
ممكنا أن يجلد لان اليد التي كانت تهوى بالسوط عليه ،
قد جفت فيها الحياة ، و « سيف » نفسه خلق خلقا
جديدا فلم يعد هذا الصبي الذي كان في مثل ضخامة
الشباب ، وفتوته ، وقوته وحيويته ..
فماذا يكون هذا الصوت ؟

لم يطل تساؤل الناس ، فقد أقبلت عربية أشبه شيء
بصندوق واسع ، يجرها جواد هزيل ، وقد ملئت بمقاعد
الخيزران .. ثم صفت في صفين طويلين على جانبي
الحارة ، فعرف الناس من شكلها ووضعها هذا ، ومن
العربة التي حملتها أن « يسرى أفندى » ، قد بدأ رحلته
الاخيرة الى عالم جديد ..



وسرى النبا في الحارة ، سريان النار في الهشيم ،
تناقلته الالسن : السن الصغار والكبار ، ثم اتصل
بأنحاء بعيدة في الحى ، وقبل أن تكتمل العاشرة من اليوم
نفسه كانت جماعة كبيرة لم تشهد الحارة مثلها من قبل ،
قد توافدت لتودع ابن الحارة القديم الوداع الاخير ، وقد
أظلتها سحابة ثقيلة من حزن صادق لا تصنع فيه ولا
ادعاء .. وعند العاشرة تماما تدفق من النافذة صراخ
هائل ، ارتجت له بيوت الحارة التي توشك أن تنهار
وحدها بغير حاجة الى ما يهزها من جذورها ، كهذه
الصيحات الراحدة .. ورفعت جماعة المعزين المودعين ،
رأسها الى النافذة ، وكأنما تستدير لتحيا ماضيا
عزيزا ، تحياه هذه الصرخات التي كانت بمثابة رجوع
الصدى لصرخات شبيهة بها ، قضوا السنين يسمعونها
.. فرأوا بعض النسوة متشجحات في ثياب سوداء قاتمة

ثم ما لبث أن ظهر رأس ضخم يطل من فوق أكتاف النساء ثم يتدلى نصف جسم وكأنه موشك على السقوط الى الطريق .. ولكنه ارتد في الحال منتصب القامة ، تعلو وجهه غبرة قاتمة ، دون أن ينبس بحرف واحد .. رأى المعزون هذا كله فلم يملك أى منهم نفسه من الانخراط فى بكاء كانوا يهتزون له اهتزاز الاشجار أمام ريح عاصفة .. وتدفق له الدمع على اللحي الطويلة وعلى الوجنات الشابة معا .. ويهبط الجثمان الى الحارة ، يكاد يحتضنه « سيف » احتضاناً ، والناس تدفعه عنه ، وهو صامت وقور ، وتحت ابطه شيء لم يتبينوه ..

وبدأت الجنازة تسير ..

وكان « سيف » فى المقدمة ، ولم يكن يسير وحده .. فقد كانت فى يده اليمنى عصا أبيه ، التى كانت تحت ابطه ، وهو يهبط مع الجثمان درجات السلم .. ولما لمح الناس هذه العصا خنقتهم دموع ، دموع غزار

وأقسم الكثيرون فيما بعد أن « سيف » تحول فجأة وهو يسير خلف النعش الى « يسرى أفندى » نفسه ، بطول قامته ، وباحمرار شعره ، وبالبقع الصغيرة الحمراء المنتشرة فى وجهه ، وعلى شفثيه الابتسامة التى كانت تملأ صفحة هذا الوجه ، ثلاثين يوماً من كل عام .. هى أيام رمضان ..

وفى ظل هذا الوهم المؤنس المريح ، انقطع سسيل الدموع ، وسارت الجنازة وكأنها رحلة مع صديق لا يتكلم بلسانه ولكن تتكلم عنه صفحة وجه مشرق بابتسامة تفيض طيبة ووداعة وحبا ..

طَلَقَتْ أَدِبَ

و كَلَامِهَا



طلعت أدب ..
طلعت أدب ..
طلعت أدب ..
طلعت أدب ..
« طلعت أدب ..
« ونزلت أدب ..
« لقيت الدب ..
« يقزقز لب ..
« طردت الدب ..
« وأخذت اللب ..
« طلعت أدب .. ونزلت أدب .. ! »

وصلت هذه الالفاظ الساذجة الى أذن الصبي فؤاد،
ممزوجة بأصوات رجال يقهقهون في سرور خال من الهم ،
وينعق وأبور مياه ، لا يكف عن تعكير سكون الحقول
المجاورة بما يبعثه من صوت لا يستقيم على نهج واحد
.. فهو تارة أشبه الأشياء بحشرة ثور مذبوح ، وتارة
بنعيق طير أصيب فطار عن غصن الشجرة التي حط
عليها ، وثالثة باستغاثة رجل يتعقبه أعداء أشداء ..
وبالجملة كان صوت وأبور المياه في هذه الرقعة المنبسطة
الجميلة من حقول القطن ، في حر شهر أغسطس القائن
مجموعة من الاصوات التي لا ترتاح لها الاذن ولا تبتهج
لوقعها النفس ، ومع ذلك استطاعت رتابتها وانتظامها
وتتابعها ، أن تغطي على قبح كل صوت منها على حدة ،
وأن تخلق منها وحدة يأنس لها الرائحون والغادون على

الجسر الذى يقع وابور المياه فى بطنه ..

وكان وابور المياه ، مبنى ، أو حجرة فسيحة من الحجر الجيرى ، لها نافذتان تسد كل منهما بضلفتين من الخشب الاصفر الساذج ، وبقضبان متعارضة ومتقاطعة من الحديد ، ولهذه الحجرة الضيقة باب فى مثل قدمها ، لم يره أحد قط مغلقة لا فى الليل ولا فى النهار والناظر الى ضلفتى الباب ، يحسب انهما لو تحركتا ، لسقطتا من توهما الى الارض .. فهما هناك على مدخل المبنى مجرد رمز !

وعلى مدخل الباب المفتوح كلب ، لا تدرى بالضبط أهو بدوره حيوان تدب فيه الحياة ويستطيع أن ينبح ، ويتحرك ، ويعض ، ويقفز .. أم أنه رمز آخر على أن لـ « وابور المياه » حارسا يحميه ، كما أن له بابا يمكن قفله عند الضرورة القصوى ، والكلب - واسمه « سبع » - دائما نائم لا يقوى على فتح جفونه ، والناس تدخل الى الوابور وتخرج منه ، دون أن تخطئ مرة ، فتدوسه أو تطؤه .. كيف ؟ .. لا يدرى أحد ، حتى ولا عم « سعيد » ..

وعم « سعيد » هو العنصر الخفى المتحرك فى هذا الوابور القديم الذى لا يكف عن التئهد والتوسسل والاستغاثة والنعيب .. ومع ذلك ، فعم « سعيد » رجل تجاوز عمره .. تجاوز ماذا ؟ .. الخمسين أو الستين أو السبعين .. من يدرى ! .. انه شخصيا لا يعرف شيئا اسمه العمر ، فالزمن عنده ترف يتمتع به غيره من الناس .. عندهم ساعات ينظرون اليها ، ومواعيد يحرصون عليها ، ولهم من الحياة أسواط تلهب ظهورهم .. أما هو فأعلى من هذه الصغائر .. فالوابور و « سبع » وهو ، وحدة متكاملة تعيش بعضها مع بعض ،

فى تآلف عجب ، ومودة تزداد مع الايام قوة . . والناس ،
والزمن ، والدنيا ، تأتى اليه ، وتذهب عنه ، وهو غير
ملق باله لها . . لا استعلاء ولا استخفافا ، ولكن
استغراقا فى هذا العالم القائم على هذا الثالوث الثابت :
وابور المياه بزيتيه ، وشحمه ، وصراخه ، والكلب فى
سكونه ووقاره وولائه ، وهو . . كما هو منذ تاريخ
مجهول فى هذا الوابور لا يبرحه ، أو على الاقل هكذا
يتصور الناس ، ومنذ ذلك التاريخ المجهول ، لم يطرا
عليه تغير أو تطور . . فمنذ البداية كان أسود اللون ،
تلمع فوق جبهته حبات من العرق ، وكان قصير القامة ،
نحيل الجسم ، شاب رأسه فتلقى فيه السواد والبياض
كأنهما أقراص « طاولة النرد » يمثلان معا الليل والنهار ،
على أن شخصيته كلها اجتمعت فى شيئين : عينين
تبرقان كمصباحى سيارة فى ظلام دامس ، وفم سقطت
كل أسنانه ، اذا فتحه بدا لك فضاء واسع لا نهاية له ،
يروح فيه ويفدو لسان أحمر قان يحملك على التساؤل :
ما ضرورة هذا اللسان فى هذا المكان ؟ فان عم « سعيد »
لا يسمع يتكلم أبدا ، الا اذا حضر الى الوابور ، وقت
الاصيل كل عشرين يوما أو يزيد « البك » مفتش مصلحة
الاملاك الاميرية ، أو حضرة مأمور المصلحة ، فهما
وحدهما اللذان كانا يزوران عم « سعيد » فى وابور المياه ،
ومعهما المرءوسون والاصدقاء والاقارب ، وما يكاد يصل
أحدهما الى الوابور ، حتى يخرج عم « سعيد » الى عتبة
الباب ، وعيناه تلمعان لمعانا شديدا ، فيمد « سبع »
نفسه على الباب مدا طويلا ، ويتشاءب ، ويعود الى نومه ،
فهذه تحيته للضيوف . .

وينحدر المفتش أو المأمور من الجسر الى الوابور ، وهما
متهللان . . ويسألان عم « سعيد » عن الصحة ، ثم

يسألانه بعد ذلك : أصوته أجمل أم صوت منيرة المهدية؟
فيضحك عم « سعيد » ، ويقول في مرح شديد : أن
صوته أجمل بكثير .. فيطلبان منه أن يسمعهما أغنيته
العظيمة « طلعت أدب » ..

وفي الحال يبدأ في القفز مرددا مقاطع هذه الالفاظ
الساذجة بلهجة عربية في لكنة زنجية :

« طلعت أدب .. »

« نزلت أدب .. »

« لقيت الدب .. »

ولا يكاد يصل الى النهاية حتى يكون تصيب عرقا
فيضحك الحاضرون ، ويعودون صاعدين الى الجسر ،
الواحد في اثر الآخر وفي مؤخرتهم عم « سعيد » ، الذي
يقف على الجسر حتى يتواروا عن الانظار ، فيهبط الى
الوابور صامتا متحاشيا النظر الى « سبع » الذي يشيح
بنظره بدوره عن زميله ورفيق حياته ، وكأنه غاضب من
قلة عقل عم « سعيد » - الذي يجعل من نفسه مهرجا -
ليدخل السرور الى قلب المفتش أو المأمور ، أو الصبيبة
من أقاربهم ..

ولم يكن عم « سعيد » في حاجة الى تأنيب أو توبيخ
من « سبع » فان الكتابة التي تعلوه بمجرد اختفاء
الضيوف كانت تثقل عليه ، فيجلس مطرقا ، مطيلا النظر
الى فرن الوابور ، والسنة النار تتلوى فيه ، وتتراقص
وتثز ..

وقد تكررت زيارة الصبي « فؤاد » لوابور المياه مع
قريبه مأمور مصلحة الاملاك الاميرية .. وفي كل مرة ،
كان يضحك كما يضحك كل زملائه في تلك الزيارة لاغنية
عم « سعيد » .. ولكنه كان يتمنى طوال فترة الزيارة
أن ينصرف من المكان فلم يكن في الاغنية ما يطربه ، ولم

يكن النظر الى عم « سعيد » وهو يقفز ، وفمه مفتوح من غير أسنانه يريحه ، أما رائحة العرق الممتزج بزيت الوابور وشحمه التي كانت تتناثر في الجو وتملاً أنفه ، فكانت تقبض صدره ، ولكنه كان مضطراً أن يجامل ويساير قريبه ومن معه من الموظفين الذين كانوا يظهرون ابتهاجا بمنظر عم « سعيد » وفرحاً بما يفعل .. كأنهم لم يسمعوه ، ولم يروه من قبل .. وكأن ما يأتيه لون من السحر المذهل في هذه القرية التي خلت من كل وسيلة من وسائل الامتاع والتسرية ، ولكن « فؤاد » فوجيء ذات مساء بما لم يكن يتوقعه مما أضفى على عم « سعيد » لونا جديداً من الأهمية والاثارة ..

فقد كانت عادة حضرة المأمور أن يجلس في حديقة منزله تحت تعريشة تغطيها أوراق العنب ، وتزينها عناقيده ، كل مساء بعد الغروب فوراً .. ويلتف حوله بعض موظفي المصلحة ، وضييف أو ضيفان من القرى المجاورة .. قد يكون من بينهم عمدة بلد ، أو أحد كبار أعيانها ، ويتجاذب الحاضرون أطراف الحديث ، وفؤاد جالس في ركن لا يكاد يتابع كلامهم الا نادراً .. حتى كان مساء ، أقبل على الحديقة شاب هتف المأمور لمراه : « هانتذا عدت من الاجازة يا قدرى أفندى » وانحنى قدرى أفندى قليلاً وهو يحيى المأمور ، ثم جلس ففاحت رائحة عطر كان مصدرها بلا شك قدرى أفندى الذي عاد لتوه من القاهرة . وتأمله « فؤاد » فاذا هو على غير شاكلة موظفي المصلحة فثيابه أنيقة ، وهو حليق الشارب ، وفي يده « منشة » وتحت إبطه مجلة كاريكاتورية ملونة مما لا يقرؤه موظفو مصلحة الاملاك الاميرية . ولمح قدرى أفندى « فؤاد » فاقترب منه ، وأخذ يحدثه عن القاهرة باعتبار كليهما من أهلها ، فراق « لفؤاد » أن قدرى

أفندى من قراء سلسلة « جونسون » ، و«ملتون ثوب»
البوليسية التى كان يصدرها فى ذلك الحين حافظ نجيب .
وبعد قدوم قدرى أفندى من القاهرة ، ببضعة أيام ،
حدث الحدث الذى كان أكبر مفاجآت ذلك الضيف ..
ففى المساء ، وتحت نفس التعريشة ، كان فؤاد
جالسا فرأى امرأة ريفية تمرق من باب الحديقة الرئيسى
فى اتجاه باب المنزل .. ثم استدارت حول المنزل فى طريقة
من الحديقة نفسها ، فى طريقها الى حظيرة الدجاج ،
وموضع الفرن حيث يعد الطعام ، وتهايا جميع أمور
الدار .. مجرد امرأة ريفية ككل النساء فى تلك القرية
.. ولكن لأمر ما ، تعلقت بها العيون ، ولا سيما عيون
قدرى أفندى ، والصبى « فؤاد » يلتفت التفاتا قهريا
.. فنظر اليها ، وهى تقطع الحديقة من جانب الى جانب
فى خطوة مليئة بالنشاط ، تشى بحيوية صاحبها ..
واستطاع على الرغم من صغر سنه ، أن يحس أن لهذه
القروية السريعة قواما بارعا ، وأن يديها ، وهما تضمان
الطريحة السوداء فوق رأسها ، وتجمعان طرفا منها الى
ناحية فمها ، كما تفعل النسوة اذا ما مررن بالرجال ،
أو أحسن بوقع أنظارهم عليهن .. أحس بأن يديها
هاتين رشيقتان جميلتان ، وأن حركتهما خليقة بأن
تستوقف أنظار الرجال .. والحق أن الرجال جميعا
تابعوها بما يدل فى غير شك على أن لها فى نفوسهم مكانة
.. أما قدرى أفندى فقد حاول ما استطاع أن يتظاهر
بأنه لم يرها ، وتشاغل بمجلة فى يده .. ولكن «فؤاد»
أدرك بغريزة الاطفال التى لا تخطيء أن قدرى أفندى لم
يكن أقل الرجال اهتماما بهذه المرأة التى عبرت الحديقة
فى سرعة السهم الخاطيء .. وقبل أن تختفى فى الطريقة
الجانبية المؤدية الى خلف الدار ، قال أحد الرجال :

« مقبولة » زوجة عم « سعيد » ! .. ثم ابتسم ابتسامة
أحس « فؤاد » أنها كانت تقطر حسدا وسخرية من
أحكام القدر ، وقال آخر ، وهو يكاد يتنهد لولا الحياء :
— امرأة .. امرأة بحق ! ..

وقال أحد الاعيان وكان معهما :

— اتق الله .. عم « سعيد » رجل طيب ، وامراته
امرأة صالحة .. لم نسمع عنها سوءا ..
وغرق الجميع في صمت ، كأنما أحسوا أن الحديث في
امرأة عم « سعيد » ، طريق مسدود لا يؤدي الى شيء
محمود ..

أما « فؤاد » فقد كان بوده أن يسأل قريبه المأمور ،
كيف يعقل أن يكون عم « سعيد » الشيخ الذي لا أسنان
له ، والقزم الذي يتخذ الناس هزوا هو زوج هذه المرأة
الشابة التي تعلقت بها عيونهم ، وصمتوا لمرورها صمت
الاعجاب ، بل التذله .. ولكن الصبى أشفق من
السؤال ، منعه حياؤه ومنعه أن الأمر كان بالنسبة له
غامضا ومخوفا ..



وفي أصيل اليوم التالى ، جاء « قدرى أفندى » الى
منزل المأمور ، ليصحب « فؤاد » الى نزهة كعادتهما
منذ وفد « قدرى » من القاهرة ، فركب كل منهما
حمارا من حمير مصلحة الاملاك الاميرية العالية القوية
التي تكاد تبلغ لفرط قوتها مبلغ الحصان ، وانطلقا في
الحقول ، وقد تلطف الجو ، وهبت نسائم المساء ، بعد
أن مالت الشمس الى الغروب . وكان « قدرى » لا يكف
عن الحديث عن القاهرة ، ونشاطه فيها ، وعن أسماء
كثيرة من أهل القاهرة ، من رجال الرياضة والفن ، يدعى
« قدرى » أنهم أصدقاؤه ، وأنهم لا يقوون على البعد

منه ، وانهم يسعون سعيا متصلا لاعادته لديوان المصلحة بالقاهرة كما كان . وطاب لـ « فؤاد » سماع هذا الحديث الذى كان أحسن بديل عن الاحاديث التى لم يكن يسمع سواها قبل مجيء « قدرى أفندى » ، والتى لم تكن تدور على شىء سوى السماد ، والدودة ، والبذرة ، والثيران والحمير ، وأمراضها ، والشكوى من الطبيب البيطرى حيننا ومن كسل الكلاف - وهو المسئول عن ماشية المصلحة - حيننا آخر . ونسى « فؤاد » نفسه فى هذا الحديث الطلى الشيق ، فلم يفق الا على نباح كلب ، ونظر فاذا بكلب عم « سعيد » نفسه هو الذى ينبعهم . . لقد ترك مكانه على باب « الوابور » ، وبعث الى الحياة بعثا ، وانطلق من موضعه التقليدى الى بطن الجسر ، ثم الى الجسر نفسه . . لقد صعد ركضا وهو يلهث ، ولا يكف عن النباح . .

انها لمعجزة تماما كمعجزة بعث اهل الكهف وكتبهم . . ان الكلب النائم الجامد الذى لا يتحرك ، قد انطلق يعدو ويركض ويثبح . . سبحانك مغير كل حال ! . .

ولم يكن « فؤاد » ممن يخافون الكلاب كثيرا على غير عادة أمثاله من صبيان المدينة الذين لا يقع نظرهم على غير القطط ، ولكنه ككل صبي كان يخاف الكلب الذى يبدو منه اقل الشر . لذلك لم يلتفت اول الامر الى الكلب ، ولم يعبا بنباحه . . فقد كان مشغولا بعودة هذا الكلب الى الحياة ، ولكن « سبيع » راح يقفز قفزات بدا منها شر مستطير . . كان كالمجنون يكاد يعرض حمار « قدرى أفندى » ، بل « قدرى أفندى » نفسه ، وتظاهر « قدرى » اول الامر بعدم الاكتراث والهدوء ، لولا أن الامر زاد عن حده فاضطر أن يلوح بعصا من الخيزران كانت معه . وظهر عم « سعيد » على باب

الوابور ، فى قميصه وينطلونه اللذين لاتعرف لهما لونا .
فهما بين الاسود ، والبني ، والازرق ، على انهما لا يستران
من صدره وساقيه الا اقل القليل . . فهما فى حقيقة
الامر ، مزرع متناثرة ، لا يضمها بعضها لبعض سوى
خيوط واهنة . . وقف عم «سعيد» ينظر الى «قدرى»
و « فؤاد » ، ولا يتحرك . . كأنهما ضيفان غير مرغوب
فيهما ، مع أن « فؤاد » ، لم ير عم « سعيد » من قبل
الا مهللا ومرحبا . . فعجب للأمر ، ولكن عجبه لم يطل ،
فان « سعيد » ، بدأ يتحرك نحو ضيفيه وهما يهبطان
الجسر الى حيث يوجد مبنى الوابور . . تحرك أولا فى
بطء ، ثم بدأ يسرع فى خطاه ، ثم راح يعدو كعادته . .
وانفتح فمه عن ابتسامته التقليدية ، وبدأ هذا الفراغ
الذى يظهر به اللسان الاحمر كسحابة تجرى لتختفى عن
انظار الناس . . كان « فؤاد » لا يحب زيارة عم «سعيد»
ولا رؤية وجهه ، وكان يخاف من النظر الى عينيه ، مع
انهما أجمل ما فى هذا الوجه ، ولكنه اليوم كان أشد
انقباضا وأكثر ميلا للانصراف . . لولا أن زيارة ذلك
المساء لم تكن ككل زيارة سابقة . . فان زميله فى تلك
الزيارة هو « قدرى » ، وهو شاب وله أسلوبه الخاص
فى الحديث ، فمنذ هبط الى الوابور ، وهو يداعب عم
« سعيد » ، وعم «سعيد» لا يكف عن الضحك ، والكلب
من خلفه عصبي لا يستقر فى مكانه ، حتى نهره صاحبه
فعوى كأنما أصيب بحجر ثم اختفى . . واتجه «قدرى»
نحو احدى النافذتين ، ومد يده الى شئ طويل رفيع
لف فى ورق جريدة ، أزال عنه هذا الورق فظهرت بندقية
جيدة ونظر الى عم « سعيد » وقال :

— عندك ؟ . . وأشار بأصبعه اشارة فأسرع عم
« سعيد » الى جانب من الوابور ، وعاد ومعه صندوق

من الورق المقوى ملء بقذائف البندقية قائلا وهو يتהלل
وعيناه تحديقان في وجه « قدرى » تحديقا متصلا :
- عندى كثير ! ..

وأخذ « قدرى » اثنتين ، ووضعهما في مكانهما من
البندقية ، ثم أسندها الى صدره ، وخرج الى باب
الوابور ، وسدد قوهة البندقية الى حجر ، فهم « فؤاد »
انه الهدف الذى كان يتمرن « قدرى » على اصابته كلما
زار عم « سعيد » ووابوره ، وأخطأ الهدف في المرتين
ثم أخذ قذيفتين أخريين وسدد ، وأخطأ .. وضحك
ضحكة تفيض مرارة وضيقا ، ودفع البندقية الى عم
« سعيد » وهو يربت على ظهره بيده على صورة أحس
معه « فؤاد » انها كادت تكون لكزة أو لكمة ، ونظر
عم « سعيد » الى يد « قدرى » وهى ممدودة بالبندقية
لحظة ، وعيناه تلمعان لمعانا مخيفا .. وحشا البندقية
بالذخيرة ، ونظر الى الهدف باستخفاف .. وعاد الى
الخلف خطوات ، ليزداد بعدا عن الهدف ، وفي سهولة
ويسر ، وبساطة وسرعة ، أصاب الهدف مرتين ..
فضحك وقفز في الهواء ، وبحث بسرعة عن عود من
البوص .. دفع بعضه في الارض الطينية وابتعد عنه
بضع أقدام ، ثم سدد اليه البندقية ، فشق العود شقا ،
وفي هذه اللحظة ظهر الكلب ، فاقترب من عم « سعيد »
وتمسح فيه ، فوجه اليه عم « سعيد » الخطاب قائلا :
- لا تزم .. اننا لم نبلغ سن الهرم بعد .. سقطت
الاسنان ، وشاب الشعر ، ولكن .. فينا بقية يا عم
« سبع » ..

وأبتسم « قدرى » ابتسامة فضحت عصبيته ، ثم
اقترب من عم « سعيد » ، ووضع يده على كتفه ، وضمه
نحوه بشدة .. كأنما يريد أن يريه الفرق بين قوته هو

وضعف عم « سعيد » ، لولا أن الأخير ، قفز وهو يقلد نفسه ، حينما يفنى ، وراح يردد :
- طلعت أدب .. ونزلت أدب ...

وأحس « فؤاد » أنه يوشك أن يصرخ ضيقا بكل ما رأى ، وزاده ضيقا أن الكلب ، نبج على « قدرى » نبحتين قصيرتين انتهره على أثرهما عم « سعيد » فسكت محتجا وصعد الصبي ومعه صاحبه الشاب إلى رأس الجسر ، وامتطيا بهيمتيهما ، وعادا إلى القرية وهما صامتان لا يتكلمان ..



لم يلب « فؤاد » حينما استيقظ في فجر يوم حل بعد زيارته الأخيرة لعم « سعيد » ببضعة أيام ، ما إذا كان في يقظة أم في حلم ، كان يسمع صراخا ووقع أقدام تجرى يمينا ويسارا وصفافير ، ويسمع أسماء عم « سعيد » و « قدرى » و « مقبولة » .. ورأى نفسه في السرير جالسا ، وحوله ظلام خفيف يرى معه الأشياء غامضة ، ذات أثر عجيب .. ففي خارج الحجرة قاعة فسيحة مستطيلة ، يروح فيها الناس ويفقدون لا يتكلمون ، وكأنهم أشباح ، وصراخ يأتي من الخارج مختلطا ، كالعهد بالاصوات في الأحلام ..

ونزل « فؤاد » من السرير في حذر شديد ، وهو لا يكاد يقبل فكرة البقاء في السرير ولا فكرة الخروج منه .. ولسكنه اضطر إلى النزول اضطرارا ، فان الصراخ في خارج المنزل اشتد ، ووقع الاقدام في القاعة أصبح مسموعا ، فالامر علم وحقيقة وليس حلما أو وهما .. وخرج في القاعة ، فوجد زوجة قريبه المأمور تلطم وجهها بخفة ، وتقول :

- قتله .. قتله بالبندقية ! ..

وسأل :

— من القاتل ؟ .. ومن المقتول ؟ .. فلم يرد عليه أحد ..

وفي ناحية من الدار ، رأى امرأة تقول :

— « مقبولة » .. لعنها الله .. قتلت الشاب ، وسيشنقون عم « سعيد » بسببها ، ومن تحت رأسها ! ولم يكن في حاجة الى اطالة صبره ، فقد برح الخفاء ، وعلم أن « قدرى » قتل ، قتله عم « سعيد » في غبشة الليل ، فقد انتظره وهو يخرج من دار عم « سعيد » نفسه بعد أن قضى ساعات مع « مقبولة » زوجته ..

قذيفة واحدة استقرت في الصدر جاء على أثرها خفر ثم خفراء ، ثم اجتمعت القرية كلها ، وانهالت على عم « سعيد » ضربا ، وسيق الى بيت العمدة ، ثم جاء وكيل النيابة حيث اتخذ من مكتب مأمور مصلحة الاملاك مكانا للتحقيق ..

وقبع « فؤاد » في ركن ، يرى وقلبه يكاد يقف جزعا ودهشة .. وكان النوم يغلبه أحيانا ثم يستيقظ فيرى أمامه نساء ورجالا وموظفين في ملابس رسمية وعساكر وضباط ، دون أن يدري أكان ما يراه حلما أم أنه كابوس طويل لا يريد أن ينتهى .. ولكنه استيقظ تماما أو ظن أنه استيقظ حينما أحس بجلبة شديدة وبوقع أقدام ، ثم رأى أمامه عم « سعيد » هادئا هدوءا شديدا ، يقوده عسكريان طويلان ، وهو بينهما كطفل حطم زجاج نافذة جاره .. لم ينظر الى « فؤاد » ، و « فؤاد » لم يستطع أن يطيل النظر الى وجهه وأن يتأمله ..

وغاب في حجرة المأمور التي اتخذها وكيل النيابة مكانا لاجراء التحقيق ، وراح الصبي بعد ذلك في سبات عميق .. فقد هدا المكان ، وانقطعت الحركة ، وسكن

كل من فى الدار وما حولها ، وحتى الجنديان اللذان صحبا عم « سعيد » الى دار الأمور ، وجلسا خارج حجرة التحقيق فجلسا على مقعدين متجاورين وقتا ، وهما مستيقظان ثم استسلما للنوم .. فمال رأساهما على صدريهما ، ثم انطلق من صدر كل منهما شخير .. كأن كلا منهما يرد به على صاحبه ..

انفجر الضجيج مرة واحدة كقنبلة .. تدافعت الارجل ثانية ، وطرقت أرض الحجرة الاحذية العسكرية الثقيلة، وفتح « فؤاد » عينيه مأخوذا .. ورأى نفسه ، أمام المرأة التى لمحها وهى تمرق كالسهم من جانب من حديقة الدار الى جانب آخر .. هل كان ما رآه هو الحقيقة أم انها دهشة اليقظة المفاجئة ، فقد رأى فى هذه اللحظة أجمل وجه وقع عليه نظره ، رأى ابتسامة خفيفة ترف على الشفتين ، وخطوة ثابتة ، وقامة ممدودة ورأسا مرفوعا ..

وغابت المرأة فى حجرة وكيل النيابة لحظة ، ثم سمع صوت عم « سعيد » يقهقه ثم بدأ يردد :

— طلعت أدب .. نزلت أدب .. لقيت الدب .. طردت الدب .. ثم سكت فجأة !

وغرق المكان فى صمت عميق مرة أخرى ، قطعه فجأة انفجار جديد .. خرج على أثره عم « سعيد » مكبلا بالحديد ، مسوقا الى الباب الخارجى للحديقة ، وهو بين حارسيه يقفز ويردد :

— طلعت أدب .. ونزلت أدب ..

وخلا المكان من الناس ، فاستطاع « فؤاد » أن يرى فى مؤخرة جميع من كانوا فى الدار وتركوها .. « سبع » مطرقا ، يشم الأرض ثم يسير متمهلا ..

ومن بعيد، كان هواء الصباح ، يحمل الى اذن « فؤاد »
صوتا يردد :

— طلعت أدب .. ونزلت أدب ..
ثم خفق في المكان شيء كجناحي وطواط فانتبه
« فؤاد » ، فاذا المرأة التي رآها تعبر الحديقة من طرف
الى طرف ، تمرق مرة أخرى كالسهم ، وتختفي في مثل
لمح البصر ..
و « فؤاد » لا يدري اكان كل ما رآه حتما ام كان
حقيقة .. !



أنا القاتل



خرجت من دار « السينما » وكأني قذيفة منطلقة من
بندقية ..

فلقد كان بطل الرواية المبنى الاسباني « جوزيه
موجيكا » وكان موضوعها دينيا يدور حول راهب يبلغ
حدود الخطيئة ، ثم يرتد عنها بعناء شديد .. فملأني
صوته العريض العميق ، انفعالا ، أحسست معه انى أسير
بقدمين تكادان ترتفعان بى عن سطح الارض ..

ورحت أشق لنفسي طريقا وسط جموع المتفرجين
المنصرفين الى دورهم ، وكأني لا أراهم .. فقد نجح
انفعالى بالرواية فى وضعى فى غلاف من الانتشاء
والسعادة ، فصلنى عن الناس وعما يدور خارج نفسي ..
كنت أدفع الناس المتلاصقين المتزاحمين ، بلا وعى ،
فحركات يدي وخطوات قدمي ، كانت جميعا تلقائية
عفوية ، تصدر عني ، كما تصدر حركات النفس ، وضربات
القلب . ولكن لا بد ان تكون عيناى قد وقعتا على وجوه
كثيرة ، وأنا اخترق كل هذه الاجساد البشرية ، ومع ذلك لم
ينطبع منها على صفحة عقلى صورة وجه واحد .. حتى
اذا ما وصلت الى نهاية الطريقة المؤدية الى الطريق العام ،
وقع نظرى على وجه شاب .. ولست أدري ما الذى
كان فى هذا الوجه ، فقد ملأ عيني ، على الطريقة التى
يتبعها المخرجون السينمائيون حينما يأمرؤن عدسات
آلات التصوير بالاقتراب من وجه الممثل اقترابا ليملا
الوجه « الشاشة » فتبدو تقاطيعه ومعها خلجاته ،
وحركات شفتيه ، واضطراب جفونه ، واهتزازات أهدابه

رأيت الوجه كبيرا ، قريبا منى ، ناطقا بل صارخا .
أى وجه هذا ؟ ..

عيون صاحبه كبيرة واسعة سوداء ، ولكنها جامدة
لا تطرف ، ثابتة لا تتحرك .. كأنها عيون ميت ، لولا
انها كانت تفيض بأضواء خاطفة . ولقد سقط ضوءها
على ، وكأنها تبغى تنويمى أو تجميدى فى مكانى ، فقد
استمر صاحبها يصب الى نظرات طويلة لم أستطع أن
أتبين معناها ، فقد عجزت حتى عن مجرد التساؤل عما
إذا كانت نظرة فزع شديد استولى على الشاب حينما
رأنى ، أم نظرة استغاثة من رعب هائل يطارده ، أم أن
الشاب لم يكن مرتاعا ، ولا طالب غوث ، بل كان مخمورا
أسرف فى الشراب ، ووقف على هذه الصورة لا يبغى
شيئا .. جامدا لا يستطيع حراكا ، ولا يعى ما يدور
حوله . ولكن حركة عصبية عبرت وجه الشاب ، عبورا
خاطفا ، استطعت خلالها - وهى تظهر وتختفى كالبرق -
أن أتحذر من نظرات عينيه « المنومة » لأتأمل وجهه كله ،
فزاد الامر عندى غموضا .. فوجه الشاب كان متكاملا
مع نظرات عينيه ، اذ امتلأت كل قسمة من قسماته
بنفس التعبير الفامض الذى فاضت به عيناه ، والذى
حيرنى ، فلم أتبين مدلوله ولا كنهه ..

ويبدو أن وقفتى فى وجه التيار المتدافع من خلفى ،
تيار رواد السينما المتلهفين على العودة الى منازلهم -
بعد أن انتصف الليل - كانت عقبة سهل التخلص منها ،
فقد رأيت نفسى فى عرض الطريق بعيدا عن مدخل الدار
حيث وقف الشاب يحرق فى لا شيء .. فتنفست
الصعداء ورحت أمد فى خطواتى ، فى طريق جانبى مجاور
للسينما كان خاليا تقريبا من المارة ، وأردت أن أنظر الى
الخلف ، عساى أرى الشاب ، بعد أن بعدت عن مجال

نظراته .. ولكن لم أقو على ذلك بفعل حافز لاشعورى
كان لاشك حافز الخوف من أن يقع نظره على مرة أخرى،
فأستشير اهتمامه بى .. وبعد أن بعدت عن دارالسينما
أدركت انى أعدو تقريبا فى الطريق ، وانى أسير ناظرا
الى الامام لا أتلفت يمنة ولا يسرة وأن يدي جمدتا فى
جيوبى .. خجلت اذ تبينت هذا كله .. أخجلنى مقدار
الفزع الذى دهمنى لمجرد وقوع نظرات هذا الشاب
الفريب على .. أو على الاصح ، هذا الشاب الذى وهمت
انه غريب ، وقد يكون فى واقع الامر واحدا من النظارة
مثلى ومثل المئات الذين كانوا معى داخل الدار . وبدأت
أعضائى تلين قليلا ، فأحسست باسترخاء خفيف ، أتاح
لى أن التفت الى الخلف بشيء من عدم المبالاة ، وليتنى
لم افعل .. فقد رأيت فى آخر الطريق شبعا يدنو نحوى ،
وبدا لى انه الشاب الذى كنت قد تصورت انى نجوت
منه .. كان يسير بخطى واسعة ، فى اتجاهى .. اذن
لا بد انه تعقبنى ..

تعقبنى !.. لماذا ؟.. لا بد أن يكون قد دهانى الليلة
شئ ، اذ كيف أتصور أن أكون هدف هذا الشاب الذى
لا تربطنى به أدنى صلة ، والذى لم يقع نظره على الا
بضع ثوان ، وتذكرت انى لم أظفر فى الليلتين السابقتين
للصدفة المحضة بكفايتى من النوم ، وقررت أن أزيح
كابوس هذا الخوف عن نفسى بمواجهة مصدره الموهوم
.. فوقفت تماما ونظرت الى الخلف ، ولدهشتى رأيت
الشاب يقترب منى وكأنه يعرفنى من قبل، فيقر قرارى
فى التو .. فقد أدت وجهى بلا تفكير ولا تدبر ، الى
الناحية الاخرى من الطريق ، ورحت أمد خطواتى فيما
يقرب من الركض ..

كان الهدوء يشمل المدينة ، وكان الطريق كما قلت

خاليا .. فأصبح من الميسور أن أسمع طرقات قدمي الشاب السريعة وهو يدنو مني ، وكانت طرقات قدمي التي تفضح خوفي ، جوابا لها .. وزادت خطواتي اتساعا ، ولكن بلا جدوى .. فالخطوات التي كانت تلاحقني أعلنت سرعتها المتزايدة عن عزم صاحبها الثابت على اللحاق بي ، ولم يكن ثمة أسرع من خطواتي وخطوات مطاردي ، سوى ضربات قلبي الذي خيل الي انه سيشق صدري ..

ما أبشع الخوف ، وما أقساه من شعور مذل ! .. ان الموت نفسه أقل منه فظاعة ، وهو على كل حال في رأيي أليق بكرامة الانسان ..

قلت لنفسي شيئا من هذا القبيل وأنا ألهث ، ولو ثابتت هذه النفس الى شيء من الهدوء والتماسك ، لأدركت أن مبعث خوفي ، هو اني أجهل هذا الشاب ، وان كل الباعث له على اللحاق بي ، هو اني نظرت له ، نظرة بدت له انها نظرة من يعرفه .. ولكن لم يكن هناك أقل أمل في أن أثوب الى الهدوء ، واقتربت الخطوات مني اقترابا علمت معه أن القضاء قد حم .. ولم ألث حتى شعرت بيد تمتد الى ذراعي اليمنى ، فخيّل الي أن قلبي قد كف تماما عن دقاته ..

ولست أدري بالضبط ماذا حدث بعد ذلك ، فقد رحته فيما يشبه الدوار .. ولكن الذي أوكدته أن اليد التي أمسكت بذراعي من الخلف ، كانت يدا مترددة ، بل في الأرجح انها كانت يدا مرتعشة .. وبالأحساس الغريزي السريع أدركت أن مطاردي خائف مثلي .. بل لعله أكثر خوفا ، وقد ترجمت غريزتي في الحال هذا الشعور الى عبارة موجزة :

— انت أقوى منه ..

فملأني هذا الشعور في التو بطمأنينة غامرة ، ومع ذلك لم تكن كاملة فأتاحت لي أن أدير رأسي الى الخلف في ببطء وقد اقترن خوفي المتناقض ، بفضول متزايد .. من يكون هذا الشاب ؟ .. وماذا يريد مني ؟ .. أهو مجنون ؟ .. أم سكران ؟ .. أم قاتل ؟ .. وخيل الى ان لفتة رأسي ، كانت كدورة الارض حول محورها ، طويلة ، طويلة جدا ..

ووقعت نظراتي على نفس الوجه الذي رأيته أمام دار السينما .. ولكن جبينه كان في هذه اللحظة ، قد تفصد بالعرق ، وان الخوف الذي ملأ صفحة وجهه ، اقترن بشيء من الاعياء ، ولم يكن في التقاطيع شيء يستوقف ، فهي في الجملة مما يرتاح اليه النظر .. عيون سوداء لطيفة ، وبشرة بيضاء تشوبها حمرة ، تتناسب مع حمرة شفتيه الرقيقتين اللتين دل انطباقهما الشديد على عزم قوى ، وحساسية مفرطة ، ولما استدرت له وقفنا وجها لوجه ، وكأن كلا منا فريسة للآخر لا حول لها ولا قوة ، تنتظر في استسلام مصيرها . طالت نظرة كل منا لصاحبه ، وكانت - من حيث لا يدري كلانا - نظرة توصل واستعطاف . قالت نظرتي له :

- لا تفكر في ايدائي ، فأنا لا أعرفك ، ولا أضمر لك شرا ولا أقوى على ايداء بعبوضة ..

أما نظراته الى ، فقد عييت في كشف غامضها .. فحرت بين ان اسلمه على التو حافظة نقودي فيما لو كان لصنا ، وبين التهيؤ لالتقاء ضرباته ، فيما لو كان سكران او مجنونا ..

وبعد صمت بدا لي طويلا ثقيلا ، اضطربت شفثاه ، وصدر منهما صوت خافت متعثر ، أكد لي ، ان الشاب يعاني معاناة شديدة من خجل مستبد ساحق .. ففاض

قلبي عطفًا ، لذلك لم يكد الشاب يعاود الكلام ، ولم أكد أتبين انه يقول مساء الخير حتى رددت عليه في حماسة :

— مساء الخير !

ومد لي يدا رأيت في نور مصابيح الشارع الخافتة ، كم هي مضطربة فأمسكتها ، فاذا هي أشبه بجناحي عصفور بلله ماء مطر بارد ، غسلها العرق ، ينتفض فيها كل عرق ..

وعاود محاولته للكلام ، فتمتم ببعض الالفاظ التي استطعت بجهد أن أفهم منها انه يقول :

— هل تسمح لي بدقيقة من وقتك ؟ .. وبدأت أحس بأنني أشبه بشخص يفيق من كابوس ، وانني أرى الأشياء وأسمع الاصوات واضحة ولكنها تأتيني من بعيد ، وأجبتته وأنا اجد عناء كبيرا في تحريك شفتي : تتحدث الى ؟ فهز رأسه بالإيجاب ، وقد زادت شفاته الرقيقتان التصاقا ، فبدت على دهشة عميقة ، وقلت :

— الى أنا ؟!

فعاد يهز رأسه بالإيجاب ، وقد علت وجهه ابتسامة تفيض مرارة ، وظهر ارتبائه أكثر وضوحا ، ثم أشرق اطراقة الخجل .. فسأله :

— هل تعرفني ؟

ولاول مرة استطعت أن أسمع صوته اذ قال :

— أبدا .. عفا اني مخبول

ودار على عقبه ، وأراد أن ينطلق ، وهو يلوح بيده اليمنى ، تعبيرا عن خجله وحيرته ..

وتطور الموقف تطورا عجيبا ، فبعد أن كنت أفر منه ، فرار الفريسة من الصائد ، أخذت أستوقفه ، ثم قلت بقوة :

— الى أين ؟
فأدار رأسه الى ، وعلى وجهه تعبير قاس من الشعور
بالخزي وقال لى :

— لا تؤاخذنى .. لا تؤاخذنى .. مساء الخير ..
فأمسكته من ذراعه قائلاً :

— لا .. لا تذهب ، ماذا كنت تريد أن تقول لى ؟ ..
هل كنت تحسبنى شخصاً بعينه ، لا بأس عليك ..
فالتفت الى فى هدوء وحزن ، وقال وهو يضـفـط
بشفتة العليا على شفته السفلى

— لا شيء .. لا شيء .. الامر كله سخافة .. سخافة
وضحك ضحكة عصبية ، وهو مطرق فجمدت فى مكانى ،
لا أفهم مما يدور أمامى شيئاً ، ولعلى قلت لنفسى :

— ان الرجل مختل ، وانه شأن المخبولين المتأثرين
متردد ، ولذلك فقد عدل عن مسامرة النزوة التى خفزته
الى مطاردتى .. فاعتزمت أن أنتزع نفسى من هذا
الموقف المربك المحير غير المفهوم ، وان انطلق الى بيتى
حامداً لله أن نجوت من هذه التجربة بلا خسارة تذكر .
ولكن التعبير غير الارادى الذى طفا فوق وجهى جرح
كبرياء الشاب ، فاستدار نحوى وقال بصوت ضعيف
ولكنه مسموع ، وبألفاظ ثابتة غير قلقة :

— أوكد لك انى لست مجنوناً !
فقلت على الفور وكأنى أنفى عن نفسى تهمة اعلم انى
مرتكبها فعلاً :

— أنا لم أقل شيئاً كهذا

فعادت الابتسامة الشاحبة تكسو وجه الشاب
وكأنها طبقة خفيفة جداً من لون فاتر ، وقال فى شيء من
الثقة بالنفس :

— بل قلت .. وجهك قاله ، اننا نتحدث بوجوهنا ،

أكثر مما نتحدث بالسنتنا .. ما علينا .. ألا يضايقتك
أن أتحدث اليك قليلا .. في مكان ما ، مكان قريب ..
من هنا .. أي مكان ، فكل الأماكن الآن خالية تقريبا ،
ولا تخف مني ، فلست - أؤكد للمرة الثالثة - مجنوننا ،
ولا أنا أريد منك شيئا .. لن أطلب نقودا ، ولن أكلفك
الامشقة الاستماع الى في هذه الساعة ، وقد تكون بحاجة
الى العودة الى البيت ، والنوم .. فما أسعدنا حينما
ننام ، وحينما نكون في بيوتنا بعيدا عن الناس ، لو لم تكن
نحمل في نفوسنا جراثيم القلق .. انك ستخدمني
ياسيدى خدمة عظيمة .. عظيمة جدا

وانصت لهذا الصوت الرقيق ، وهو الذي كان مع
رقته ينطلق في حماسة مضبوطة كأن الشاب يتلو على
لوحة محفوظا . لقد اهتزت من الاعماق ، وأحسست اني
أمام انسان رقيق ، وضعيف معا ، فيرق له قلبي ، ووددت
- لولا تحفظي - ان أشد على يده ، أو أربت على كتفه ،
آية المشاركة والمواساة ، ولكن على الرغم من شدة
انفعالي ، فقد قلت له في تحفظ شديد وفي تعال بارد :
- لكن هل تعرفني ، هل رأيته من قبل ؟

وصدت هذه اللهجة الشاب ، فكاد يستدير ، وأنا
أعجب لنفسي كيف يكون ردى بمثل هذه البرودة ، وأنا
أشتعل انفعالا في الداخل ، ولكنه قال في صوت نم عن
يأسه :

- لا .. لا .. أنا لا أعرفك من قبل .. ولم أرك ،
وأيتك فقط أمام السينما ، تلاقيت عيوننا ..

ثم سكت لحظة استأنف بعدها الكلام في مشقة :
- وحينما تلاقيت عيوننا خيل الى أن نظرتك كانت نظرة
عطف .. انك فهمت انني بحاجة الى انسان .. صداقته
أو على الأقل صحبته .. أنا لا أطيق الوحدة التي أعيش

فيها .. اننى على حافة ..

وسكت فجأة وقد تغيرت سحنته ، وترقرقت في عينه
دموع حاول أن يمنعها من الانهيار بضغط شفته السفلى
بشفته العليا ، فاهتز لذلك خداه ، وعاودنى الخوف
ولكنى قاومت نفسى وقلت له :

— هل تعرف مكانا هنا ؟

فلم يرد على ، بل سار في التوامى ، تطرق قدماه
الأرض طرقا مسموعا ومنتظما وتبعته في صمت كالمنوم
حتى لحقت به ، وأخذ وقع حذائى يرن في سكون الليل
الهادىء ، ويرد على ايقاع حذائه فكنا أعجب مخلوقين ..
فلقد مشى الواحد منا الى جانب صاحبه صامتا ، لا يتكلم
.. وكان كل منا يجهل رفيقه في الطريق ، وكنت لا أدري
أى حديث سيفضى به الى ، كما كنت لا أدري الى أين
نحن ذاهبان .. وانعطف في نهاية الشارع الساكن الى
حارة صغيرة أكثر هدوءا ، وأقل حظا من النور ، ثم
وقف وأخذ يتلفت ، فوقفت أنتظر قراره ، ثم انطلق الى
آخر العطفة وأنا أتبعه ، ثم دلف منها الى عطفة أخرى
وأخذ يعجل فيها نظره حتى وقع على باب حانة صغيرة
فدخل اليها مترددا وأنا خلفه .. ثم أخذ يبحث عن
ركن فيها ، واختار أخيرا موصعا الى جوار الباب ، على
يمين الداخل اليها ، فجلس وجلسبت معه على مقعدين
قديمين يتأرجح مقعدي منهما ، لا لقدم المقعد فقط ،
بل لعدم استواء الأرض أيضا .. ونظرت الى يمينى ،
فألقيت على مقعد مجاور ، شيخا ، شاب رأسه ، وطال
شعر ذقنه ، جلس وقد مد ساقيه أمامه وتدلّى عنقه
على صدره ، وراح فيما يشبه النوم ، تاركا فوق منضدة
خشبية عتيقة لا تعرف لها لونا ، كوبا فيه مشروب قاتم
اللون ، وفي ثوان اطمأنت الى المكان ، فاستطعت أن أتبين

— فوق ما تبينت — ان مصباحا واحدا يضيئه وهو مصباح ضعيف ، لا يبدر الظلام بقدر ما يرسم على الجدران أشباحا .. وكان في صدر الحانة ، منصة عالية من الخشب ، وقف وراءها شاب استند بذراعيه عليها ، ونظر الى لا شيء .. فلما دخلنا الى الحانة لم يتحرك ، بل لم يلتفت الينا وبالتالي لم يسألنا ماذا نطلب ، وامتدت يدي في هذه اللحظة لآخرج علبة سجائري وكنت قد ذهلت عنها طوال هذه الفترة الحرجة ، مع أن يدي شأن جميع المدخنين تمتد اليها بلا تفكير ، عند أدنى انفعال أو تعب . وأشعلت عود ثقاب ، بعد أن التقطت من صندوق سجائري ، سيجارة .. فأضاف الضوء الضعيف المتراقص المنبعث من العود ، الى جو الحانة ، لونا زائدا رهبة . ولكن الثقاب انطفأ ، والسيجارة بدأت تشتعل .. وبعد لحظة مددت علبة السجائر للشاب ، فhez رأسه علامة الرفض وهو غير ملتفت الى . وتحرك في مكانه قليلا وتهايا للكلام ، وبدأه بعبارة خيل الى انه أعدها خلال الفترة التي قطعناها صامتين في طريقنا الى الحانة ، قال :

— لست ممن يحسنون الحديث .. ولكن القصة ، أو الرواية أو المأساة .. كما تحب ان تسميها والتي سأرويها لك الآن قصصتها على نفسي مرارا ، حينما أعوزني المستمع الذي يمكن أن أرويها له .. قصصتها على المستمع الخيالي الذي خلقتسه ، قصصتها عليه مفصلة ومجملة ، حذفت منها ، وأضفت اليها ، وعلقت على أحداثها وحللتها مرارا .. كل مرة بطريقة ، وبأسلوب وكنت خلال ذلك كله ، أسخر من العالم الذي نعيش فيه ومن الحياة كلها ، فلقد أحسست ان هذا الوجود عدم لا معنى له .. ولم أكن من قبل أتفلسف ، بل لعل لم أكن أفكر — فأنا — ولنبدأ القصة — شخص عادي

لم أثر اهتمام احد حتى ولا أبوى .. جئت بعد بنين
وبنات ، وجاء بعدى ولد وبنت .. فلم أكن أكبر الاولاد ،
ولا أصغرهم ، فلم أظفر بتدليل الاوائل ، ولا باعزاز
الاولاخر .. وفى المدرسة لم أكن قط فى المقدمة ، لم
أندرج الى المؤخرة ، لم أرسب حتى يكون لنجاحى بعد
الرسوب فرحة خاصة ، ولما أتممت تعليمى هأنى أبى ،
وفرحت أمى ، ورننت فى البيت زغاريد ، ولكن كان ذلك
كله اقل مما يحدث فى بيتنا لمناسبات اقل أهمية ، ولكن
لم التفت وقتذاك لشيء من ذلك ، فلم اشعر له بضيق
وجرت حياتى على هذا النوال نفسه ، حتى بعد أن
لحقت بأحدى الشركات الكبيرة ، على الرغم من ان الحظ
وأتانى بما لم يمنحه لزملائى الذين كانوا أبرز منى بين
الزملاء ، وأكثر توفيقا ، فقد حصلت على مرتب أكبر من
مرتب اكثرهم نجاحا فى الحكومة ، ورأيتنى محل عناية
المدير وأعوانه ، ولم أفكر أيضا فى سر هذا النجاح ،
واستمتعت بحياة رخية سهلة ولكنها كانت ... ماذا
اقول ؟ .. كانت ملساء ، خلت من الزوايا ، والبروز
والتضاريس . فلم أكن فى الشركة مثلا شخصا مرموقا ،
ولا صاحب نشاط خاص ، ولم يكن لى أصدقاء ، ولا
أعداء ، ولا منافسون .. فلم أعرف المفاسد ، ولا
المازق ، ولا آلام الطموح ، ولا لذة الانتصار بعد الممارك
وتردد قلبلا ونظر الى من تحت أهدابه الطويلة كما
نفعل حينما نضطر الى الافضاء بشيء نخجل منه ، وقال :
- وصلايتى .. صلاتى بالنساء كانت منذ مطلع
الشباب ، بنفس السطحية ، فمن عرفتهن من الفتيات ،
فتيات الجيران ، أو غيرهن ممن تسوقهن الصدفة ، كن
يطفون دائما على سطح حياتى .. لم يصلن الى الاعماق
ثم ابتسم ابتسامة فاترة وعاد يقول :

- لا لعيب فيهن .. بل لان حياتى لم يكن لها اعماق
وكنت لا اتوقع لحياتى تغييرا .. بل لعلى لم اكن اتوقع
شيئا ، ما دمت لا اتغير ، وما دامت صلاتى بالناس جميعا
لا تخرج عن قالبها المألوف .. ولكن آخر ما يتوقعه
الانسان هو الذى يقع غالبا .. حدث فى حياتى انفجار
مفاجيء ..

واشتد فضولى فأشعلت سيجارا ، وعلى ضوء الثقب
الخافت المتراقص ، رأيت قادمًا جديدًا الى الحانة .. كان
مهرجا ممن يرقصون ويطلبون امام «البيانولا» مع صبي
وفتاة ، احيانا ، ومع زميل احيانا اخرى .. كان على
وجهه المساحيق المعتادة وعلى رأسه قبعة .. ودخل
مطأطئ الرأس ، يجر رجليه جرا ، ونظر اليه عامل البار
بنفس الاهمال الذى نظر به الينا .. ولكن المهرج ارتقى
على المقعد المجاور للباب من ناحية اليسار ، وهتف :
- واحد « زفت »

ثم ألقى قبعته على الأرض وتركها لحظة ثم التقطها
ورماها على المنضدة المجاورة له ، ونظر الى عامل البار ،
بعينين جعلتهما المساحيق وسائل للاضحك ، لا أدوات
للتفاهم ، ولا وسائل للنظر ، ثم صرخ :

- قلنا واحد زفت .. الزفت خلص ؟ !
ولم يتحرك عامل الحانة من مكانه ، ولكنه قال :
- ألم تطفح عند مانولى ؟
وزار المهرج :

- مانولى ملعون أبوه .. وأبوك معه .. واحد «زفت»
يعنى « زفت » .. خلاص

وافترت شفقا العامل عن ابتسامة كأنما هى بصقة
سالت على شفتيه عفوا وبلا قصد ، وهو يمد يده الى
رف صفت فوقه قنانة الخمر ، وسكب من أحداها سائلا

قامم اللون في كوب صغير ، على طاولة ملصقة ، وهو يقول ، وكأنه يتجشأ :

— جيبك فارغ كالعادة

وصرخ المهرج :

— عقلك هو الفارغ ، جيب السبع ..

وضرب على جانبه الايمن بحركة دلت على انه شرب حتى فقد توازنه ، وفي هذه اللحظة بعينها تحرك الشيخ الجالس على مدخل الحانة الايسر كأنما هو أفعى تمدد طولها ، ونظر حواليه نظرة من أفاق من نوم عميق ، ثم هز رأسه وأخذ يدندن في صوت كئيب ، ثم تدلى عنقه على صدره من جديد ، وسكت

شتتت هذه المناظر ذهني ، وقللت من شدة انتباهي الذي بلغ غاية التركيز عندما شرع الشاب في سرد قصته فقد انقبض صدري لمراى هذه الاشباح ، ولسماع هذه الاصوات ، واستولى على شعور بالاشمئزاز والدهشة . اما محدثي فقد نظر الى كل هذا بلاأهتمام ، واستأنف حديثه :

— ليتنى أستطيع أن أشرب مثلهم

ثم هز رأسه وقال :

— ما علينا ..

ثم زم شفتيه كالعادة وانطلق ، وكأنه قرر أن يفرغ من قصته في جولة واحدة بلا توقف ، كمن يتجرع كأساً مرة ، دفعة واحدة :

— كنت أعيش عيشة هادئة ومرتبة ، بعيداً عن أهلى . وكان من ضمن برنامجى أن أرتاد مرة كل شهر مكاناً من الأماكن الفاخرة التى لا يرتادها الا عليّة القوم وأثريائهم . كنت أحب أن أستنشق هواء البذخ . وأن أرى أغنى الناس فى افخر ثيابهم ، وفى احسن حالاتهم . وفى الاغلب كنت أذهب الى هذه الاماكن وحيداً ، وان لم يخل الامر

من أن أدعو صديقا أحيانا نادرة . وفي إحدى الأمسيات دخلت - على عادتي - مطعما فاخرا ، تعزف في جانب منه فرقة موسيقى ، تنثر من حولها رواد المطعم ، في حلقات يتهامسون ، وتتعالى ضحكاتهم ناعمة وخشنة من النساء والرجال ، فتضفي على المكان بهجة انيقة مترفعة . . وفيما أنا آخذ مكاني عند إحدى الموائد، وشعور الراحة وخلو البال يغمرني تماما ، رأيت يدا تلوح لي من بعيد . ونظرت فرأيت شابا يبدو عليه الشراء ، ككل رواد المكان والى جواره شابة ، آية في الاناقة . وترددت في النظر إليهما ، لأنى رجحت أن التحية لغيري ، فأنا ممن يدخلون هذه الأماكن ويخرجون منها ، وكأن روادها أشخاص رواية سينمائية تظهر على الشاشة فقط ، دون أن يكون ممكنا الاتصال بهم أو التحدث إليهم . ولكن الشاب كرر تلويحه بيده في اتجاهي حتى لم يعد ثمة مفر من التدقيق في النظر إليه ، ولكنه أغنانى عن هذا كله ، لأنى سمعته يهتف باسمي وهو يحاول ما استطاع أن يكون نداؤه غير ملفت للنظر أو مزعج للسادات والسيدات الذين كانوا كمن يسبحون في بحر من النور ، ثم اتجه نحوى وأمسك يدي بين يديه وهو يقول :

- ما هذا ؟ أتحاول الفرار ؟ تعال أعرفك بزوجتي . .

لقد تزوجت

والحق أنني دهشت من هذا كله ، فصاحبي هذا كان من زملاء الدراسة ، وكان واحدا من القلة التي تذهب الى الكلية بسيارات خاصة . . وكعادتي لم أكن أختلط به ، شأني مع غيره من الزملاء ، أغنيائهم وفقرائهم ولكنه - بعد أن تخرج كلانا من الكلية - تردد على في الشركة التي عملت بها ، لشئون عمله ، مما دعا الى تقابلنا بين الحين والحين ، مقابلات لم تكن طويلة ولا داعية

لانشاء صداقة ، ولكن هذه المقابلات مع الزمن، لتكررها وانتظامها ، جعلتنا على شيء من المودة والالفة ..

قدمنى الى زوجته ، فلم يستوقفنى فى مظهرها سوى اناقته .. وعلى الرغم من انها اناقة دلت على ذوق مصقول ، لكنها لم تنجح فى أن تخفى عنى انها - أى الزوجة - دون زوجها فى المرتبة الاجتماعية والشراء . وبعد عبارات التعارف جلسنا نتناول عشاءنا ، على صوت الموسيقى الهادئة الجميلة ، وتبادل الاحاديث حول شئون تافهة لم يكن فى وسع أحدها أن يتجاوزها ، فقد كنا - ثلاثتنا - من الزيد الذى يطفو على سطح المجتمع ، ومن هنا لم يكن ليشغل أذهاننا من أمور المجتمع ، الا ما يطفو كذلك .. ولكن استوقفنى - بعد حين - ان نظرى لم يكن يتجه الى زوجة صاحبي مرة ، حتى لاحظ انها كانت تطيل الى النظر خلسة ، وان عيوننا لم تتلاق أبدا ، لاني لم أكن انظر اليها - فى أية مرة - حتى تسارع بتغيير الوجهة التى تنظر اليها .. على ان ذلك لم يقتضىنى اطالة التفكير فيه ، اذ عللته لنفسى ، بأن السيدات يسرن عادة ان يتأملن فى اصدقاء ازواجهن ، ليعرفن أسلوبهم ، وطريقة كلامهم ، وأذواقهم ، ليكون كل ذلك مادة للتعليق فيما بعد ، على الرغم من أن الحديث سار سهلا ، ودار حول الزواج ، والمقارنة بينه وبين العزوبة ، وعن أى الجنسين أكثر احتمالا لمتاعبه ، وعن مزايا الزواج المبكر ، ومزايا الزواج المتأخر . وعلى الرغم من أننى انطلقت على سجيتى فى المشاركة ، فى كل هذه الاحاديث .. الا أن شعورا خفيا ، ساورنى بأن السيدة لم تكن مريحة - فى أعماق نفسها - بتناولى العشاء معها . ومرة أخرى عللت ذلك بأنها كانت تود أن يخلو لها زوجها ، وأن تستأثر بصحبته ، خصوصا وأنا ممن

لا يحسنون الحديث . وقد أكون أيضا ، ممن لا يحسنون الاستماع .. غير ان هذه المشاعر الخفية ، توجت بشيء كان أكثر لفتا لنظري ، فقد سألتني صاحبي ، في صدر الحديث عن حياة العزوبة التي أحيها .. عن الشقة التي أسكن فيها ، وعن العمارة التي تقع فيها الشقة ، وعلقنا طويلا على سكني العمارات ، وسخافة الحياة بها ، ومتاعب المصاعد ، ومشكلات البوابين ، والجيران . وكانت زوجته خلال هذا الحديث ، تبدي اهتماما بمعرفة عنوان العمارة بالضبط ، ورقم الشقة ، وان اخذت هذا كله ، تحت ستار من التعليق على حسن اختياري لسكني ، في الحى الذى اخترته . وانتهت سهرتنا ، ونحن نضحك أو نتضحك - على الاصح - مما كنا نتبادل من فكاهات على حياة الاعزب السعيد ، الذى سيدهمه الزواج ، ان أجلا أو عاجلا ..

وعندما وصل محادثتي الى هذا الموضع من القصة زم شفتيه ، وأدار طويلا عينيه فى جوانب الحانة .. ويبدو أن جارنا الشيخ، قد أحس بوقع نظرات الشاب الحائرة التى وقعت عليه عفوا ، فتحرك أولا ، ثم اتجه ناحيتنا فى خطى متثاقلة ، ثم وقف يتأمل فى وجهينا ، على طريقة السكرانى ، فبدأ لى أن أعطيه سيجارة ، فمد فى الحال يدا مرتعشة ، وأخذها ، ثم بصق على الارض ، ومسح شفتيه بظهر يده ثم قال مغمغا :
- ولا يهمك ..

وضحك وقال بصوت أعلى قليلا :

- ملاعين .. أولاد ملاعين .. ولا يهمك !

وهذا صاحبي رأسه ، واستأنف حديثه تاركا الشيخ أمامنا ، وكأنه لأشياء ، وقال :

- بعد يوم أو يومين ، وأنا فى شقتى مستلقيا على

أريكة ، وفي يدي مجلة ، وكل ما حولي يؤكد أن العالم
كعهدي به لا يزال هادئا ، وانه سيستمر على هدوئه هذا
الى الابد ، دق جرس الباب ، فذهبت متثاقلا لافتحه ،
ولم أكن أدري انى سأفتحه على جهنم .. فتحت الباب ،
فاذا هى أمامى ..

فسألته والفضول بلغ منى أقصى الغاية :
— من هى ؟

ولم يجب محدثى على ، فقد غاب عن المكان ، وقد
امتقع وجهه امتقاعا شديدا ، وأخرج لسانه من بين
شفتيه ، ولعقهما به ، وكان المهرج فى هذه الاثناء قد بدأ
يدندن ، فثقل على كل ذلك ، وشعرت اننى أود أن أصرخ
فى محدثى :

— انه قصتك ودعتى اذهب

ولكن جموده ، وبروده ، وعدم اكترائه ألجمت لسانى
فجلست أنظر اليه ، ولما طال سكوته ، أخرجت سيجارة
وأشعلتها ، وفيما أشعلها رأيت الشيخ قد اتجه نحو
المهرج ، وسيجارته تهتز بين شفتيه ، فحدثتنى نفسى ،
أن أهرب ، وأن أترك هؤلاء جميعا بعضهم مع بعض فهم
من عالم واحد .. لولا أن الشاب ، وضع يده على ، وهو
ينظر بعيدا عنى ، وكأنه يود أن يزيح عن عينيه منظرا
لا يطيق رؤيته ، ثم أخذ يفرس أصابعه فى شعره الاسود
الفزير بعصبية بادية ، مستأنفا حديثه ، بنغمة جديدة
دبت الى صوته :

— كانت هى .. كانت زوجة صاحبى ، أشهد الله انها
كانت مجنونة .. نعم مجنونة .. حسبك أن تتصور أنها
جاءت تطالبنى بخطاباتها الغرامية التى أرسلتها الى ..
أى مجنونة .. أجبتها اول الامر فى هدوء : انى لا اذكر
انى رأيتها من قبل .. ولكنها أخذت تلح على ذاكرتى

الحاحا شديدا حتى تذكرت أنه كان لى جيران وكانت
لهم ابنة ، وأنا كنت معها على صلة صبيانية كأكثر
الشبابان فى سن شبابهم الاولى . عبت أطفال
لا أكثر . . ولا أقل . . ولا يبعد أن تكون قد أرسلت الى
خطابا أو خطابات . . أوراق مضحكة . . ولم يكن معقولا
أن احتفظ ، وأنا الصبى ، بخطاباتها هذه عشرين عاما أو
تزيد . . وكنت أتوقع ، أن تطمئن وتنصرف فى هدوء
شأن سيدة تزوجت وتمتعت فى حياتها بالسعادة ،
فحرصت على حماية سعادتها ، فلما اطمأنت الى ذلك ،
قنعت بهذه الطمأنينة . ولكنى رأيت نفسى امام مخلوقة
لم اعرف لها نظيرا . . فقد اخذت تتوسل اولا ، ثم تبكى ،
ثم ارتفع تعبير انفعالها الى صراخ . . اخذت تتهمنى
بأنى تعقبها ، وأن مقابلتى لها مع زوجها لم تكن صدفة
محضة ، وانى معتزم الاحتفاظ بخطاباتها لتهديدها ، اما
لابتزاز مال منها باعتبارها زوجة رجل غنى ، واما للظفر
بها شخصا . . مؤامرة كاملة ، ذات مقدمات وغايات لم
تخطر لى على بال . . وقد كان الامر يهون ، لو انى رأيت
امراة تبكى وتصرخ ، ولكنى فى الواقع كنت امام انسان
معذب ، قلق ، خائف ، يتوقع أن يصيبه شر مؤكد . .
وقد كان ذلك شيئا مفاجئا لى ، فلم يكن فى حياتى ما
يؤهلنى لمواجهة هذا الموقف ، أو التصرف فيه . ولو كنت
مجربا ، لوعدتها كذبا بأى شىء لا تدبر الموقف على مهل . .
لفعلت شيئا ما أى شىء . . !

ووقف الشاب ، واتجه نحو الباب ، وقد امتلأت
عيناه بدموع غزيرة اخذت تنهمر على خديه ، فوقفت
بحركة لا ارادية ، وأمسكت به ، وأنا اتفرض وسألته :
- الى أين أنت ذاهب ؟

فهز رأسه وقد غص بدموعه ، وقال فى مثل صوت

طفل خنقه البكاء :

- لو لم تكن أمى قد ماتت ، لذهبت اليها ، وارتميت
بين ذراعيها .. انى لم اذنب حتى أعذب هكذا !
ونظر اليها المهرج والشيخ ، فوقفا صامتين مأخوذتين
بما يريان .. ومن كان احق منا بان يثير الدهشة
وعدت الى الشاب اسأله :

- اتريد أن نخرج من هنا ؟

فقال ، وقد عاد يهز رأسه علامة الحيرة والندم معا :
- الى أين ؟

وعاد الشاب الى المقعد ، فجلس فى بطء ، وهو مشغول
عنى ، وكأنه يحدث نفسه ، بما نطق به بعد قليل :
- لو رأيتها أنت فى صراخها الهستيرى ! .. لقد بكت
ومزقت شعرها وقالت ان سعادتها ستنتهار .. لم تسمع
لكلامى ، ولا لايمانى المغلظة .. وخرجت محطمة
متداعية وهى تقول :

- انها تلعنى لضميرى يومين أو ثلاثة ..

وكنت أود أن اتخلص منها بأى ثمن . فلما قالت ذلك
وخرجت تنفست الصعداء ، وخرجت بعدها بقليل
جدا وكأنى عصفور اطلق من القفص ، وقد كنت اظن اننى
سأبقى زمنا متأثرا بما رأيت وسمعت ، ولكن سطحيته
الاصيلة فى ، استطاعت أن تتغلب على هذا التأثير المؤقت ،
ففى اليوم التالى نسيت عنها تقريبا كل شيء . وفى اليوم
الذى تلاه ، لم أعد اصدق انها ستعود الى .. حتى جاء
اليوم الرابع ووجدتها على عتبة الباب .. عندما فتحت
بنفسى ، لم اصدق عينى ، فلما دخلت والقت بنفسها
على أول مقعد بالردهة ، وشعرها مضطرب ، وعيناها
ككأسين من الدم ، وشفتاها ترتعشان ، وهما تنطقان
بالالفاظ ، ويداهما مضطربتان لا تكادان تقويان على حمل

حقيبتها ، خيل الى أن قبضة قوية قد أمسكت بخناقى
بشدة ، وفجأة احسست أننى سأغيب عن صوابى ، فلما
سمعتها تقول :

— هل احضرت خطاباتى ؟ ..

جمدت فى مكانى ، لانى احسست اننى منها ، كالقاضى
الذى سينطق حكم الاعدام . تعلقت عيناها بشفتى ،
ولكن لم يكن ثمة مفر من أن اقول لها الجواب الذى
لا بديل له عندى .. قلت لها اننى لم ابحت عنها لسبب
بسيط هو انه لا وجود لها كما أخبرتها لأول وهلة ..
ولم تناقشنى هذه التهمة ، بل قامت فى صمت ،
وفتحت الباب دون أن تلتفت الى ، وفيما تتخطى هذه
العتبة ، قالت فى صوت خافت ، مع نظرة تفيض احتقارا
لى :

— لقد كنت احسبك اكثر شرفا !

واحسست للكلمة بمثل وقع خنجر فى الصدر ، او
بمثل ركلة قدم فى الظهر ، وخيل الى ان كل دمي قد
اجتمع فى رأسى ، وكاد ينبثق فى عينى .. ولكن اقبح
ما وقع لى فى هذه اللحظة اننى شعرت بكراهية شديدة
لهذه المخلوقة التى لا تمت الى بأدنى صلة ، فزالت الرحمة
من قلبى ، وما كان يذيينى اشفاقا عليها ، مشاركة
لها ، من مظاهر حزنها واضطراب هيئتها وانهمار
دموعها وتقلص شفتيها ، ملأ نفسى بالتقزز
والاشمئزاز . لم اكن اعهد فى نفسى هذه الانانية
الجائحة ولكن من منا يعلم حقيقة نفسه .. لقد أصبحت
فى مثل لمح البصر ، انسانا آخر قاسى القلب ، يود أن
ينتقم . ولحسن حظى ، أن السيدة لم تفعل شيئا ، ولم
تضف لما قالته حرفا واحدا ، فقد وقفت ، وكأنها تجمع
أعضاءها عضوا عضوا ، ثم نظرت الى ، وهى تأخذ

تحقيبتها من المقعد المجاور لمقعدھا ، ثم سارت في بطة
وتثاقل .. اننى لا ازال اراها ، ان عينيها الحمراءوين
اللتين غطتهما الدموع لا تزالان تنظران الى حتى الآن ..
اننى اراها فى كل مكان .. انها الآن أمامى .. انها تسير
فى اتجاه الباب كشيخ متهدم .. ها هى ذى تقفل الباب
انها تختفى .. لتعود من جديد .. انها أمامى ، انظر ..
انظر .. وأمسك الشاب بذراعى ، وهو يضغط عليها
بعنف شديد كدت أصرخ منه ، ثم أمسك بمقدم سترتى
وراح يهزنى هذا وهو يقول :

— أمجنونة هى ؟ أعتقد انها مجنونة ؟ قل ذلك ..
قل ذلك ..

وخرجت من بين شفتى كلمة « نعم » بفعل ضغطه
المادى على ، كما تخرج بذرة الفاكهة بفعل ضغط أصابع
شديدة فوق قشرتها . وحانت منى التفاتة الى المهرج
والسكران فاذا بهما جامدان ، وقد اعتمد احدهما على كتف
الآخر ، ووقفا يتأملان فى حالة استغراق تام ، وعدت
بحركة عصبية أقول :

— نعم ! بلا شك ..

واخلى الشاب سبيلى ، كمن يلفظ متاعا لا نفع منه ،
وهو يقول ، وكأننى أسمع صوت أضراسه ، وهى تطحن
كلامه طحنا :

— هذا أسهل الحلول .. مجنونة .. ومجانين ..
ولكن هذه المجنونة دفعت بى أنا الى الجنون .. هأنذا كما
ترى ، أهذى ، وأجرى وراء رجل لا أعرفه ، وأتحدث
فى حانة .. وليس فى وسعنى إلا أن أفعل ذلك ، فبعد
أيام ، رأيت صورة فى جريدة .. صورة شابة ، شغقت
نفسها .. كانت هى ، هى بعينها ، تدلى لسانها من بين
شفتيها .. ولكن خيل الى أنا ، انها قبل أن يتدلى

لسانها هكذا ، جمعت شفيتها لتبصق على .. على وجهي
وانا أستحق ، ثم صرخ الشاب :

— نعم ، انا أستحق ..

وقد اذهلت الصرخة السكرانين ، كما افاق على صوتها
عامل الحانة ، فاقرب منا وهو يقول :

— ماذا جرى ؟

وانطلق الشاب يعدو الى خارج الحانة ، فانفجر الشيخ
مقهقهقا وهو يودعنا بصراخ مدو :

— ملعون أبوهم كلهم .. ولا يهملك !

ولحقت بالشاب ، واستطعت أن أستوقفه وسألته :

— الى أين أنت ذاهب ؟

فأجابني بنغمة تفيض احتقارا :

— وهل أنا أعرف ؟ ..

ولست أدري ما الذي وضع على لساني السؤال
التالي :

— ولكن انت مضطرب هكذا .. انت لم تفعل شيئا
فصرخ في وجهي :

— كيف لم افعل شيئا .. انا القاتل .. لقد قتلتها
ياسيدي .. صحيح انني لم اذبحها بسكين ، ولم ألقي
بها من نافذة ، ولم أصوب اليها مسدسا .. ولكن هذه
أهون وسائل القتل .. لقد ارتكبت جريمة القتل التي
نرتكبها جميعا دون أن نحس .. لقد أهملتها .. كنت
أريد أن أتخلص منها بأسرع وقت
فأجبتة على الفور :

— وماذا كنت تريد أن تفعل ؟ ..

فأجابني وكأنما يجيب على نفسه :

— شيء من المشاركة .. لقد كانت تنوء تحت عبء
خوف .. الخوف من خطر موهوم .. كانت في حاجة

الى جو من المودة ، يعيدها الى صوابها ، كان يمكن أن
تبحث عن هذه المودة عند زوجها وتجدها في هذه المناسبة
.. فقد كانت تخافه ، أو تخاف أن يطلع على ما تصورته
ماضيا يجب أن يبقى مجهولا .. ولكن أى مودة عندي
أعطيها لها أو لغيرها .. لقد كنت أعيش في هدوء ..
في فتور .. غارقا في دنيا من عدم المبالاة .. والبعد
عن كل المتاعب والمضايقات والمشكلات .. تمنيت أن
تخرج حالا من حياتي .. وقد خرجت
فوضعت ذراعى في ذراعه ، وقلت له :

— لا تنصرف .. فاني أود أن أتكلم معك ، لقد تكلمت
أنت ما فيه الكفاية

فلمعت عينا الشاب بسرور عظيم وقال :

— حقا أنت لا تريد التخلص مني ؟

فقلت بحماسة لا أدرى من أين مصدرها :

— بالعكس ..

فالتفت الى الشاب بكل جسمه ، وكأنه لا يصدق
ما سمع :

— عجيبة !

قلت له :

— ما هو العجيب ؟

قال :

— أنت لا تريد أن تطردني من حياتك كما فعلت أنا
معه ..

قلت وأنا كالمثورط :

— لا .. لا .. لن أطرده .. سنمشي قليلا

وأفلتت مني كلمة « قليلا » بلا تدبر .. فابتسم
صاحبي ابتسامة باهتة ، وهز رأسه هزة أسف شديد
وقال :

ـ نتمشى قليلا ، ويذهب كل منا لحال سبيله ، انت خائف ان اتهمك بمثل ما اتهمت به نفسى .. اذهب ياسيدى ، اذهب الى بيتك .. وانسنى ..
ثم نظر الى ساعته نظرة خاطفة لا اظن انه عرف معها كم الساعة وقال :

ـ اوه .. لقد تأخرنا كثيرا .. لقد أخبرتك ، ولكن لا بأس أن تصادف فى حياتك مرة مجنونا .. فالمجانين وان كانوا يخيفون ألا أنهم يسلون ..

والتقت عيناه بعينى ، فهالنى ان عينيه اتسعتا اتساعا مخيفا ، فاهتزت بشدة ، وشعرت برغبة ملحة فى الفرار وفى هذه اللحظة ، اقترب منا السكرانان ، ثم اتجه نحوى الشيخ منهما ، وهو يتقيا .. فكاد يصيبنى من قيئه شىء ، فأسرعت بالابتعاد بينما وقف الشاب يتأمله دون أن يتحرك .. ودار الشيخ حول نفسه ، ورجلاه لا تكادان تقويان على خمله ، ثم شبك ذراعه فى ذراع الشاب ، كما كنت أفعل من لحظة مضت .. ثم دفع الشيخ ، فسارا معا ، وهما يترنحان بفعل حركة الشيخ المتسارعة ، والشيخ يصرخ بأعلى صوته المخمور :

ـ ملعون أبوهم كلهم .. كلاب أولاد كلاب .. ولا يهمك ..

وأخذا يتعدان عنى قليلا قليلا ، وقبل أن يبلغا نهاية الطريق ، ويختفيا عن نظرى سمعت الشاب ، وقد أدار رأسه الى الخلف وهو يصرخ :

ـ ملعون أبوهم كلهم .. ولا يهمك !

ولم أتم ليلتها ولا ليالى بعدها ..

وفى الايام التالية لم أستطع أن اتصفح جريدة واحدة فقد كان قلبى يحدثنى اننى سأجد فى أحداها ، صورة شاب ، تدلى من حبل ، وقد برز لسانه .. !

قصة السريال



صفت طويلا لاستوقف عامل مقهى « نادى المحبة »
.. ولعل العامل كان موزع الخاطر بين رواد وجلساء
المقهى الكثيرين ، الذين وزعوا على مناضد ، صفت
فوق افريز الطريق العريض فى امنية ذلك اليوم ، الذى
كان قائظا .. وانتهى كعادة ليالى القاهرة ، بنسيم
عليل ..

وعادت التصفيق .. وفى كل مرة ، كان يخيل الى
ان العامل « مدبولى » التفت الى ، وفى كل مرة اتبين ان
ما ظننته كان بعيدا عن الواقع ، وقد راح هذا العامل
النشيط ، يتنقل بين الزبائن فى سرعة ، ويردد طلباتهم
فى صوت ممطوط بنغم ، ترى له اثرا فى مشيته التى كان
يتخلع فيها ويتمايل ويتلوى ، يساعده على ذلك قوام
لدن ، وقامة طويلة .. ويزيده ميلا اليه ، وجه صبور ،
يكاد يكون وجه فتاة ..

وفى المرة الاخيرة ، سمعت لتصفيقى صدى ..
تصفىقا آخر ، ولكنه لم يلبث حتى أصبح حادا عنيفا
.. فدرت بنظرى الى مصدر الصوت ، ثم ارتسمت على
شفتى فى الحال ابتسامة عريضة ، فقد وقع نظرى على
شاب جلس الى الطاولة المجاورة ، وقد استوقفنى منه
على الفور ربطة عنق سوداء او كانت سوداء ، واصبحت
مع الزمن رمادية ، مع بقع صفراء ، واخرى زرقاء ، كما
تمزقت اطرافها ..

وكانت هذه الربطة من الطراز الضخم الذى يفضله
الفنانون فى اوربا ، ومن يقلدهم من محبى التقليد فى مصر

« بابيون » متهدل اجتمع سواده المخطط ، مع زرقة
سترة زرقاء من ذوات الازرار النحاسية الصفراء التي
يلبسها الرياضيون ويسمونها على ما أظن « بليزر » ،
ومع الاثنين ، بدا رأس جارى ، وقد توج بشعر أسود
فاحم ثائر ، كان لامعا بطبيعته وناعما ، وقد تاهت عيناي
في هذه السمات الصارخة ، فلم تستطعا أن تتبيننا وجه
جارى وقسماته وتقاطيعه .. ولكن الذى لاشك فيه ،
أن أبهى ما فيه ، كانت عيناه الصغيرتان السوداوان
اللتان يخطف بريقهما الابصار .. عينان ضاحكتان
كضحك الاطفال ، الممزوج بخبثهم ..

وكنت أود أن أدير وجهى سريعا عن جارى لولا انه
بادرنى بقوله :

— غير موجودين !

وأشار الى والى نفسه بأصبعه اشارة سريعة جدا ،
ثم انفجر ضاحكا .. ومأنت على شفתי ابتسامة
العريضة ، كأنى حرت فيها ، هل أنهىها ، أم أبقياها ، أم
أتحول بها من الابتسام الى الضحك ، ولكن المفاجأة
أذهلتنى ، بيد أن جارى كرر عبارته :

— غير موجودين .. ثم أضاف :

— لا أنا .. ولا أنت ..

وقبل أن أعلق على هذا الكلام بشيء ، وثب من مكانه
الى جوارى ، وقد تأبط حملا من أوراق ظهر جليا أنها
مجموعة من جرائد يومية ، فى الغالب كانت قديمة ،
وقد حشيت بمجلات ، وحشيت المجلات بكتاب أوكتاين
.. ولما اقترب منى ، رأيت انه يرتدى بنطلونا رماديا
كان شديد الضيق مما جعل وثبته عملا رياضيا خارقا
وقد كان « البنطلون » أقصر من أن يصل الى آخر

الساق .. فظهر جورب ، صعب على في الحقيقة تبين
لونه ..

وجلس الشاب على المقعد ، وقد وضع حمل الجرائد
على الطاولة ، ثم انطلق يصفق ويقهقه ويدور بعينه في
كل اتجاه ، ثم توقف فجأة وقال :

— محسوبك مشتاق السخاوى !

وقد كنت غارقا في الدهشة ، فلم أفتح فمى بكلمة
واحدة ، ولكنه استأنف قهقهته وقال :

— مشتاق .. نعم مشتاق .. أية غرابة في هذا ؟ ..

مشتاق .. ميم .. شين .. تاء .. ألف .. قاف ..

وانفجر ضاحكا ، وصفق يديه ، ثم برجليه .. نعم
برجليه فقد مد ساقيه أمامه ، وراح يهزهما هزا متصلا ،
وقبل ان افيق من صدمة هذه المفاجأة التي لم تكن في
الحسبان ، التفت الى ، وقال :

— سريالى !

ثم أقبل نحوى بكل جسمه — عبر الطاولة — وقد
استدبر كفيه عليها ، وقال وكأنه يصحح لى كلاما قلته ،
أو استنتج هو اننى أوشكت أن أقوله :

— لا .. لا .. لست رساما ، ولا نحاتا .. ولا

واحدا من أهل الفنون التي يسمونها الآن تشكيلية ..
وعلى فكرة .. هل تعجبك هذه الاسماء ، تشكيلية
وتعبيرية ؟ ..

واسستولت على صاحبي نوبة جديدة من
الضحك والتصفيق بقدميه ، دون يديه ، ثم توقف فجأة
وقال :

— أنا مجرد آدمى .. انسان .. وليس هذا بالشئ
القليل .. ومع ذلك فأنا سريالى !

وشعرت بأنه لابد لي من ان اقول شيئاً ، واوشكت
أن أقول مثلاً : « تشرفنا » ولكن « مشيتاق » وضع
أصبعه على شفتيه ، وحركه مرتين أو ثلاثاً ، إشارة
منه لي بعدم الكلام ، وتدفق في حديثه المثير للفضول
وقال :

— ماذا ترى هنا ؟

وفرحت بالسؤال ، ليكون جوابي عليه ، كلما أرد
به على هذا السيل المنهمر ، قلت :

— أرى أناساً .. رجالاً ..

فدفعني في صدرى برفق وسرعة بأصبعه التي كان
قد وضعها على شفتيه من قبل ، وقال :

— انت ترى ذلك .. لانك لست سرياليا .. كن
سرياليا .. لترى الحقيقة ..

واستدار بسرعة شديدة ، وأخذ يتنقل بعينه في
الجالسين ، ثم أشار الى شيخ ملتج ، استدارت لحيته
السوداء حول وجهه وتدلّت مسبحة طويلة من أصابعه
وأغمض عينيه تقريبا .. بينما راحت شفاه تتحركان
في نشاط ترددان شيئاً ما ، وقال :

— ماذا ترى ؟ ..

قلت :

— شيخ ملتج ..

فاتجه بأصبعه الى مذبولي عامل المقهى وكان قد
اقترب منا ، وعلى يديه صينية نحاسية ، وهو يتمايل
وينثنى ويتغنى :

— ومن ذا يكون هذا ؟

فقلت :

— مذبولي ..

المشروب الجديد مقدما ، ومددت يدي بسرعة الى أحد الكوبين ورفعت عنه غطاءه المصنوع من معدن أبيض ، ولما هممت بالشرب سألتني « مشتاق » :

— هل تعرف ماذا تكون أنت ؟ ..

قلت وقد توقفت عن الشرب :

— أبدا ..

قال في صوت خال من المجاملة :

— أنت .. صفر

ومد يده هو الى كوبه ، ، واخذ يرشف منه رشقات متواليات في صوت مسموع وتلذذ باد ، ورجله اليمنى التي وضعها فوق اليسرى تهتز هزات رتيبة هادئة ، معبرة عن مدى سعادته في هذه اللحظة ، وتذوقه للمشروب الذي اقترحه ..

وخيل الى أن الكوب سيسقط من يدي ، وشعرت ان الدم هرب من وجهي ، وان قلبي توالت ضرباته .. فقد كانت الاهانة بالغة ، وزاد من قسوتها انني شعرت بأن اقتحام هذا المجنون لي ، دل على استهانته التامة بأمرى ، وعدم احترامه لي .. أعدت الكوب الى موضعه ، وفقدت الرغبة حتى في النظر اليه ، ولكن جاري الذي سقط على كما يسقط البلاء ، لم يبد عليه أي احتفال بالآلم الذي سببه لي ، وعاد يسألني دون ان يدير وجهه ناحيتي :

— هل تعرف ماذا أنت الآن ؟

ولما لم أجب قال :

— اهتزاز ! ..

ثم التفت الى ببطء وقال :

— هذا أحسن .. لقد كنت صفرا .. لانك لم تكن

تريد شيئاً .. مجرد ذرة في الهواء .. أما الآن فأنت تهتز ، ولكنك لا تدري ماذا تفعل .. لقد تمنيت أن تصفعنى ، فكرت فى أن تبصق فى وجهى .. لقد تصورت فى مثل لمح البرق أنك قمت فركلتنى برجلك حتى ألقيتنى على وجهى ، ثم دست على عنقى بحذائك ، ولكن أين الإرادة والشجاعة والتصميم ؟ .. أنت خائف ، ولذلك فأنت تهتز .. لا تحزن .. هذا أول الطريق !

ومد يده الى كوب « الخرسوس » وقدمه الى فى هدوء تام ، وكأنه لم يوجه الى أية اهانة ، وكأنه لم يقل لى منذ لحظة كلاما أقرب الى الهديان منه الى كلام العقلاء ، ومددت يدي الى الكوب ، وكأنى منوم ، وبعد تردد ، رفعت الكوب الى فمى ، وشربت هذا الشراب الذى لم أسمع عنه من قبل ، فاستطبت به ، وأعجبني طعمه ، وأشاعت برودته فى ارتياحا تسفل الى نفسى كأنما أشرب خمرا ..

وبعد قليل سل عاد الشاب الى الكلام فى نبرة أكثر انتظاما ، وادعى الى الثقة به وبعقله ، فقال :

— الناس ينظرون الى الأشياء والى الأشخاص بعيونهم .. العيون لا تكفى ، هذا هو المصاب الأكبر ، يسمعون الاصوات بأذانهم ، الاذان لا تنفع ، هذا هو بلاء الانسانية .. يتحسسون الاجسام ، ويقيسون الاحجام بأيديهم .. الايدى تكذب .. صدقنى انها تكذب .. منذ كم سنة يستعمل الناس عيونهم وآذانهم وأيديهم ليعرفوا العالم الذى يعيشون فيه ..

وأطال النظر الى وجهى بعيونه الصغيرة اللامعة ، فسرت فى بدنى رعشة .. ولما لم أجبه بسرعة ، امتدت يده الى ربطة عنقه فعبثت بها ، ثم الى شعره الشائر

فوق رأسه يتخلله بأصابعه العصبية ، وأجاب هو على
نفس السؤال :

— آلاف السنين .. منذ جاءنا أبونا آدم وأمنا حواء
الى هذا العالم غير المفهوم .. لذلك أصبحت العيون
والآذان والايدي كالسلاح المثلوم .. كالسلاح البسارد
الذى لا يقطع .. لاسبيل الى معرفة الناس الا بالنظر
الى باطنهم .. من الباطن ، الى الباطن .. تماما مثل
من الباب الى الباب !

وقهقه قهقهة طويلة أحسست انها تنضح بحزن
شديد ، ثم مد يده الى حزمة جرائده ، فوضعها تحت
ابطه ، ثم سار الى الناحية الاخرى من الطريق ، الى
الافريز المقابل ، وأنا مأخوذ ، أنظر اليه ، كأنما أنا فى حلم
ثقيل .. وقد استطعت أن أتأمله فى سيره ، وهو يكاد
يقفز ، و « بنطلونه » الضيق ، يكشف عن عنق قدميه ،
ويظهر مدى نحافته وضآلة جسمه ، وغرابة تكوينه ..
وقبل ان يصل الى الرصيف المقابل اتجه الى وهو يلوح
بيده صارخا :

— لا تدفع لمذبولى شيئا .. بيننا حساب مستمر ..
حساب مفتوح .. ولا تنس أن مذبولى هو مو ..
وكرر اللفظة القبيحة التى كررها وأطلقها عليه والتى
لم يحفل بها مذبولى ، وكأنه لم يسمعها ..

لم أستطع أن أجلس طويلا فى « نادى المحبة » بعد
أن تركنى مشتاق السخاوى ، فقد شعرت بانقباض
وخوف وبحيرة واضطراب ، فقامت أجز قدمي ، كأنما
ضربت ألف سوط فوق ظهري ورأسى .. ولم أستطع
أن أنام نوما هادئا تلك الليلة ، على الرغم من انى كنت
لا أشكو فى العادة أرقا ، أو اضطرابا فى النوم ..

على اننى ما كدت أفرغ من عملى - فى اليوم السابق -
حتسى انطلقت الى البيت ، وليس فى رأسى الا
خاطر واحد ، هو خاطر الاجتماع من جديد بمشتاق
السخاوى فى المساء ، او على الاقل ترقب مجيئه ..
وقبل موعدى المألوف ، كنت فى مقهى « نادى المحبة »
ولم أكد أجلس ، حتى صفقت لمذبولى الذى لى ندائى
سريعا ، فطلبت فى الحال : « واحد خرسوس » فصاح
وهو واقف أمامى :

- خرسوس الباشوات ! ..

ولما أحضر الكوب الطويل المثلج ، لم التفت اليه ، ولم
تمتد يدى نحوه .. فقد كانت عيناي حائرتين لا تستقران
تتنقل من اليمين الى اليسار ، ومن الامام الى الخلف ،
بحثا عن « مشتاق » وقد وقفت مرارا نصف وقفة ،
وقفت مرارا أخرى وقفة كاملة ، كلما توهمت أن
« مشتاق » قدم من أحد الازقة والحوارى العديدة التى
تنتهى عند الشارع الذى يقع على ناصية « نادى المحبة »
وطال انتظارى ، حتى غلبنى اليأس ، واستبد بى الملل
.. فلما مر بى بائع الصحف ، ينادى على جريدة مسائية
اشتريت منه نسخة ، وانا الذى لم يقرأ صحف المساء
قط ، والذى لا يقرأ صحف الصباح الا نادرا .. وقلبت
الصحيفة ظهرا لقلب مؤملا أن يستوقف نظرى فيها
عنوان أو موضوع أو قصة أو نباء ، فلم تزدنى قراءتها
الا مللا ، وفيما ألقى بها فى الارض ، اذا بيد تلتقطها
بسرعة ، وتنفجر بعد ذلك ضحكة من ضحكات السيد
مشتاق السخاوى ، والتفت الى مصدر الضحكة ،
فاذا هو بعينه ، وقد انحنى ليرفع الجريدة عن الارض ، ثم
يطويها بعناية بالغة ، ويضمها الى حزمة الاوراق التى
كان يتأبطها .. ثم جلس الى جوارى ، وقد أحس بأننى

افتقدته ، فبدأ عليه ارتياح ، لم يحاول إخفائه .. وبدأ يتحدث ، كأنما يتم كلام الأمس ، وكأنه لم يفصلنا ليل طويل ، ونهار كامل :

— ليست السريالية بالشئ الهين .. هانتذا لم تنم جيدا .. تحت عيونك هالات زرقاء .. وأنت لا تدري ماذا أكون .. مجنون أم نصاب أم عاقل .. أعقل من سواي .. هذه هي السريالية .. ! لم تعد تكتفى بالنظر الى وأجهات البيوت .. كان في مصر ، ناحية طولون ، مصنع للذخيرة والأسلحة .. ولما تغيرنا تحول الى مستشفى لمعالجة العاهرات .. نفس البناء بنفس الواجهة ! وانفجر يضحك ، ويمد ساقيه للامام ، ويصفق بقدميه .. وأنا أتجرع صوت قهقهته بكل آذاني ، وأكاد أود أن أطبع صورته في مخيلتي لفرط دهشتي وسروري معا .. ولم أعد الى بيتي الا في ساعة متأخرة من الليل .. فقد قضيت أكثر الليل مع مشتاق ، أسمع ، وأأمل ، وأسلم نفسي للدهشة ، وللسرور أيضا ..

وتوالت الأمسيات التي نعمت فيها بصحبة مشتاق ، وزدت به تعلقا .. وظهرت آثار صحبتي اياه على ، فقد كنت أدخل مكتبي فلا أكاد أرى على تحية زملائي في العمل ولا أتحدث معهم الا عند الضرورة ، وكانت لهم مؤامرات صغيرة يشاغبون بها زملاءهم ورؤساءهم ، وحلقات يعقدونها في مكتب العمل ، كلما ملوا الكتابة والنظر في الملفات يروون خلالها فكاهات صارخة ، واعتراقات هائلة يضحجون لها بالضحك ، لا يكفون عنها حتى تصدر لهم أوامر بالتزام الادب .. فبدأت أرى في كل هذا ما يستحق الاهتمام والمشاركة ، وجربت أن أتحدث ، وأن أروي ما سمعت من الفكاهات المتبولة بالبهارات الحريفة .. وكانت فكاهاتي في اول الامر باردة غثة ، ثم دبّت فيها

الحياة ، حتى كنت احتل مكان الصدارة بين رواتها . .
وتغيرت مشيتي فلم أعد أسير مكتفيا ، لا أكاد أرفع
عيني من الأرض . . عرفت كيف أقفز الى الترام ومنه ،
وتحررت من هذا الحبل الذي كنت أخطو فوقه . . هذا
الحبل المشدود بين مكتبي ومنزلي وبين منزلي و «نادي
المحبة» . . وأهم من هذا كله انقطعت عن التساؤل بيني
وبين نفسي : أكون مشتاق عاقلا أم مجنونا ، أم مهرجا
متصنعا . . يكفي اننى أحببته . . يكفي انه حل عقدة من
لساني ، ودفعني الى بحر الحياة المتلاطم ، فتمتعت
بضربات الموج فوق صدري وعلى ظهري . . واحسست
بساقى تتحركان بعد ان كادتا تصابان بالشلل . .

الشيء الوحيد الذي وددت ان اعرفه ، ولكن خجلى
وتهيبى القديمين منعانى من التفكير فيه ، هو المصدر
الذي كان يرتزق منه مشتاق . . فأنا لم اسمع منه قط
انه كان يباشر عملا ، ولم أر قرشا يدخل الى جيبه ،
ولم أشهد يده تمتد الى مال سواه . . ولقد أعيانى ان
أقنعه بقبول دعوة لتناول غداء أو عشاء عندي في البيت
فقد واظب على الاعتذار وهو يرسل قهقهاته المألوفة :
— أكل البيوت محنط . . أشهى طعام هو الذى
أخطفه من أيدي الباعة في الطريق . . اللقمة التى تأكلها
وأنت تجرى ، لا تغذيك فقط ، بل تجدد شبابك أيضا
ومضت الشهور ، ومشتاق فى حياتي هو ، هو ، بل
انه ازداد تأثيرا على ، واتصلا بأعمساق نفسي ، حتى
فتحت حزمة الاوراق التى يحملها ، فقد عثرت فيها
— يوما بعد يوم ، ومرة بعد مرة — على كتب لم أكن
أدرى من اين يحصل عليها . . كتب من كل صنف ، وفي
كل قن . . بعضها كتب صفراء يحمر لها خجلا الشيخ
الهرم ، فضلا عن الشاب أو الشابة ، وبعضها ثقیل

معقد ، لا يقوى الانسان على مطالعته الا اذا تسلسل
بالصبر .. والايمان معا ..

على اننى لاحظت فى الايام الاخيرة التى سبقت الازمة
التى انتهت بها علاقتى بـ « مشتاق » انه بدأ يستقبل
خليطا من الناس غريبا .. بعضهم يلبس عقالات فوق
رأسه ، وبعضهم يلبس « جاكته » فوق جلباب من الطراز
البلدى .. وكانوا يحضرون غالبا فى سيارات جديدة
الطراز فخمة ، ولم تكن صلة مشتاق بهؤلاء الاصدقاء
لتمنعه من الجلوس معى طويلا كعادتنا ، ولا من التنقل
فى أنحاء القاهرة ، والتردد بوجه خاص ، على حى الحسين
والسهر فى مقاهيه المشهورة وتناول الطعام فى بعض
مطاعمه القديمة .. وقد وددت يوما أن أسأل من يكون
هؤلاء الاصدقاء ، لولا انهم انقطعوا تماما ، ثم قل تردده
هو على اثر انقطاعهم على المقهى ، ولكن لم يكن ذلك
بالامر الذى يستوقف نظرى ، لعلمى بغرابة أطواره وشدة
رغبته فى التنقل والتغير .. ثم عاد هؤلاء الاصحاب ،
وبدأ « مشتاق » يكتب اثناء وجوده معهم فى اوراق ..
ماذا يكتب ؟ كان مظهره اثناء الكتابة غريبا ، فقد كان
يبدو لى مستغرقا فيها ، منصرفا عن كل شئ .. الامر
الذى لا يتفق أبدا مع مزاجه وأخلاقه وطباعه ، فهو
مشتت موزع الخاطر ، يدور بعينين سريعتى الحركة وهو
نفسه لا يكاد يستقر فى مجلسه ..

لقد كان دائما فى نظرى عصفورا صغيرا لا يكف عن
القفز ، والزقزقة ..

وشعرت أن « مشتاق » يعتمد قليلا عنى .. ولما بدأ
عليه من الجد ، وقل نشاطه فى الكلام ، خفت أن أفقده
.. أو أفقد على الاقل فيه ، هذه الشخصية التى

لا تنقطع عن الضحك والحركة والخروج على المصادات
والهزء بالمألوف ، ومزج الجد بالهزل ، والقاء النكات
البالغة في قالب يكاد يكون الفحش بعينه !
وقررت ذات مساء أن أفاتحه في هذا التغير الذي
لاحظته ، لولا أنني وجدته في ذلك المساء بعينه مرحا
ضاحكا ، ثم اختفى تماما عنه هذا المظهر الكئيب الذي
أحزننى ..

ثم
ثم اختفى مشتاق نفسه ..
مر يوم ، ويومان ، وثلاثة ..
وخيل الى أن « نادى المحبة » قد زال من الوجود
لم تعد هذه الشخصية الفريدة تظهر على مسرحه ..
قهقهته التي كانت تملأ المكان لا تصافح الاذان ، شتائمه
وتشبيهاته ، وفكاهاته ، وتصويره للقادمين ، والذاهبين
واللاعبين ، والسارحين والتائهين .. كل ذلك توقف ..
وسألت كل رواد المقهى .. وكلهم يعرفونه .. بدأت
بمدبولى ، فامتقع وجهه ، ولم يجب لحظة ، ثم قال في
صوت خافت :

— الله أعلم .. !

سألت الآخرين .. وعلى عادة الذين لا يعرفون ، لم
يترددوا في أن يقولوا أى شىء .. منهم من قال انه طريق
مستشفى قصر العيني اذ صدمته سيارة ، وهو يترنح
من كثرة ما شرب .. ومن قائل انه مات فعلا ، ودفن
في مدافن الصدقة .. ومن قائل انه جن ، وأودع
مستشفى المجاذيب ، ومن قائل انه تزوج زيجة لم تكن
على البال ، فوجد من ينفق عليه ، فكف عن تهريجه
الذى لم يكن سوى ثمرة فقره ..

ورسبت هذه المفتريات والاشاعات في القاع ، وبدأ

الناس - كماداتهم أيضا - ينصرفون عن تتبع أخبار
مشتاق ، أو تسقطها أو صنعها صنعا .. ثم أخذ همس
يعلو قليلا قليلا بأن الخبر الأكيد عند مدبولى ، فذهبت
إليه وسألته فى جد :

- أين « مشتاق » ؟ ..

وفى هذه المرة ، امتقع وجه مدبولى أيضا ، ولكنه
أجاب بسرعة قائلا :

- الله يرد غربته ! ..

- غربته ! ..

واردفت بقولى :

- وهل سافر ؟ ..

فهر مدبولى رأسه قائلا :

- تقريبا ! ..

ما معنى هذا كله ؟ غربته .. وسافر تقريبا ..

ولم يطل انتظارى ، فقد علمت أن مشتاق السخاوى ،
مقبوض عليه على ذمة جناية اتجار بالمخدرات مع عصابة
تعتبر من أضخم ما وضع البوليس يده عليه ..

مشتاق السخاوى ، عضو فى عصابة مخدرات .. !
أذن هؤلاء الذين كانوا يترددون عليه ، ويكتب لهم ،
ما كان يكتب جادا منصرفا عنا ، هم أفراد العصابة أو
بعض أفرادها ..

وشقت على الصدمة ، حتى كدت أحس بالمرض ،
ولاحظ زملائى ذبولى ، وعزوفى عن الكلام ، ومع الأيام
فقدت شهيتى للطعام واضطربت قدمى .. !
لقد كانت خيبة أمل هائلة ..

لقد أحببت مشتاق وصدقته ، وأعجبنى أسلوبه فى
الحياة .. كان مفلسا ضاحكا فيلسوفا ، كان طيب
القلب ، وكان عبث لسانه بالناس ، امتدادا لفلسفة ،

لا حقدا عليهم ولا كرها لهم ، ولا حسدا للناجين فيهم
.. اذن هذه خاتمة السريالى بكل تهريجه وعبثه ، فما
أسخف اذن هذه الحياة التى نحيها ..

ولسكن ايمانى بمشتاق السخاوى ، لم يلبث حتى
غلبنى على أمرى ، ورجحت أن أفراد العصابة ، استغلوا
عدم اكترائه وبساطته ورغبته فى تجربة كل جديد
وغريب .. ثم قطعت بهذا ، وقررت أن أبذل جهدا فى
مقابلته فى السجن .. وباءت كل محاولاتي بالفشل ،
فلم يقبل أحد التطوع بمساعدتى فى هذا السبيل ، بل
ان اصدقائى وزملائى نهونى عن هذه المحاولة التى ستلقى
على شبهات ، أنا فى غنى عنها ..

ونفضت يدى من هذه المحاولة على مضض ..

حتى جاء اليوم الذى تحدد للمحاكمة ..

طلبت اجازة من عملى ، وذهبت الى مبنى المحكمة ..
لم أكن أظن أن الوصول الى قاعة المحكمة ، هولا من
الاهوال .. طريقة طويلة تكاد تكون مظلمة ، ومئات من
الواقفين ، والجالسين ، والراكضين .. وأفواج من الناس ،
يدفعون دفعا ، وراءهم عساكر ومعهم ضباط .. صراخ
وصياح ، وقد كنت اتصور مقر العدالة ، مكانا هادئا
وقورا ، منظما ، مضيئا .. وحاولت أن أعرف أين قاعة
الجلسة ، فكأنما أبحث عن القارة المفقودة .. فمن قائل
انها على يمينى ، ومن قائل انها على يسارى ، ومن قائل
انها فى آخر الطريقة ، ورابع يفتى بأنها فى أول الطريقة ..
ولقيت من فجعنى بان القضية نظرت وانتهت . على انى
لم ألث حتى صادفنى من طمأننى بأن الجلسة لم تنعقد ،
وان القضاة لم يحضروا .. وفيما أنا أسمع هذا وذاك
هبت عاصفة من الصراخ أعنف من كل ما سمعت ،

ورأيت تدافعا ، وتسابقا وهرجا ومرجا ، وارتفعت عصي طويلة يحملها جنود أقوياء .. وقبل أن أعرف حقيقة الانقلاب الذى وقع فى هذه الطريقة التعسة الكئيبة ، أحسست بطربوشى طار فى الهواء وبدم ساخن ، يتدفق من مؤخر رأسى .. ورأيت فى هذه اللحظة شابا يتقدم نحوى ويدفعنى الى ممر جانبى وهو يقول :

— اسعاف ! .. اسعاف ! ..

وكدت أنساق معه لولا أن رأيت فى هذه الزلزلة العاصفة .. وجه مشتاق ..

انه هو نفسه وسط رجال يكادون يكونون كالعمالقة طولا وعرضا ، وكاد قلبى يقف .. ان مشتاق بين هذا الجمع الغريب ، فماذا يا ترى يكون شعوره .. وقبل أن أردد السؤال ، رأيت بين أفراد العصابة وزعمائها .. صغيرا نحىلا ، يقفز كعادته ويدور ويلف حول نفسه .. وحانت منه التفاتة ناحيتى ، فشملى سرور عميق ، عميق .. فقد كان يضحك كعادته ، كان وجهه مليئا بالحيوية ، معبرا عن عدم مبالاته بكل شيء .. اذن هو برىء .. !

ودخلت قاعة الجلسة بعد أن ضمدت جراحى فى مكتب الاسعاف الموجود فى المحكمة ، ونسيت كل شيء حينما استطعت أن أقرب من قفص المتهمين الذى لم اكن قد رأيت من قبل ، وكان المتهمون فيه محشورين حشرا .. وبينهم جلس مشتاق ، أو وقف ، لست أدري ، فقد كان تميز ذلك بالنسبة لى أمرا صعبا

ورأنى .. فلوح لى بكلتا يديه ، وأخذ يضحك ، ويقول اكلاما لم أسمع ..

وجلست ، بعد أن هتف حاجب المحكمة :

— محكمة ! ..

جلست أنظر في هذه القاعة ، وأتأمل ، وأنا لا أكاد أدري أين أنا .. ودارت عيناي في أرجائها ، ثم وقفت عند مقعد محطم ، انتفش منه قطنه ووضع في ركن من أركان القاعة ، خلف المحكمة ، وقد حاولت عبثا أن أفهم سر الاحتفاظ به على هذه الصورة وسر الإبقاء عليه في هذا المكان .. ورأيت لوحة زرقاء قديمة ، كتبت عليها آية من سورة من القرآن الكريم ، تدعو الناس إلى العدل .. ولكن الغبار كان قد غطاها جميعها ، كأن الذين وضعوها في هذا المكان منذ خمسين سنة أو تزيد ، حرصوا على أن يخفى التراب حروفها جميعا ، وأن يخفى لفظ العدل على وجه الخصوص ..

ونودي على الشهود ، وكان أول الشهود جميعا مدبولي .. عامل المقهى ، مقهى « نادى المحبة » .. وكانت شهادته أول الخيط في القضية ، وكان المتهم الأول — حسب هذه الشهادة — هو مشتاق السخاوى ! ولكنى قد تبينت منها أيضا أنه لم يكن مشتاقا ولا سخاويا .. فقد كان اسمه الحقيقى : « دحروج على دحروج » ..

ونظرت إلى مشتاق في القفص ، فلم أر على وجهه علامة واحدة من علامات الارتباك أو الانقباض أو الجزع .. أنه هو ، هو .. كما رأيته في اليوم الأول ، ابتسامته على شفثيه ، مكانها ، وعيناه اللامعتان الصغيرتان ، تشعان نورا وبريقا .. فقلت لنفسي :

— أيها السريالى العظيم ، هذا موقف في حاجة إلى كل السريالية التى وزعت على الناس أجمعين .. هل أصدق أذن وعينى ، أم أكذبهما .. لقد علمتنى أن

العيون تخطيء ، والأذان تكذب ، والحواس أضعف من
أن تصل إلى الحقيقة ، أو تعرفها .. فما هي الحقيقة ؟
ما هي الحقيقة ؟



وعندما رفعت الجلسة للاستراحة ، أسرعت إلى
القفس .. فاقترب مني « مشتاق » في لهفة وشوق ،
وقال :

— هل لا تزال تشرب الخرسوس ؟ .. اشربه ..
اشربه الليلة واذكرني ..

والحق أنني أحسست بأن لسباني ثقل ، وبأنني لا أكاد
أقوى على مواجهة هذا الموقف المحير المربك ..
ولاحظ « مشتاق » ذلك فقال :

— ألم أقل لك كن سرياليا تفهم ..
ولم أستطع كذلك أن أرد على هذه المداعبة ، فبادرني
بقوله :

— أنا أحس بجوع شديد .. اشتر لي لحمة رأس
وضعها في رغيف ، وأسرع .. فالمحكمة ستعود حالا ..
وانقذني هذا الطلب من هذا المأزق الذي تجمدت
فيه ، فأسرعت واشتريت رغيفا ساخنا ، مليئا بلحم
الرأس ، ودفعته إلى مشتاق الذي أخذه ، وراح يقضمه ،
وهو ينظر إلى بعينين صغيرتين لامعتين ..

وعادت المحكمة .. وعدت أسمع ، وأنا لا أكاد أعي ،
فأقوال تجعل من مشتاق زعيما من زعماء العصاة ..
وأقوال تجعل منه مجنونا استغله هؤلاء الزعماء .. وأنا
بين هذا وذاك ، أشبه ما أكون بمن يوضع تحت « دش »
بارد ، ثم « دش » ساخن على التوالي .. وانقطعت

عن متابعة الجلسة ، لاني أحسست بأن مرضا بدأ يزحف على زحفا ..

حتى كان يوم النطق بالحكم .. فتحاملت على نفسي تحاملا ، وسقتها الى القاعة التي أصبحت أكرهها أشد الكره .. فلما نطق رئيس المحكمة بالحكم ، لم أفهم شيئا فقد نطق بسرعة خاطفة ، وفي الحال دوت زغاريد وهتاف وامتزج ذلك بصراخ وبكاء .. ثم لاحت في الأفق العصي الطويلة ، وتدافع الناس ، فكمنت في ركن ، حتى هدأت العاصفة .. ورأيت الذين كانوا في القفص يساقون سوقا الى سيارة ضخمة تنتظرهم .. ورأيت فيهم مشتاق ، يقفز ، ويصفق ويلف حول نفسه ، ويدور .. ثم يصعد مع بقية زملائه الى السيارة الضخمة .. فأسرعت نحوه ، وأنا أوهم نفسي بأن فرحه ومسرته ، هما دليل الحكم ببراءته ... ولكني لم أجرو على سؤاله عن الحكم ، فقد اكتفيت بسماعي صوته وهو يقول :

— اشرب الخرسوس .. ولا تنس صاحبك !

هل برىء ؟ هل أدين ؟

هل هو عاقل ؟ أم مجنون ؟

هل هو مجرم ؟ أم أداة المجرمين ؟

لم أعرف ، فقد انقطعت عن « نادي المحبة » ولم أقرأ الجرائد ، ولم أسأل أحدا .. كل الذي وددت ألا يكون .. هو إلا أحن من جديد الى السير على الحبل المشدود الذي كنت أسير عليه من قبل ..

أسطورة حب



كان الملك مستلقيا في فراشه على ظهره ، ينظر الى النقوش التى ملأت سقف مخدعه الضخم .. وكان يتساءل فى دهشة عميقة : اكانت هذه النقوش فى هذا المكان من حجرة نومه ، منذ عرف هذا المخدع ؟ .. وكأنه يراها لأول مرة ، وكأن نظره لم يقع من قبل على هذه الغوانى العاريات ، الواقفات والجالسات على شاطئ بحر ، بينما طار فى الجو طفل صغير ، بأجنحة رقيقة ، يحمل فى يده قوسا وسهما ، وهو لا يدري الى اية واحدة منهن ، يصبو سهما ؟ ..

وطاب للملك أن ينظر الى هذه القامات المشوقة ، والى تلك الاجساد التى تكاد تشع نورا وكأنما صنعت من أشعة الشمس .. وعجب ان تغفل عينه عن هذه اللوحة البارعة ، وكأن اصابع الفنان التى صاغتها لم تكن تعنيه ولا تفكر فيه ..

وبينما كان الملك مسترسلا فى تأملاته هذه فى الجمال العارى المعروض عليه فى السقف وعلى الجدران ، وفى كل مكان ، كان على باب حجرة نومه ، هياج مكتوم ، يكاد يحطم باب الحجرة .. كانت حركة الاقدام لا تكف ، وكان موظفو القصر ، وكبار رجال الدولة من عسكريين ، ومدنيين ، وأعيان الامة من اغنياء وشيوخ قبائل وزعماء عشائر يقدون الى القصر ، وعلى وجوههم علامات اهتمام شديدة .. ثم يجتمعون بعد ذلك ، فى القاعات القريبة من جناح الملك الخاص فى قصره العظيم ، الامر الذى لا يحدث الا فى الملومات الكبيرة ..

أما سـيـدات القـصر ، فـكن يـتـهـامـسن ، وـيـسـرن عـلى
أطراف أصابعهن ، وـيـتـخاطبن بـنـظرات العيون ، وـخـلـجات
الوجوه ..

آكانت فى الجو نذر ازمة ؟؟

كان كبير وزراء الملك ، يروح ويغدو وهو يكاد يشتعل
غضباً .. كان يلح فى ان يرى سيده فى الحال ، فعنده
اخبار هامة وسارة .. ولكن كبير خدم الملك ، يأبى ان
يدخل على مولاه ، فقد أمره - فى الليلة السابقة - الا يقطع
عليه نومه ، ولو انقلبت الدنيا رأساً على عقب .. !

وعندما يتنازع كبير الوزراء وكبير الخدم ، على باب
الملك ، فى شىء ، فان كلمة الثانى منهما ، هى التى يجب
ان تنفذ وعلى الوزير الكبير ، أن يحنى رأسه ..

وكان كبير حاشية الملك الخاصة ، يؤجل ويسوف ،
حتى يعرف بطرقه الخاصة ، الخبر السار الذى سيفضى
به رئيس الوزراء الى الملك ، ليسبق هو باعلانه ، وينال
بذلك الاحظوه . ولذلك دار اتباعه ورسلكه فى كل ركن من
اركان القصر وخارجه يشمون الاخبار فلم يظفروا الا
بشىء واحد ، هو ان رسولا خاصا جاء للوزير الكبير مع
خيوط الفجر الاولى ، وافضى اليه بأمر .. وأنه مع شروق
الشمس اصدر اوامره الى كبار رجال الدولة وزعمائها ان
يوافوه فى القصر ، لشأن هام ..

ولم يكن عند رسل كبير الوصفاء ، أمل فى ان يجدوا
للخبر اثرًا - بعد ان اعيتهم الحيل فى تبينه - الا عند
ابنة الملك ، ووحيدته ، وأعز الناس عنده ، فهى وحدها
التي تعرف الاخبار قبل ابيها ، او معه - على الاقل -
لأنها اعظم الناس تأثيراً عليه ، ومن هنا فهى مقصد كل
المتلقين ، والراغبين فى كسب عطف الملك ، والتقرب
اليه ..

ودخل رسل كبير الحاشية الى ابنة الملك ، فأصابتهم على التو خيبة أمل كبيرة حينما وجدوها فى هدوئها الملائكى ، تكاد لا تحس بما يجرى فى القصر ، وانها شغلت عنه ، بعزف خافت على « ارغن » . ولما خرج واحد منهم ، من حجرتها لمحہ رئيس الوزراء ، فأسرع اليه وأمسك بتلابيبه ، وهزه هزا شديدا حتى كاد يخنقه ، وهو يقول : « لو عدت اليها لفصلت رأسك عن جسدك فى الحال »

وأسرع الرسول مدعورا ، يتعثر فى خطاه ، ويكاد ينكفى على وجهه الى سيده . فلما علم كبير الحاشية بكل هذا تولاه وجوم عميق ، ووقف على باب مخدع الملك ، وقد فارقت رغبته فى ان يعرف الخبر السار ، اذ ادرك ان ما عند رئيس الوزراء هو « أسوأ » الاخبار السارة ، وان للملك من وراء هذه البشرى التى ينوى رئيس الوزراء حملها اليه ، آلاما هائلة ، وأحزانا لاتنتهى . وبقيت يد كبير الحاشية على مقبض باب حجرة الملك ، فتره من الزمن ، وهو لا يدري أيفتح الباب ، أم يبقيه على حاله . ولو تأملت هذه اليد فى تلك اللحظة ، لاحسست انها تكاد تكون وجها تتوالى عليه صور الخوف ، والحزن والامل . .

ولم يكن هناك مفر من فتح الباب ففتح . . وكانت ابنة الملك الى هذه اللحظة ، امام الارغن تنساب منه - تحت وقع اناملها الرقيقة - أنغام كانت فى هذا الصباح حزينة ، الى الحد ، الذى احسست معه العازفة نفسها ، بالرغبة فى البكاء . . فكفت فجأة عن التوقيع ، وقامت فى انفعال مفاجئ - لم تدر سببه - متجهة الى الباب ، وكأن يدا تدفعها الى الخارج . . ولم تكد تفتح الباب حتى وقعت عيناها ، على أكثر من وصيفة ، تسير

فى صمت ، مطرقة ، فقد ملا جو القصر انقباض ، تكاد
تلمسه الايدى لمسا ..
ماذا هنالك ؟ ..



ماذا هنالك ؟ ..
هذا هو نفس السؤال الذى انطلق على لسان الملك ،
وهو يرى رئيس الوزراء متجها نحوه .. فوقف الوزير
الخطير ، فى منتصف الحجرة ، وهو ينظر الى سيده
ومولاه ، وقد جلس فى وسط سريره فى ثياب نومه ،
وكأنه كومة من اللحم والشحم يبرز منها بصعوبة ،
رأس صغير ، وبعد فترة صمت ، نفذ معها صبر الملك
فصرخ :

— قل .. لماذا أزعجتمونى ؟ .. أهو خبر من تلك
الاخبار التافهة التى شيعت منها ؟ انكم تسألوننى دائما ،
ماذا اريد .. ولكنكم لاتدعوننى ابدا كما اريد . كل
منكم يوهمنى اننى صاحب الامر والنهى ، ولكن عيونكم
المسبلة ووجوهكم المقنعة ، تلح على فى صمتها الثقيل
بما تريده هى ..

ولكن الملك سكت فجأة ، فقد لاحظ ان وجه الوزير
قد اكتسى بجد وصرامة ، ألجما لسانه .. فاقرب من
طرف السرير ، ثم دلى ساقيه العاريتين على الارض ،
ونظر الى وجه كبير مستشاريه ، وهو بين الخوف والامل ،
وقال معتذرا :

— لا تؤاخذنى .. فقد أخرجنى الغضب عن طورى
واقرب كبير الوزراء من مولاه ، غير ملتفت الى صراخه ،
ولا الى اعتذاره ، وأدنى رأسه ، حتى قارب وجه الملك ،
ثم قال فى صوت عميق :

— لقد وقع فى أيدينا ؟
وانتفض الملك واقفا ، وبدأ كرشه من وراء قميصه
ككرة فى مثل استدارة رأسه :
— قبضتم عليه ؟ قل الحق .. !
وفى مثل رصانة وتجهم الصوت الذى افضى بالخبر ،
قال الوزير :

— هذا هو الحق .. لا زيادة ولا نقصان ..
وارتعشت عضلات وجه الملك لشدة انفعاله ، وحاول
الكلام فخانه الصوت واللسان ، فلم يملك الا أن ألصق
الوزير ب صدره ، تظاهرا للامتنان .. ولكن الوزير ابتعد
عن سيده ، فى تودة ، فمد هذا يده الى قباء من الحرير
دخل فيه بجسمه الضخم وجلس على طرف السرير وهو
ينظر الى شفتى الوزير — وهو يكاد ينفجر من شدة الفضول
المزوج بالخوف والاشفاق — وتكلم الوزير فقال :

— لقد نجحت حيلتنا .. فلقد كان من المستحيل ،
ان نقضى عليه حيث هو ، فهناك كان اعوانة . كان كل
الناس معه .. استطاع ان يشكرهم بخطبه ، وأن يستولى
على لبهم ، بشجاعته ومجازفاته ، فأرسلنا اليه من يدعوه
الى اقليم « الموالى » . واوهمناه أن دعوته بدأت تذيع
هناك ، وان انصارا ظهوروا يؤيدونها .. وتردد قليلا
وساوره شك فيما نقول ، فوالينا ارسال الرسل اليه
من كل لون ، وفى كل زى ، مصطنعين كل أسلوب ..
وهو كما تعلم عظيم الثقة بالناس ، شديد الاندفاع لكل
ما يراه خيرا لدعوته .. فوقع فى أيدينا ، ولكنه قاوم
واستبسل ..

وتوقف الوزير عن حديثه ، حينما رأى وجه الملك ،
وقد علتة غبرة حزن .. وكأن كل هذه الاخبار لا تسره ،

مع ان هذه الاخبار ذاتها ، كانت آمل الملك نفسه منذ
شهور طويلة ، وقد سهر - من اجل تحقيقها - الليالى
مؤرقا ، خائفا يتحسس عنقه ، ويفكر فى الهرب ، حيناً ،
وفى المسألة والمصالحة حيناً آخر ، وفى الاستعانة بجيرانه
حيناً ثالثاً ، فقد كانت الثورة التى اشتعلت فى إقليم
« السماحة » تتسع وتلتهم فى وجهها حصونه وقلاعها ..
ولكنه كان يفكر الآن فى شيء غير الثورة التى اندلعت
ضده ، وفى غير قائدها الذى كان يهدد عرشه .. كان
يفكر فى ابنته ..

ووقف كبير الوزراء ، وقد صمت صمتاً صوب خلاله
نظرة ، اخترقت صدر الملك وكأنها رصاصة مسمومة
وأدار الملك رأسه بعيداً عن وجه الوزير ، لأنه لم يكن
يحتمل نظراته الصاعقة وكاد يقول : دعنى افكر !
لولا ان جاء صوت كبير الوزراء حاسماً حازماً ، ينقل
الى سمعه

- لا مكان للتردد .. يعدم رمياً بالرصاص قبل ساعة
من الآن !

وصرخ الملك ، وكأنه يود أن يتشبث بديل رداء الوزير
كما يتشبث الطفل بثوب أمه !
- ساعة !

وقال الوزير فى ثبات يكاد يكون تحدياً :
- نعم ساعة .. والا

وتدخل الملك فى نفسه ، واتجه إلى الوزير فى
استعطاف :

- والا .. ماذا ؟

ووضع الوزير يده فى جيبه ، وهو يقول :
- هاك استقالتي ..

ولم يخرج الوزير شيئاً من جيبه حينما سحب يده
من الجيب ..

واطرق الملك قليلاً .. ثم قال فى صوت خافت ،
ضعيف ، متردد ، كأنما يلفظ انفاسه :

— انا أعلم ان رأيك هو الصواب .. أعلم انه لا مفر
من ذلك ، ولكن ابنتى ..

واتجه الوزير الى الباب فى خطوات ثابتة ، وكأنما يكرر
وقعها على الارض ، وأوامره الحاسمة بأن لا تردد ، ولم
يكذ يصل الى منتصف الحجرة حتى استدار وعاد يواجه
الملك ويقول :

— انا أعلم ان الخبر بلا شك سيحزنها .. ولكن فى
سياسة الدول لا مكان للعواطف ..

ورفع الملك يده امام وجهه ، وكأنما يبعد عنه منظراً
لا يطيق النظر اليه قائلاً :

— ولكنها ابنتى الوحيدة ..

واقترب الملك من الوزير قليلاً ثم قال :

— لقد أخطأت اختيار مكانها .. كان الواجب أن تكون
الى جانب ابيها ، وان يكون قلبها معه .. لا ان تكون مع
عدو ابيها ، وقلبها مع الثورة عليه ..

واحنى الملك رأسه وكأنما هو مذنب ، يسمع الحكم
الذى يراه هو حقاً وعدلاً .. وخارج الوزير ، وهو لا يكاد
يستطيع اخفاء سعادته ، بأنه ظفر بموافقة الملك ، على
انفاذ حكم الموت ، فى « عادل بن كبريم » الشاثر الذى
جمع الناس حوله ، مطالباً بالعدل ، وبإس رئيس
الوزراء وتأديب الامراء وردهم عن الظلم ..

وأعلن النبأ فى القصر .. وعرف كبار رجال الدولة،
وزعماء العشائر ، وامراء القبائل ، لأى نبأ دعوا ، فذهب

كل منهم الى قصره ، او ضيعته مسرورا ، وان كان يتوجس خيفة ، مما قد يجره هذا الفوز من ويلات ..



وعلمت « فداء » ابنة الملك ووحيدته ، بالنبأ فلم تنطق بحرف واحد .. كأنما الفاجعة قد افقدتها القدرة على الحزن أيضا .. فقد احبت « عادل بن كريم » كما لم تحب شيئا ، او أحدا آخر فى الدنيا .. عرفتة وعرفها ، وهما صغيران ، فقد كان قريبا فقيرا لأمها ، ولم تكن أمها أميرة ، وانما كانت من بنات الشعب ، من عائلة قديمة عرف كثير من أفرادها بالعلم ، والفروسية معا . وكان « عادل بن كريم » جديرا بالحب .. فقد كان وسيما وقورا ، قليل الكلام ، فارسا وشاعرا معا . ولما كبرا وبلغا سن الشباب ، احبته لصفاته ولشبابه الدافق ، ثم احبته لانه علمها العلم الذى لا سبيل إليه فى الكتب .. لقد علمها كيف تحب الناس ، وكيف تعيش معهم ، ثم فتح عينيها على حقائق ، لم تكن لتتدى إليها ، لو تركت بين المربين والمعلمين من أهل القصر ..

لقد كشف لها عن بؤس الشعب وفقره ، عن جوعه وعريه .. وأراها فوق الظهور آثار السياط ، وأراها فى القرى والكفور الذل والمهانة . وكانت تظن الدنيا كلها تعيش فيما تعيش هي فيه ، وأبوها ، ومن حولهما من النساء والرجال ، فى بحبوحة وسعادة .. وجعلها تعرف الخوف فقد ادركت - بفضلها - ان الخوف فى كل مكان فى مملكة أبيها .. ادركت ان الناس يتكلمون همسا ، وهم يتلفتون ، وعيونهم زائغة وحلوسهم تكاد تجف من فرط الهلع . وعرفت شيئا رهيبا .. عرفت ان كل ما يقال فى القصر ، لها ولائبها ومن حولهم ، ليس هو ما

يدور في رءوس الناس . ولا ما يريدون أن يتحدثوا به . .
أنما هو شيء آخر يقال لهما ، وحدهما . . وجاءت لأبيها
الذى احبته لأنه كان لها الام والاب معا منذ ماتت الملكة
. . واخذت تحدثه - اول الامر - على استحياء وتردد ،
فيما سمعت وفهمت ورأت ، ولم يغضب ابوها ، ولم
يمنعها عن هذا الكلام . . ربما لأنه يحبها ، وربما لأنه كان
يرى مثلما ترى ، ويسمع مثلما تسمع . .

وخيل اليها ان اباهما سيغير الامور ، ويصلح الدولة
ويحارب المفسدين والظالمين . . ولكن الكبار ، ادركوا
الخطر الذى يهددهم فاحاطوا بالملك ، وحاصروه ، واخذوا
يهولون له فى سوء العاقبة ان هو استمع لابنته الطفلة
غير المجربة . . واخذوا يبحثون عن مصدر الهامها
فابتعدوا عنها الصديقات ، وفرضوا عليها الوصيفات ،
وجعلوا يحصون همساتها ويرصدون خطواتها . .

وواصلت من جانبها الالحاح على أبيها أن يصمد
ويقاوم ، وهو بين ما تقول هى ، وما يقوله الكبار ذوو
النفوذ ، يتأرجح ويتذبذب ، كالريشة فى مهب الريح . .
حتى أدركت ابنته أن الملك ، من النظام الذى يحكم بلدها
ليس الا وجهة وان روح النظام تحكمه هو ، كما تحكم
أصغر صغير فى رعاياه . . فهو عبد مقيد فى ثوب ملك
أمر ، وناه . .

ونفضت الاميرة يدها من المحاولة ، وفى قلبها حزن
عظيم ، وشعور بالاثم لا سبيل إلى اسكاته أو تهدئته .
ويئس صديقها وحبيبها « عادل بن كريم » فذهب الى
اقليمه « السماحة » وأخذ يجمع أمثاله من الساخطين
والثائرين . . فلما اطمأن الى شيء من القوة أعلن
العصيان الذى استحال مع الايام ، الى ثورة . . ثورة
استخفت بها الدولة اول الامر ، ولكن هذه الثورة مضت تتسع

وتنتشر ، وتكسب كل يوم انتصارا جديدا ..
وأفاقت الدولة وأفاق الحكام في العاصمة وراوا مدى
الخطر الذى يتهددهم ، فجزع الوزراء والكبار ، وتردد
بعضهم فى الجهر بعداوته للشوار ، اتقاء لما قد يأتى به
المستقبل .. واستعد بعضهم لاستقبال المعسكر الجديد
والوقوف الى جانبه

وأسرعت الابنة الى أبيها ، وقد ظنت ان النذر التى
تجمعت فى الأفق كافية لتعيد أباه الى صوابه .. ولكنه
كان أضعف من أن يقاوم ، وأقل إيمانا من أن يجازف
وبعدت « فداء » عن أبيها ، ولم تعد تراه كل يوم ..
وكان أبوها يبحث عنها ، ولكنها أصبحت مع الأيام
صورة ضميره المخنوق فراح يفر من لقاءها ، ومع ذلك
بقيت اعز الناس اليه ، واحبهم الى قلبه



وخجل الملك أن يلقي ابنته ، بعد أن أنفذ حكم الموت
فى حبيبها الذى كان يعرف انه سر وجودها ، وانه فقدوها
الى الأبد ..

ومرت الأيام والملك لا يرى ابنته ، ولا يرى أحدا
غيرها .. فقد اختفى فى مخدعه وأمر ألا يقابله انسان
ثم أخذ يسأل عن أخبار « فداء » فعلم أنها صامتة
لا تتحدث ، بعيدة عن الناس ، زاهدة فى الطعام ..
وخيل اليه أنها تدنو من الموت ، بخطى سريعة .. فجمع
أطراف شجاعته وذهب الى حجرتها ، وطرق بابها ،
وكان يظن أنها لن تفتح له ، فاذا بالباب يفتح .. وكان
يظن أنه سيرى نفسه أمام شبح ذابل ، بدل ابنته
النضرة .. فراحه أن رآها على نضارتها وان وجهها
يفيض هدوءا ودعة .. وان صنوتها خلا من كل نبرة
من نبرات الحزن والاسى ..

ولو لم يكن يعرفها ، لفرح بهذا الهدوء ، ولزال عنه
ارتبأكه ، ولكنه أحس من كل ما رأى ، أن ابنته أصبحت
بعيدة عنه كل البعد .. وأنه لن يصل إلى قلبها ، إلا إذا
كان في وسعه أن يعيد إلى الحياة حبيبها الذي قتله ..
كان ذلك مستحيلاً ! أطرق الملك برأسه وصمت وكأنه
غاب عن الدنيا ، حتى أفاق على صوت ابنته :

— كيف حالك يا أبى ؟

« كيف حالى » ؟ .. تردد السؤال على سمع الملك ،
وكانه لطفة سـاخرة تصفعه .. فرفع وجهه إلى ابنته
في توسل وضراعة ، ثم لم تلبث دموعه حتى انهمرت
فوق خديه ..

فقالت « فداء » فى صوت وكأنه يأتى من بعيد :

— فيم البكاء يا أبت ؟ .. لقد انتهى كل شيء ! ..
فنظر إليها أبوها طويلاً ، ثم استطاع أن يقول أخيراً :
— هل خرجت من خيالك إلى الأبد ..

فقالت ابنته فى صوت خلا من المجاملة :

— لم تعد لى حياة .. وانى أحمد الله لانى لم أتورط
فى سخافة الحزن .. هأنذا كما ترى لا أبكى .. أن الحزن
لا يليق بى ، وأظنه لا يليق بك ..

ومد يده نحوها فتركها حيث وضعها على ذراعها ،
وقالت وعلى شفيتها ابتسامة ساخرة :

— لقد فعلنا ذلك بأيدينا ، فلا يجوز لنا أن نبكى ..
لقد اختار كل منا لنفسه هذا المصير .. فلنتحمل
مصيرنا بشجاعة .. سأعيش لنفس الغاية التى مات من
أجلها ..

وقام الملك ، وقد ابيضت عيناه من الحزن وراح
يتخبط ، بحثاً عن الطريق .. فقد أدرك أن ابنته نذرت
نفسها لعزوبة أبدية ..

ولما وصل الى مخدعه ، راح يحطم كل ما أمامه ،
ويصرخ صرخات الممدوية ، ثم ارغى فمه وازبد ، حتى
سقط مغشيا عليه .. ولما أفاق ، أذاع في طول المملكة
وعرضها ، أنه أصدر أمرا بأنه محرم على فتيات مملكته
أن يتزوجن ، ما دامت ابنته مضرية عن الزواج ..



وهلعت الفتيات والامهات ، وهلع الشبان والمحبون،
من قرار الملك ، وأيقنوا أنه فقد عقله ، عندما فقد
ابنته .. ولكنهم لم يدروا ماذا يفعلون .. فقد كانوا
يعلمون أن الملك من ضيق العقل ، بحيث لا يمكن أن يعدل
عن عناده ، اما الثورة ضده فأمر مستحيل ، بعد أن
قمع قواده ثورة عادل في إقليم السماحة ، فقد جردوا
البلاد من السلاح ، ونفوا كل من يشتبه في ولائه ، بعد
أن شنقوا من شنقوا ، وبعد أن ملأوا السجون بضحايا
لا حصر لها ولا عدد ، زجتهم الى غياهبها الوشائيات
والاكاذيب والاحقاد ..

ولكن بقيت الاميرة « فداء » تضيء في وسط هذه
الظلمات الكثيفة ، ومن اليوم التالي تجمعت أمام ساحة
القصر ، آلاف من الفتيات والامهات يهتفن ، ويستغثن
ويطلبن من الاميرة ، أن تطلق سراح سعادتهن الحبيسة
ووقعت الاميرة في أكبر حرج عرفته في حياتها ، فلقد
كان قلبها مع الشعب ، وقد زادت تعلقا به ، بعد أن مات
« عادل » في سبيله .. ولكنها لن تستطيع أن تعد
هذه الجموع ، المتوسلة المؤمنة بالعدول عن العزوبة ..
ولم يكن في وسعها أن تقنع أباه ، فقد جن جنونه ،
وأصبح لا ينتهى من حماقة باطشة ، الا ليقع في حماقة
أكبر منها .. وعلى الرغم من هذه الورطة المحيرة ، فان
الاميرة ، كانت سعيدة ، لأنها أحست في اتجاه الجموع

اليها ، بالامل فيها .. فاعتزمت أن تخرج الى شرفتها ،
لتخاطب الوفود ، بوحى اللحظة ، بلا تفكير سابق ، ولا
تحضير ولا تدبير ..

وتعالت الصيحات ، صيحات الامل ، ولمع في العيون
بريق الرجاء .. ثم رفعت الاميرة يدها ، فشمل المكان
سكون كأن كل من كان فيه قد تبخر .. ثم تكلمت ،
فقالت :

— انتن اخواتى ، واعرف الناس بقلب المرأة المحبة التى
فقدت حبيبها .. افى وسع المرأة التى طعنت فى حبها
ان تبدد حبيبها مكان حبيب ..

فصرخن من الاعماق :

— أبدا .. !

فقالت :

— اذن ، لا بد من الصبر .. لست أحب أن أكذب
عليكن .. انتظرن فقد يأتى الفرج على غير الصورة التى
تنتظرنها .. ان مشكلتى مشكلتكن .. فنحن معا ..
وامتـلا البهو بصيحات رقيقة ، صيحات الامل
والسعادة ..

واتحدت « فداء » مع نساء شعبها ، فأصبحن جميعا
شيئا واحدا .. ولم تعد بعد اليوم وحدها ، فلم يكن
فى وسعها أن تحتفظ بعزلتها ، فقد قصصدها جموع
النساء من كل طبقة ، ومن كل ركن فى الدولة .. فلم
يخل جناحها من زائرات ووفود ، وطالبات عون ،
وصاحبات رأى .. وفى هذا الجو الحار ، تنفست « فداء »
فاندمل جرح قلبها ، وانطلقت فى الحياة ومع الحياة ..
وفى ذات يوم زار قصر الاميرة ، طائفة من بنات
النبلاء ، ومعهن شباب وسيم صغير ، يلبس ثوب
الفرسان .. فسالت الاميرة :

— ومن يكون الشاب ؟ وما سر حضوره مع الفتيات؟
فضحكت الفتيات وقلن لها ، انه فتاة مثلهن ، ولكن
لها قصة .. وسألت عن قصتها ، فروين لها أن للفتاة ،
أخا توأما ، ولدا نسخة من كتاب واحد .. وقد رزق
بهما أبواهما — بعد سنين طويلة من انتظار الاولاد — وقد
فرح بهما الوالدان وقررا أن يلبسا معا ثياب الذكور ..
فنشأت على مثل ما ينشأ عليه الشبان ، تعلمت
الفروسية ، والصيد ، ولبست ثياب الرجال ، فأصبحت
لها عاداتهم ، وأسلوب معيشتهم .. وطابت هذه القصة
« لفداء » فقربت الفتاة منها ، ومع الايام نبتت بينهما
صداقة ، فلم تعودا تفترقان الا قليلا ..

وقد زادت هذه الصداقة من سعادة « فداء » حتى
أصبح حزنها القديم ، ذكرى تدفعها الى مزيد من حب
الفارس ، ولا تدعوها الى الاستسلام للحزن ..

اما صديقة الاميرة ، فقد أحبت « فداء » وتعلقت بها ،
الى حد الجنون ، ولما رأتها سعيدة ، ودت أن تكمل هذه
السعادة .. قفزت الى رأسها فكرة ، كما تقفز العصفور
الصغيرة النشيطة من غصن الى غصن ، قالت الفتاة
لنفسها :

— ماذا لو تخليت عن مكاني لآخى .. اننا نحن الاثنين
شيء واحد ، ومع فارق واحد انه يستطيع أن يكملها ،
وأن يخرجها من هذه العزوبة التي طالت ، وثقلت على
الفتيات والفتيان بينما اعجز عن ذلك ..

وفي الحال جرت الفتاة الى أخيها وأفضت اليه برغبتها
وهال الشاب أن يقدم على هذا الاحتيال ، ونهى أخته
عن التفكير في هذه الحيلة ، ولكنها لم تدعه لنفسه ، فقد
ألحت عليه في الصباح والمساء ، واستعانت بحبه لها
وعرضت الاقتراح ، بأكثر من أسلوب ، حتى بدأت الفكرة

تفريه .. انها مجازفة طريفة مغرية ، وهى بعد مجازفة خيرة ، لا شر منها ، ثم هى خدمة تقدم لفتيات الشعب كله وفتيانہ ..

ولما انتهى الشاب من مرحلة التأمل فى الفكرة ، وبدأت مرحلة التفكير فى تنفيذها ، أحس بأن شجاعته أخذت تخونه .. وأخذ يتصور المآزق التى سيقع فيها ، ومقدار ما يحتاج اليه من ضبط نفس ، وسرعة خاطر ، وحضور بديهة ليخرج منها ، وتساءل :

— هل عنده شيء من هذا كله ؟

ولم تدعه أخته لكل الهواجس ، وأمرته أن يكون غدا فى القصر ، مع الاميرة ، وأن يرافقها ، كما كانت تفعل .. وبدأت تلقى عليه فى الحال دروسا فى أخلاق الاميرة ، وخصائص مزاجها ، وأخذ الفارس يسمع هذه الدروس وهو ذاهل عن الدنيا ، لا يكاد يسمع مما يقال له الا اقل القليل ..

وذهب الفارس فى الصباح الى مقر الاميرة .. وعند الظهر كانت أخته فى حجرتها تنتظره تكاد لا يستقر لها قرار ، تقضم أظافرها ، وتجلس ، ثم تقوم ، ثم تنظر من النافذة ، ثم تخرج الى الشرفة ، وتدور حول نفسها . وعاد الفارس ، وأسرعت أخته اليه ، تقفز درجات السلم اثنتين اثنتين ، وثلاثا ثلاثا .. وألقت بنفسها حول عنقه ، وهى تصرخ :

— ماذا حدث ؟

وحملها الفارس وأخذها بين ذراعيه وارتقى بها درجات السلم ، وهو يمطرها بقبلاته ، فلما وصل الى حجرتها مد أصبعه نحو وجهها وقال ، فى صوت المهدد المتوعد :

— ماذا أفعل بك .. هل أخنقك أم أو ..

وصرخت أخته :

- لا تعذبني .. قل ماذا حدث .. ثم افعل بي ما بدا لك .. اقتلني أو اذبحني .. اقدف بي من هذه النافذة .. ولكن أخبرني .. كيف رأيتها ؟ كيف سسارت الامور ؟ كيف .. كيف ..
وانفجر الفارس ضاحكا :

- كفى .. كفى .. لقد أصبحت أخاف الآن .. ان تتوقف هذه المحاولة .. انها أجمل وأبهى وأعذب امرأة في الوجود .. ان صوتها أحلى من الغناء .. ان ما تفكر فيه ، وما تقوله وما عمله ، شيء فوق طاقة الالفاظ وصفه ..

وقفزت الفتاة مرة أخرى الى عنق أخيها ، فتعلقت به ، وأخذت تقبله ، وهي تصرخ صرخات الفرح والسرور ثم سألته : « وموعداً غداً ؟ » فأنزلها الى الأرض وأجلسها على مقعد ، ثم راح يذرع الحجرة جيئة وذهاباً وطرقاً ثم قال :

- اسمعي يا أختي .. اسمعيني بلا مقاطعة ولا احتجاج ، ولا صراخ صبياني .. هذه هي أول وآخر مرة لي ..

وصاحت الفتاة في فزع حقيقى :

- ماذا تقول .. آخر مرة ! ..

فقال لها في هدوء :

- لست كارها لهذه المحاولة .. ولكنى خجل من نفسى .. اننى أحببت الاميرة .. أحببتها ، ويزداد حبى لها .. ولذلك ليس فى وسعنى أن أستمر فى الكذب عليها .. أن مجرد اقترابها منى ، أن لمسها ليدى ، يهزنى من الرأس الى القدم

وفى اليوم الثانى ، أخذت الفتاة تراقب أخاها الفارس

فأرت - وهى تكاد تطير من السعادة - انه يلبس احسن ثيابه ، وانه يطيل الوقوف أمام المراة .. فلمسا هم بالخروج ، انفجرت ضاحكة فلما سألها - غاضبا - لماذا تضحك .. أجابته بقفزة من قفزاتها المعهودة الى عنقه ، وهى تقول :

- لانى أعلم انك ذاهب الى الاميرة ..

ومرت الايام ، والاميرة والفارس يتقابلان كما كانت تتقابل مع أخته ، وهو يزداد حبا لها ، وخوفا من أن يفقد هذا الحب لو كشفت لنفسها الحقيقة ، وفى بعض الأحيان ، كان يمنى نفسه ، بأن تكون قد عرفت حقيقته ، وانها تخفى ما عرفت

ثم بدا على الاميرة - بعد ذلك - شىء من الحيرة ، كأنما كانت تسائل نفسها عن أمر .. وفى أصيل أحد الايام كانت الاميرة والفارس ، يسيران منفردين فى إحدى طرقات حديقة القصر الفسيحة ، وكانت طريقا تحفه الزهور من جانبيه ، وتظله أشجار منسقة .. وكأنها تود أن تخفيه عن العيون ، فوقفت الاميرة فجأة وقالت :
- « اسمعى ! » وبهت الفارس ، وخشى أن يسمع حكما يحطم سعادته ، ويحيله أنقاصا ، فقال وقد أصفر وجهه :

- « نعم ! »

فقالت الاميرة وهى تسير مطرقة فى خطى بطيئة مترددة كأنها تتحسس طريقها :

- انى أسائل نفسى كثيرا .. هل طرا عليك تغيرا .. انك أنت ولست أنت .. هل حدث منى ما أبعدك عنى .. اننى فى بعض الأحيان أتحاشى الانفراد بك ، لانى لا أحس أنك أنت كما كنت .. أكون صحيحا ما أقرؤه فى شعر الشعراء وقصص القصاصيين ، من ان كل عاطفة

ان لم تجد ما يغذيها ، خمدت ..
ووقفت الاميرة ، وقد اغرورقت عينها بالدموع
واستحالت الى تمثال من الاسي :
- أنت تعرفين اننى وحيدة .. وحيدة وسط كل
هذه الضوضاء ..

وبدل ان تكمل حديثها ، جرت الى داخل القصر ..
والفارس فى مكانه ، وكأن قدميه قد سمرت فى الارض ،
ولم ير ان يلحق بها .. فقد حانت الساعة التى يجب
ان يواجه معها الحقيقة .. فأخذ يجر رجله جراً الى
خارج القصر



ولما خرج الى الساحة المواجهة للقصر .. هاله انه
راى جموعاً ضخمة ، تتدفق اليها .. جموعاً هائلة
يتراعى صوتها الى اذنيه ، فسمع غضباً يندب بشر
مستطير ، وامتلاء الميدان شيئاً فشيئاً بالجماهير الزاحفة
ففكر فى الحال فى الاميرة ، وأشفق أن يصيبها من هذه
الجموع سوء ، فاندفع الى جناحها ، مقتحماً الابواب
دافعاً أمامه كل من رآه .. حتى وجد الاميرة فى حجرتها ،
لا يبدو عليها شئ من الاضطراب ، فاتجه نحوها وهو
يلهث ، وقال :

- ماذا تنتظرين هنا ؟ .. أنتظرين أن يقتحموا القصر
عليك .. وأن تمتد أيديهم بالسوء اليك ..
ومد يده يود أن ينتزعها من مكانها وهو يقول :
- تعالى معى .. من الابواب الخلفية يمكن أن ننجو
وابتسمت الاميرة ابتسامة هادئة ، وهى تقول :
- رويدك أيها الفارس ! لقد كشفت نفسك من فرط
اضطرابك .. لم أكن أنتظر أن يأتينى الرد على سؤالى
هكذا سريعاً ..

وعاد الفارس الى صوابه ، ولكنه رأى فى الوقت نفسه ، عبر شرفة حجرة الاميرة ، الجموع ، وقد كادت تحرق بالقصر ، وتبين من موضعه هذا ، أعلاما عالية ترفرف ، كما تبين من الهتافات الهادرة ، الهتاف بسقوط الملك ، ورئيس وزرائه ، وأعداء الوطن .. فامتقع وجهه لحظة ، ثم عاد الى الاميرة فأحاطها بذراعه ، وأخذ يدفعها دفعا ، ولكنها استطاعت أن تتخلص منه ، وأن تقف بعيدا عنه ، وقد أحاطت بها وصيفاتها ، وصديقاتها .. كما أسرع الى جناحها عدد من الرجال فى مقدمتهم رجال الحرس ، الذين كانوا يحملون فى أيديهم سيوفاً مشهرة ..

اكتسى وجه الاميرة بجد صارم ، ورفعت رأسها فى ترفع لم يرها عليه الفارس من قبل ، ثم وجهت الحديث فى صوت أمر وقالت :

— اياك أن تمد يدك نحوى .. اننى لا أخاف هذه الجموع .. ليس عندى ما يخيفنى منها .. قد تخافونها أنتم .. أما أنا فلا .. أنا منها !

وساد صوتها المكان ، فأذعن كل من فيه ، وكأن كل هذه الجموع ، بكل ما يحويه زحفها من خطر ، قد زالت من الوجود ، ولم يعد باقيا ، فى هذه اللحظة ، الا « فداء » بكل شجاعته وثباتها . وانتقلت هذه الشجاعة بطريق العدوى الى جميع الحاضرين بما فيهم الفارس .. فذهب عنهم ما كان قد تولاهم من جزع ، ولما أمرتهم أن يفتحوا باب الشرفة ، أسرعوا الى تلبية أمرها ، ثم تقدمتهم الى الشرفة ، ولوحت بمنديل صغير فى يدها ، للجموع التى اختنق بها الميدان ، حتى فاض بمن فيه ، فتعلق الكثيرون بأغصان الاشجار وأسوار القصر وفوق أسطح المنازل المواجهة والمجاورة .. أما ضجيجهم فقد كان أعلى من

أمواج البحر ، فلما رأت الجموع الاميرة ثم رأت تلويحها
بمندیها ، الذى أصبح عند الشعب بمثابة علم الثورة
انطلقت من الحناجر ، صيحات أعنف دويا ، من طلقات
المدافع ، اهتزت لها أركان القصر ، ولكنها لم تلبث
حتى خفتت ، وساد المكان من جديد صمت عميق
رهيب رن فيه صوت « فداء » وهى تقول :

— ليحى الشعب !

وردد الشعب وراءها الهتاف .. ولم يكن الموقف
ليتسع لأكثر من ذلك ، فقد تدفقت الجموع الى أبواب
القصر فاكسحتها ، والى حراس الملك فأزالتهم .. ولكن
مدفعا من داخل القصر انطلق فتراجع الزاحفون لبعض
الوقت ، ولكنهم لم يلبثوا حتى رأوا اخوانا لهم سقطوا
قتلى وجرحى ، فهاج هائجهم ، وزألوا زئيرا مخيفا ،
واندفعوا كالأمواج المتلاطمة ..

أما « فداء » فقد أسرع ، وخلفها صديقاتها ..
ومن خلف الجميع الفارس الذى خطف من أحد الحراس
سيفا ، واتجهوا جميعا الى مقر قائد الحرس ، وفى
عزمها أن تأمره أن يكف عن إطلاق مدافع ، وقبل أن تخطو
خطوتين ، رأت نفسها وسط جماعة من الشائرين ، لم
يتبينوا شخصيتها وظنوا أنها إحدى سيدات القصر ،
فانهلن عليه ضربا ، وركلا ، والفارس يقاتل بسيفه عبثا



وبعد ساعات طويلة ، أفاقت « فداء » فرأت نفسها
فى غير حجرتها ، ورأت الفارس فى حديثه ، غير ملتفت
إلى يده التى شددت الى عنقه برباط ، والى جانبه أخته ،
وقد خلعت عنها ثياب الرجال .. وسألت الاميرة :

— ماذا حدث ؟ .. وأين أبى ؟ ..

ولم تكذ تسمع الرد ، حتى هبت واقفة فقد رد عليها
الفارس بقوله :

— لقد نادى بك الشعب ملكة !

وصاحت الاميرة :

— وأبى ؟

فأطرق الفارس ، ثم قال :

— لقد أنفذ الشعب حكمه فيه ..

وصرخت :

— ماذا تقول ؟

واسترسس الفارس في حديثه ، غير ملتفت الى
صراخها :

— وقد أهدى اليك الشعب تعبيرا عن عزائه لك ..
هذا الثوب

وعقدت « فداء » ما بين حاجبيها ، وهي تنظر الى
الثوب ، فقد كان الثوب ، ثوب « عادل بن كريم » الذي
صعد به الى المشنقة .. ومدت يدها نحوه ، ثم ضمته
الى صدرها ، وانحدرت الدموع من عينيها فقال لها
الفارس :

— ان الشعب يريد ان يراك في هذا الثوب ..

ففصت بدموعها ، ثم قالت :

— خير للشعب ان تحكمه نائبة في ثوب ملكة من ان
تحكمه ملكة في ثوب نائبة

واقتربت أخت الفارس منها قائلة :

— ألا تعلنى للشعب بشرى ! ؟

فأومأت « فداء » برأسها قائلة :

— اعلنوا لبنات الشعب انهن قادرات منذ الآن على

أن يتزوجن متى شئن ، وممن شئن ..

فقال لها الفارس :
- والملكة نفسها ؟ ..
فأشرقت في عينيها ابتسامة ، وقد عادت تضم الثوب
الى صدرها وهي تقول :
- لقد تزوجت منذ سنين .. تزوجت .. واليوم
فقط أعلن زواجى !
ويقول بعض الذين ينبشون في أوراق التاريخ اللدابة
ان لهذه الاسطورة أصلا ، أما أنا فلا أعرف نصيب
ما يقولون من الصدق ..



فن الطفولة



لا أستطيع أن أؤكد لك أن هذه الصور التي سأرويها هي صور من طفولتي ، أو صور لطفولتي ، ولا أستطيع في الوقت نفسه أن أنفي أن هذه السطور ، تعكس جانبا من حياتي في أوائل مطالعها ..

ذلك لان طفولة كل منا ، هي أشبه الاشياء بالاحلام .. وأنت حين تستيقظ تمسح بيدك فوق جبهتك ، ثم فوق وجهك كله ، ثم تشرد قليلا وتحقق في لا شيء ، ثم تهز رأسك وكأنك تقول لنفسك :
- لست أدري ؟ ..

وأنت تفعل هذا كله ، لان حطما من الاحلام ، يحاول أن يفر من ذاكرتك ، فهو يبدو لك قريبا غاية القرب ، حتى كأنك ستمسكه بيدك .. ثم يختفي في الحال ، كأنه لم يلح لك ، ولم يقترب منك ، ولم يدر لك على بال .. وقبل أن يختفي ، يظهر على لوحة العقل مبعثرا ، أشبه شيء بقطعة من الخزف سقطت الى الارض ، فتفتتت أجزاء وأشلاء ..

فأنت ترى منها هذه الاشياء المتناثرة التي لا تدل حتى على الاصل الذي كانه منذ حين ، فتعجز عن تبين ما اذا كانت انا ، او طبقا ، او تمثالا لرجل ، او تمثالا لامرأة .. ومع ذلك فان بعض الاحلام تبقى في ذاكرتنا واضحة متصلة بعضها ببعض اتصالا معقولا ، وفي هذه الحالة تربكنا وتوقعنا في حيرة شديدة .. فانها لفرط وضوحها تختلط بحياتنا الحقيقية ، وتتداخل فيما وقع لنا من أحداث وأمور ، حتى يصبح من العسير علينا أن نفرق

بين ما هو حقيقة ، وبين ما هو حلم ..
وهذا كله ، يجرى على ذكريات طفولتنا ..

فمن صور الطفولة ، ما يبدو لنا محوطا بسحاب
كثيف ، وما يطل علينا من خلال ضباب حالك ، ومنها
ما يبدو لنا كتمثال فينوس ، جميلا غاية الجمال ، ولكنه
ناقص .. قد يعوزه الرأس ، أو الذراع أو الذراعان ،
أو الساق أو الساقان .. وقد نستعيد بعض الذكريات
ونحسب انها صور حياتنا التي عشناها ، ونحن لاندرى
انها صور حياة نتمنى في أعماق قلوبنا أن نعيشها ،
ولكننا لم نظفر أبدا بتحقيق هذه الامنية .. فتحايل
عقلنا الواعي ، مع عقلنا الساهي ، وتآمرا على التاريخ ،
فخطا ما وقع فعلا ، بما تمنينا أن يقع ، وقدما لنا
تاريخا مشوها لطفولتنا ، ولكنه أشهى مذاقا ، واجمل
طعما من التاريخ الصحيح ..

وفي ذكريات طفولتنا شيء يلفت النظر ويشير الدهشة
.. فأنت تذكر أشياء في طفولتك ، موهلة في القدم ،
أشياء وقعت لك وأنت في السنين الاولى من حياتك ،
مع أن ما بعدها ، وهو أحق بالتذكر ، غائب تماما عن
ذاكرتك ، دون سبب مفهوم ، ولا مبرر معقول ، الا ان
يكون عقلنا رحيمًا بنا ، ينسينا أمورًا لو بقينا نذكرها
لأصبحت الحياة عبثًا ثقيلا .. ويذكرنا بأمور تافهة ،
ليحجب بها عنا أمورًا ينقصنا أن تبقى عالقة بالذاكرة .
فأنا اذ أحاول أن أقدم صورة من طفولتي ، أراني أقدم
صورة لطفولة كثيرين غيري ، تتداخل على الرغم مني ،
بعضها في بعض ، ويتم هذا التداخل تارة بعلمي وموافقتي ،
ويتيم تارة أخرى وأنا لا أشعر ولا أدري .. كما يحدث
التداخل بين أحلام اليقظة وأحلام النوم ، فانها تتعاون
سويا لتخلق للاحياء عالما يحبون أن يعيشوا فيه ، أو

يستطيعون على الأقل أن يحتملوه ، بدلا من عالم الحقيقة
الذى يطارد الامل ، ويسد في الوجه منافذ الهرب ..
ولست أستطيع أن أدعى اننى أجد فى كتابة هذه
السطور ، وفى تسجيل هذه الصور ، عناء .. فما من
مرة حاولت أن أؤرخ لطفولتى حتى قفزت على السطح ،
ثلاث صور لست أدري لماذا تريد وحدها دون غيرها ،
أن تقدم نفسها لقلمى .. وهانذا أمد يدي لاضعها على
سطح هذه الصور ، بلا تكلف .. نعم بلا تكلف ..
فالحديث عن الذكريات ، وذكريات الطفولة خصوصا ،
يجب أن يأتى عفويا ، لا نتأنق فيه ، ولا نرتبه ، ولا نحاول
أن نسلط عليه حكم العقل .. والا ضاعت من هذه
الذكريات نكهتها ورائحتها ، أو بساطتها ، وشبهها
بالاحلام ، وخروجها من المختزن المدخر فى العقل الماكر
المدير ، الذى يسمونه ظلما وعدوانا بالعقل الباطن ،
والذى أسميه أنا العقل الساهى ، عملا بالمأثور من أقوال
عامتنا :

— ان تحت الساهى الدواهى .. !



جدتى فى النافذة الجانبية لحجرة من منزل شسيد
حديثا .. فاستأجره خالى ، لبدأ فيه حياته الزوجية
.. فهو بيت جديد ، يستقبل حياة جديدة ، ومع ذلك
كان أهم من فيه ، انسان قديم جدا ، هو جدتى ..
وكانت جدتى قد نيفت على الستين ، ومع ذلك كانت
بالنسبة لى ولاخواتى مخلوقا قريبا منا ، شبيها بنا ،
تلعب معه ، ويلعب معنا ، ولا نخجل منه ، ولا نخافه ،
ولا نجد صعوبة فى التحدث اليه ، ولا فى الاستماع الى
كلامه . كان كل من فى المنزل كبيرا بالنسبة لنا ..

المقاعد عالية ، والمعالق كبيرة ، والاحاديث التي تدور
صعبة ، ومداعبة الكبار لنا شيء من قبيل جبر الخاطر ،
والاهتمام بنا ، عملية ارضاء ضمير ، أو للقيام بواجب ..
أما نحن عند جدتي ، فشيء أصيل ، فجدتي موهوبة
منحها الله معرفة لغة الحيوان ، ولغة الاطفال ، ولغة
الجماد أيضا ، فهي تكلم القط (أصلان) كلما طويلا ،
ينصت له القط ويستمتع به ، وينصت له الحمام ،
ويفرح فيطير هنا وهناك ويرفرف بأجنحته ، ويعلو
ويهبسط .. تنصت له كذلك كل ادوات المنزل التي
تستعملها جدتي من سجادة صلاة- ، وسبحة ، وحزام
للوسط ، تصنعه من ربطات الرقبة الحريرية ..

فنحن اذا تكلمنا مع جدتي ، نترك أنفسنا على سجيتهما
.. نقول الكلام ، ونحن نعدو ، ونحن نقضم لقمة من
رغيف ، أو نحن نتلقى صفة على الوجه من الوالدة ،
أو ركلة من الاخت الكبرى .. فجدتي منا ، جزء من
نفوسنا ، والانسان لا يكف عن الحديث مع نفسه ، في
الشدة والرخاء ، وفي الحركة والسكون ، وفي العزلة ومع
الجماعة ، بل لا يكف عن الحديث مع نفسه ، وهو يحدث
الناس ..

وعلى الرغم من أن جدتي كانت في حياتي شخصا
هاما ، الا انني عجزت عن ان اعثر لها في ذكرياتي عن
ذكرى أبعد من ذكرى ذلك اليوم الذي رأيته فيه مظلة
من نافذة جانبية في حجرة بالدور الاول من المنزل الذي
كان خالي يستأجره ، والذي كان مكونا من ثلاثة أدوار
كاملة ..

ولا تزال صورتها في ذلك اليوم حية نابضة كأنما
أراها ، وأنا أكتب هذه السطور .. ها هي آي أممي

بحاجبيها الغزيين وعينيها السوداوين ووجهها الذي كنت أحبه أيام طفولتي وصباي ، والذي لا أستطيع أن أصفه لك اليوم لأنني ألفت في طفولتي أن أحبه دون أن أبحث عن سر خبي له ، ودون أن أعرف ما نصيبه من الجمال أو الدمامة ، بل دون أن أتأمل قسماته وتقاطيعه انها تنظر من النافذة فلا يبدو على وجهها انفعال ، ثم لا تلبث حتى تجزع جزعا شديدا ، فتشير يديها اشارات متلاحقة ، تنطوي على العتاب والتأنيب والرجاء والتوسل . . فلما لم تنفعها اشاراتها ولا توسلاتها ، رفعت عينيها الواسعتين السوداوين ، الى السماء ، فارتفعت أهدابها الطويلة الفاحمة ، وكأنما هي أيد مرفوعة كذلك الى السماء ، متوسلة مستعطفه ، وقد كنت أنا المسئول عما انتابها في ذلك اليوم من جزع ، وعما غرقت فيه من توسل وابتهاال . فقد عقدت مع نفر من زملائي وابناء حارتي ممن كانوا في مثل سنني ، مع عدد ممن كانوا يكبروننا حلبة للملاكمة . وقد طاب لنا ان تكون هذه الحلبة تحت نوافذ المنزل الذي كان يسكنه خالي ، ولم يكن في هذه الحلبة شيء مما يوجد في حلبات الملاكمة الجدية . . فلم يكن لدينا مثلا ما نعد به منصة خشبية عالية ، ولا أن نشترى حبالا تحيط الحلبة ، ولكن كان لدينا زوج واحد من قفازات جلدية سميكة لا أدرى حتى الآن كيف أحضرها لنا الزميل الذي ألهمنا بهديته هذه فكرة انشاء حلبة ملاكمة ، ثم فكرة تحويلنا الى ملاكمين فقد كنا قبل دخول هذه القفازات محيط حياتنا نلعب الكرة ، ونلعب « البلي » ، ونلعب ألعابا أخرى كثيرة ، وكنا فوق ذلك نتصارع ونتضارب ويؤذى بعضنا بعضا اذاء شديدا ، ولكننا لم نعرف هذه الملاكمة ، بقفازاتها الغليظة . .

ولكن هذه القفزات كانت كافية لان توحى لنا بأن نتعلم هذه الملاكمة ، وبأن نتدرب عليها فى الشوارع والازقة ، ومن حولنا أطفال أصغر منا سنا ، وأرق منا حالا ينظرون الينا ، بأفواه فاعرة ، وعيون مشدوهة ، وكأننا نحن مخلوقات تنتسب الى عالم مسحور ..

وكانت جدتى تسمع عن هذه الملاكمة منى ، فلا توافق على اشتراكى فيها ، ولا تعارض لأنها لم تستطع أن تتصور ماذا تكون ، حتى كان ذلك الاصيل ، الذى فتحت فيه النافذة وأطلت ، فرأت هذا الذى قذف الى قلبها ، خوفا شديدا .. فقد رأتنى أحمل شيئا فى إحدى يدي لم تعرف له شكلا ، وبالتالى لم تعرف له أسماء ، شيئا مكورا ، أشبه بالكرة لكنه ليس كرة ، ثم رأتنى أقفز فى الهواء قفزات قصيرة لسبب غير مفهوم ، وفى الحال ظهر فى المكان صبى أكبر منى سنا ، وأطول منى عودا ، وأقوى منى جسما .. وكان يحمل فى إحدى يديه كرة كهذه الكرة التى كنت أحملها فى يدي ، ثم وقف منى موقفا قريبا .. فقد مد يديه أمام وجهه ، وفى أحدهما هذه الكرة الغريبة ، ثم لم ألبث أنا حتى فعلت مثله ، ورحت أقفز ثم بدأ هذا الصبى يقفز مثلى .. لماذا هذا القفز ؟ لم تستطع جدتى أن تفهم ، ولكنها نسيت كل شيء حينما رأت هذا الصبى القوى الطويل يقترب منى فى خطى ثابتة ، ثم يكيل لى الضربات بهذه الكرة الغريبة فوق وجهى وأنا أهتز لهذه الضربات اهتزازا عنيفا .. أكاد أقع ولكن لا أقع فعلا .. ويكاد هذا المقاتل يقتلعنى اقتلاعا ، ولكن لا يفعل .. وأنا أبعد عنه ، ثم أقترب منه ، ممنيا النفس أن أوجه اليه ضربة ، لقاء هذه الضربات العنيفة المتوالية التى تنهال على وجهى وصدرى وتنهمر انهمارا ..

وقد كان ممكنا أن يطول هذا الموقف ويثقل على جدتي وأعصابها لولا أنه انتهى لسبب أضحك الاطفال الذين تحلقوا حولنا ، ولكن جدتي لم تلاحظه ، ولو لحظته لما أضحكها ، لأنها لم تكن تفهم من هذا الذى كان يجرى أمام عينيها شيئاً ..

انتهى هذا المشهد العنيف ، لان الصبى الذى كان يقاتلنى ، لم يحكم رباط القفاز على يده فقد كان يتعجل القتال معى ، فلما توالى ضربه لى ، انحل الرباط وطار القفاز فى الهواء ، وانفجر الاطفال فى الضحك .. وأسرع واحد منهم ، فركل القفاز بقدمه ، وتنافس بقية الاطفال فى ركله كالكرة ، وجروا خلفه ، وانفض المتفرجون على الملاكمة ، وقفازى فى يدي لا أدري ماذا أفعل به ، بل ماذا أفعل بنفسى .. فان الملاكمة انتهت الى غيرنتيجة . لم أغلب زميلى ، ولم يغلبنى هو ، وان كنت بدأت أحس بالآلام فى صدرى ، وتحت فكى ، وفى جوانب أخرى من جسمى .. ولكن هذه النهاية المبتسرة السابقة لاوانها كانت أشد على نفسى من وقع هذه الضربات .. أين أذهب ؟ وهل سيبقى القفاز فى يدي الى الابد ؟ أم أخلعه .. فاذا كان خلعه محتوما ، فهل أخلعه أمام الاطفال ، أم أذهب الى بيت خالى وأحل رباطه حيث لا يقع على نظر انسان ولا يعرف مكانى احد !

هذه الحيرة بكل آلامها ، لا تزال حية فى نفسى حتى اليوم ، وان كنت لا أدري الآن سببها ، ولا شدة لدعها لنفس طفل صغير جدا . وفى تلك اللحظة رفعت عينى عفوا الى النافذة فرأيت جدتي .. رأيتها تشير الى يديها اشارات معناها « لماذا تفعل هذا ؟ أليس هذا كافيا ؟ حسبك ، واصعد ؟ .. »

وأحسست بالدم يغلى فى رأسى ، وأحسست بوجنتى
تشتعلان اشتعالا ، فان جدتى رأتنى وأنا أضرب،بعبارة
أرق رأتنى وأنا فى حلبة الملاكمة ، وليس فى هذا من بأس
ولسكنها لم ترنى أنا وحسب ، بل تدخلت - وان كانت
بعيدة عنا - تدخلت أمام بقية الاطفال فى هذه الملاكمة ،
باشارات يديها ، ونظرات عينيها وابتهاالاتها الى الله ،
ونظرها الى السماء .. فىا للعار !

نعم انه العار كله أن تبدى سيدة من أهل بيتى جزعها
على ، هكذا علنا .. والعار كله ان تقحم سيدة نفسها ،
ولو بالاشارات والنظرات الى السماء ، فى عمل من أعمال
الرجال ..

وأحسست بكرامة جريحة تنزف دما ، فتضاعف
شعورى بالالم من الضربات التى كالتها لى صديقى
ومنازلى ، بل أحسست بالالم فى مواضع جديدة لم يطلها
القفاز ، ونظرات الى يدي والقفاز يقيدها ، فشعرت
أن العار الذى لحق بى ، قد تجمد فى هذا القفاز الذى
أنظر اليه وأنا لا أدرى كيف أحله ، مع أن حله ليس
بالشئء الصعب ، خصوصا اذا قورن بربطه واحكام قيده
على معصمى . ونظرت الى الحارة التى كنا نتبارى على
رقعة مربعة منها ، حددناها بخطوط رسمناها بالطباشير
الابيض ، فاذا هى خلت من كل الاطفال والصبيان جميعا .
وقد كانت مثل هذه الوحدة جديرة بأن تخفف عن نفسى
شعورها بالالم ، ولسكنها على النقيض، زادتنى احساسا
بأنى متروك، وانى وحدى لأجد من يؤنسنى .. وترددت
فى حل رباط القفاز ، كأنما استعذب الالم الذى يسببه
لى ، فقد كان بودى أن أعاقب نفسى على الخطأ الذى وقع
من جدتى ، ولمعت فى رأسى فى هذه اللحظة فكرة فكانت
بمثابة الشرارة التى تضىء فى الظلام .. « لماذا لا أصعد

الى السطح ، وفي جانب منه ، الى جوار حظيرة الدجاج ،
وأبراج الحمام ، سأنزوى في ركن ، والظلام بدأ يرخى
سدوله ، وسيبحث الكل عني ، وفي مقدمتهم جميعا
جدتى فلن يجدوا لى مكانا . . وستتصور جدتى انى
أتألم ، بل قد تتخيل انى مت . . واسترحت كثيرا عندما
تصورت الكل يبحثون هنا وهناك ، دون أن يعثروا لى
على أثر . ورأيت على الوجوه علامات الفزع ، وآيات
الخوف ، ورأيت بصورة خاصة جدتى جالسة على
سجاداتها ، وفي يدها مسبحتها ، والى جوارها قطتها ،
ولكنها لا تصلى ، لأنها لا تستطيع أن تصلى ، بل انها
تجلس على السجادة اعياء وعجزا عن الحركة . . حتى
ابتهاها الى الله ، وتوسطها اليه ليعيدنى حيا ، ستعجز
عنه !

ولست أستطيع أن أصف لك سرورى المزوج بالحزن،
المختلط بالشعور بالعار ، وأنا أتصور أن جدتى ستعجز
عن التوصل الى الله ، فان توصلاتها هذه هى التى أفرقتنى
في هذا البحر الطامى من الشعور بالخزى ، والتى أججت
فى نفسى الرغبة فى ان اختفى . وعندما اكتملت ارادتى ،
وصح عزمى ، وزايلنى التردد ، ضاع نصف احساسى
بالآلم ، بل تبخر هذا الاحساس كله ، بمجرد ان خطوت
باب الدار ، وصعدت درجات السلم الواسعة الجميلة . .
ما أسرع تقلات النفس ، خصوصا النفس الصغيرة . .
فقد بدأت أصعد السلالم ، وأنا أتحمس «درايزينها»
الجديد ، وأملأ أنفى من رائحة الطلاء الجديد الذى كان
يلمع فوق الجزء الخشبي من « الدرايزين » الحديدى .
ومن حيث لا أدري أخذت أعد درجات السلم . . وأحد . .
اثنين . . ثلاثة !

ثم تحول هذا العد الى ما يشبه النشيد ، فلما وصلت

الى السطح كنت انسانا آخر ، يختلف عن الانسان الصغير
الذى كان فى الحارة ، وفى يده القفاز ، كأنه قيد حديدى
.. فان منظر القلعة الذى كان ممكنا أن نراه من هذا
السطح ومن خلفها تلال المقطم ، ومنظر الشمس وهى
توشك أن تغرب ، غيرت حال نفسى تماما ، فبدل ان انزوى
فى ركن حتى يتأخر الليل ، فيبحث أهلى عنى ، نظرت
الى حظيرة الدجاج ، ثم أخذت أتابع الحمام فى طيرانه ،
وأعاكسه ، وأقذفه بحصا صغير ، واستغرقت فى هذا
العبث استغراقا كاملا ..

وبعد وقت لست أدري كم كان طوله ، سمعت وقع
أقدام خلفى .. وقع أقدام الفتى وأحبته ، فتلفت
حولى ، فاذا بى أنا وجهها لوجه مع جدتى ..
لم أكد أراها ، حتى عاودنى فى الحال الاحساس الذى
غمرنى حينما انتهت الملائكة ، وحينما رايتها فى النافذة
تطل على ، وتبتهل الى الله وتتوسل .. وخيل الى أنها
تريد ان تضمنى الى صدرها وان تطمئن الى انه لم
يلحقنى سوء . ولاول مرة ، احسست بان هذا المخلوق
العزیز بعيد غاية البعد منى ، ووددت أن أفر منه فرارا
.. واقتربت من جدتى ، وعلى وجهها ما لا أستطيع أن
أصفه ، ولكنها أدركت فى الحال اننى أبتعد عنها ، وكأنها
لم تكن تتوقع أن شيئا من هذا يمكن أن يقع ، وان ما
بيننا أقوى من أن يتأثر بخطأ ارتكبه أنا أو خطأ ترتكبه
هى .. فاستولى عليها وجوم شديد ، ووقفت فى مكانها
وفى عينيها ألم عميق ، وكان كل وجودها يتساءل ويردد
الكلمة العامية : « كده ؟ » .. نعم تحولت من منبت
شعرها الى اخمص قدمها الى تساؤل فقط ، خال من
العتاب ..

ونظرت الى عينيها السوداوين ، وخيل الى انهما
اختفيتا في فتحتين عميقتين غائرتين ، وانهما استحالتا
الى ما يشبه الزجاج الجامد ..

ووقفت أمامها ، والقفاز لا يزال في يدي ، وكأنه أثر
الجريمة التي ارتكبتها يأبى أن ينحل عني ، ولا أن يدعني .
وفي هذه اللحظة الصامتة ، كان السكون يحتوى السكون
كله .. فقد كانت ساعة الغروب ، فلاح في الافق بعض
الغربان وهي عائدة الى أعشاشها في بطء ، تبسسط
أجنحتها ، ولا ترفرف بها ، فتبدو في السماء نقطا سوداء
موحشة .. وفي نفس الوقت كان الدجاج يقترب بعضه
من بعض مرددا أصواتا خافتة ضعيفة ، تعرف منها اذن
الانسان ، انها أصوات تعلن نهاية يوم ، وتستقبل الظلام
الموحش الذي يحمل مع ذلك أسباب الراحة ودواعيها
لا أستطيع أن أدعى الآن ، أن هذا الجو كله ، قد
ضاعف احساسى بالوحشة والوجوم ، وبما تصورته من
حزن جدتي وألمها الشديد .. ولكن الذى أذكره جيدا
ان جدتى دارت على عقبيها دون كلمة واحدة ، كأنما
وجدت أن أى كلام يقال ، بعد الذى حدث منى ، يعتبر
لغوا يفسد الموقف ، ولا يتفق مع جلاله ..

ولكن ماذا حدث منى؟ لقد راجعت نفسى ، فوجدتنى
لم أقل شيئا ..

نعم ، أنا لم أنطق حرفا واحدا ، فما الذى أغضب
جدتى أو أحزنها ، فقد تحركت خطوة الى الوراء ، بل
بعض خطوة .. هذا كل ما فعلته ، ولكن هذه الحركة
الخفيفة ، كان لها في نفس جدتى كل هذا الاثر ..

وشعرت فجأة بندم .. شعرت به ، يفمرنى كأنما هو
فيض من الدم الاحمر القانى ، ينبثق فجأة في تدافع

شديد ، كتدافع الماء من نافورة .. ولكنى لم أستطع
أن أتحرك ، جمدت فى مكانى ، دقائق ، لا أذكر الآن ،
شعورى خلالها ، ولكنى اندفعت بعدها أقفز وأثب على
باب الدور الذى كانت تشغله جدتى ، وانطلقت أبحث
عنها فى كل مكان ، ولمحتها فى حجرتها جالسة ، على
سجادتها ، وفى يدها مسبحتها ، وعلى مقربة منها قطتها
.. الجميع أحاطوا بها وكأنما أحسوا أنها فقدت صديقا
من أصدقائها ، فقرروا أن يؤنسوا وحشتها وأن يخففوا
كربتها ..

وبعد وقت لم أحس بمروره ، رأيت نفسى نائما فى
فراشى ، والى جانبي « أصلان » قطة جدتى ، مستغرقا
فى نوم عميق ، ومن الناحية الأخرى ، قفاز الملاكمة ..



الجنة



كان « عزى شفتى » مشهورا بين أهل بلدته - وهى قرية من قرى الوجه البحرى - باسم « الخباش » ..
والذين يحبون أن يتظاهروا بالعلم من جهة ، ويميلون الى انتقاص اقدار الناس من جهة أخرى ، يؤكدون أن « الخباش » ، هو اسم الجد الأعلى لعزى شفتى ، وأن اصل الاسم « الخباص » وهى كلمة معروفة المعنى ..
ولكن حدث أن أصاب أحد أحفاد « الخباش » غنى مكنه من أن يكون عمدة ، وأن يصاهر عمدا آخرين ، وأن يذهب الى عاصمة المديرية فى عربة فاخرة يجرها جوادان من أصل عربى عريق ، فتحولت كلمة « خباص » الى « خباش » وخرج أهل العلم والمؤرخون ، الذين يلد لهم أن يكونوا فى ركاب أصحاب الغنى وذوى النفوذ ، وأعلنوا أن كلمة « خباش » كلمة تركية معناها « ذو المهابة والاحترام » . ومع مرور الايام اختفى اللقب ، بأصله وبالتحريف الذى دخل عليه .. ولم يعد أحد يذكره أو ينطق به ، الا اذا احتاج الى أن يكشف عن علمه الغزير بالانساب وأصول العائلات أو اذا وقع بينه وبين أحد من عائلة « الخباص » نزاع . وقد كان اسم « شفتى » لغرابته كفيلا بأن يخفى وراءه هذا اللقب الكريه . وكان أهل القرية لوداعتهم ، وطيبة قلوبهم ، ولانشغالهم الابدى بفقرهم ، وكساد محاصيلهم ، وكثرة ديونهم ، أميل الى التفكير فيما هو أجدى وأنفع لهم ..

الا ان « عزي » آخر أحفاد « شفتري » الكبير ، أو « الخباش » الأعلى جدد تاريخ العسائلة كلها ، لزاياه العديدة التي تمتعت بها شخصيته الفريضة . . فـ « شفتري » كان شابا أبيض الوجه ، مشربا بحمرة تضيء على طلعته جمالا تزيده عيناه الملونتان ، وشعر أصفر ناعم غزير ، وهي سمات تؤكد كلها بأن دما أجنبيا خالط دمه النقي . ولم تكن في هذا الامر غرابة ، فان الأغنياء من أهل الريف ، درجوا على أن يتزوجوا الاجنبيات اذا أعطاهم الله المال ، ووسع عليهم في المكانة . .

ولم يكد « عزي » يشب عن الطوق ، حتى ذاعت له شهرة بعسادة . . كان يضرب زملاءه ويخطف ما في أيديهم ، ويقهرهم على أن يتبعوه فيما يدفعهم اليه طبعه الفوار المتقد . وكان لا يكف عن العبث والإيذاء ، فهو في الليل يخيف النساء بما يلبسه من ملائات بيضاء يخرج بها في الظلام ، مغيرا في صوته ، مسميا نفسه بأسماء العفاريت والجن ، وهو في النهار يسرق أحذية المصلين ، حيث يتركونها على أبواب الجوامع ، وأشياء أخرى لا يحيط بها حصر ، ولما تقدم في السن وأصبح شابا ، زادت شروره فقد أصبح جماله خطرا داهما للعذارى والزوجات معا ، وخوفا مقيما يساور الرجال والشبان على السواء . ولم يكن « شفتري » يعرف الخوف ، فهو لا يخشى أحدا ، ولا يحسب حسابا لكبير ، أو يرتدع من قانون ، أو ينزعج لتهديد . . وكان يحسن ركوب الخيل ، واطلاق البندقية ، ويسابق الشبان في « البرجاس » ويغلبهم . وكان يلعب القمار في المدينة ، ويشرب الخمر ، ويقوم في بيته بالقرية سهرات يتعالى لها صوته ، وصوت جلسائه ممن يلبسون الملابس الافرنجية . . وهو بينهم في ثوبه البلدي وعلى رأسه

طربوش ، وفي أصبعه خاتم من ماس ، وعلى معصمه ساعة من ذهب ، وفي يده عصا تعلوها كرة من كهرمان ، ومن ثيابه تفوح روائح جميلة قوية ..

وتوالت مغامرات « عزي شفتري » مع نساء القرية ، ذوات السمعة الرديئة .. ثم تجاوز ذلك الى صلات يخفيها الليل مع غيرهن ، فتجمع السخط عليه شيئا فشيئا ، وهو لا يبالي . أقسم الشيوخ مرارا انهم لن يمدوا له يدا أو يجالسوه في مكان ، أو يصاحبوه في طريق ، ولكن « شفتري » يهل عليهم ، متأنقا نشيطا ، ثم ضاحكا ينتزع من ذوى الأيدي المبروكة ، أيديهم انتزاعا من أكمامها الطويلة ، فيقبلها ظاهرا وباطنا في حرارة تكاد تكون صادقة .. ثم يأخذ مكانه في المجالس الوقورة ، فيخرج من جعبته التي لا تنفذ فكاهات وقصصا ، وأخبارا ، ووصفات ، وعلاجات للأمراض ، وفتاوى في مشكلات القانون والزراعة .. فينسى الجالسون أنفسهم ، وينسى معها الذين أقسموا أن يقاطعوه ، قسمهم ، وتخفف الفيرة منه والحقده عليه حتى اذا هم بالقيام ألحوا في أن يبقى ، فاذا قام تنافسوا في توديعه وتشجيعه بالاجلال والاكرام ، فاذا بعد عنهم أفاقوا من السكر ، وأخذوا يلعنونه ، ويحلفون بالعظيم انه الشيطان الرجيم ..

ولما استفحل خطر « شفتري » وتجاوز عدوانه الحد ، توأصى أكثر من شاب مع بعض زملائه على أن يقتلوه ، وتكررت المحاولات التي نجا منها جميعا « شفتري » ، وكان يعرف - بوسائله - المتآمرين فلم يبلغ ضدهم ، ولم تمتد يده اليهم بالاذى ، بل أدناهم منه ، فأسرهم تسامحه من جهة ، وخافوا أن يبلغ ضدهم من جهة أخرى .. فدانوا له بالطاعة فأشركهم في بعض مغامراته فلبى بعضهم الدعوة كارها ، ولباها آخرون فرحين ،

حتى لم يعد في الناحية شقى أو هارب من وجه العدالة
أو راغب في الانتقام من خصم له أو منافس ، الا ولاذ
بـ « شفتر » واحتوى به .. ثم لاذ به بعض المظلومين
فعلا ، فأخذ لهم حقهم ، والناس لا يدرون .. أيفعل ذلك
عن حب للخير ، أو عن رغبة في التباهى بسلطانه ، وخافة
الناس من بطشه ؟ وجاءت الانتخابات ، فاحتاج
المتنافسون الى رجل ذى نفوذ متحدث ومحسوب ،
ومخوف في الوقت نفسه .. فتنافس المرشحون على
كسب « شفتر » والتلطف معه والاعداق عليه . وجاء
المديرون بعد الانتخابات ممن يدينون بمناصبهم للأحزاب
فأصبح « شفتر » صاحب كلمة في المديرية ، وارتفع
الحجاب بينه وبين المدير نفسه .. ولم يعد اسمه يذكر
الا مقرونا بلقب « بك » ، يقال فيكون لرئيسها وقع في
الأذان ، يشيع في الأعصاب ، خدرا لطيفا .. و«شفتر»
على تزايد نفوذه لا يغير في طبيعته ، فهو الضاحك المسلي ،
الذى ينفق عن سعة ، والذى لا يسمع عن فقيرة مات
عائلها الا وأعطاهم سرا ، ولا يهتم في هذا أن تكون مليحة
او قبيحة ، وأن كانت المليحات يظفرن منه الى جانب
ماله وعطاياه ، بعطفه ووده ..

ثم قصده أصحاب الحاجات المشروعة وغير المشروعة ،
من ترقية ، ونقل ، ومنح علاوة ، وحفظ شكوى ، ودخول
مدرسة ، ونجاح في الامتحان ، وفي الكشف الطبى ،
وفي رفت عمدة ، أو إعادة عمدة مرفوت ، أو مساعدة
« شيخ » بلد مقدم للجنة الشياخات ، فلم يتردد أبدا
في أن يقضى هذه الحاجات في المديرية ان استطاع ، والا
ففى القاهرة نفسها . وأصبح له بسبب هذا النشاط
الجديد ، مقعد دائم في شرفة فندق الكونتنتال ، يطل
منه على ميدان الاوبرا ، ويرى صفوف السواح من أوربا

وأمرىكا فلا يثير عجبـه الا هذا الطراز من السبائحات
الأمريكيات اللاتى بلغن أرذل العمر ، وبقين مع ذلك
مصممات على أن يقفزن كالشابات ، ويتجملن كالفاتنات .
فيبتسم ويقول لنفسه :

— لماذا لا تستولى مصلحة الآثار على هذه المومياءات
المتحركة المتأنقة بدل مومياءات الفراعنة الساكنة الراقدة
على ظهورها ؟ ..

وبقى فى « شفتـر » شىء أصيل زاد نفوذه وزاد غناه ،
اتسعت شهرته فى الناحية ، وذاع صيته فى المديرية ..
أصبح معروفـا للكثيرين فى القاهرة ثم دبت مع الأيام
شعرات بيضاء فى شعره الأصفر واضطر للسهر الطويل ،
أن يلبس منظارا طبيا على عينيه الجميلتين ، وخفت قليلا
صوته الرنان ، وقل شيئا تتابع ضحكاته المجلجلة ..
وتقل غزواته ومغامراته من ميدان القرية والمركز الى
خارج حدودهما ، ولكن بقى بيته فى البلدة ، لا يطيب
له الا أن ينام فيه ، ولا يجد طعاما أشهى من الطعام
الذى عمله بيديها « أم جلجل » ..

صحيح انه استأجر شقة فى عاصمة المديرية ، وحجز
حجرة بصفة دائمة فى لوكاندة البرلمان بالعتبة الخضراء
أولا ، ثم فى لوكاندة أغنى وأكبر مقاما فيما بعد ، ولكن
داره فى البلد كانت المرفأ الذى لا يغيب عنه الا ليعود اليه ،
ويجتمع فى ديوانه مع زملاء العهد الاول الذين يمثلون كل
نشاط فى القرية .. فمن رفاق «البرجاس» والتحطيب ،
ومن الرماة الذين لا تبتعد البندقية عنهم لا ليلا ولا
نهارا ، الى زملاء الليل بكل خيره وشره ، من حلقات
للذكر الى عمل رهيب تجمد له الدماء فى العروق . ولكن
أهل القرية ألفوا فى السنين الاخيرة ، أن يغيب «شفتـر»
عنهم يوما أو يومين ، ثم بدأوا يحتملون غيابه لمدة أطول

خصوصا فى الازمات الوزارية ، وقد تطول هذه المدة الى اسبوع أو عشرة أيام .. ولكنه كان يتكلم خلالها فى التليفون مرة ، بل مرات ، فقد زود داره بهذه الآلة العجيبة ..

غير أن « شفتى » انقطع فجأة عن داره هذه .. وكاد يكمل الشهر لم يتكلم اثناءه الا مرة واحدة . وقد ظن المترددون على عاصمة المديرية انه فضل آخر الامر الإقامة فيها بشقته الفنية توفيراً للجهد على نفسه ، ثم علموا انه لم يضع فيها قدمه خلال ذلك الشهر كله .. فظنوا انه مريض فى القاهرة ، أو مسافر الى الاسكندرية كما يفعل كثيرا كلما أراد أن يتصل بأحد من بطانة الوزراء ، أو حاشية الزعماء فى الصيف .. ولكن تجار القطن الذين لا ينقطعون عن السفر الى الاسكندرية أكدوا انهم لم يروه هناك ، وبالذات فى القهوة التجارية المطلة على الكورنيش حيث محله المختار فى الاسكندرية .. ووجم أهل القرية لغياب « شفتى » بك .. كان حقيقة شيطان القرية ، بل شيطان الناحية ، وكان اليد المدبرة والرأس المفكر لكثير من الجرائم التى ارتكبت ، ولكنه كان فى الوقت نفسه أنيس هذا الجانب من المديرية .. وبدأ الذين اعتادوا أن يسبوه ويطعنوه فى غيابه يخفون من حدة لومهم اياه ، وطعنهم فيه ، ومالوا الى سماع مدحه وخرجت من البيوت أحاديث كثيرة لم تخل فى بعض الأحيان من المبالغة ، وأشارت الايدي الى أكثر من تلميذ أتم تعليمه بفضل « شفتى » ، وإلى أكثر من فتاة تزوجت وأسبل الله عليها ستره لان « شفتى » مدها يد المعونة ، وأكثر من حاج زار بيت الله وقصد الرسول ، لان « شفتى » جهزه وأمده بالمال .. وطال وجوم القرية ، أو طال انقطاع أخبار « شفتى » ،

وطالت غيبته هو نفسه ، الا أن الوجوم استحال الى حزن ، حينما وصلت الانباء بما لا تطيق الاسماع . لقد بدأت الانباء بهمس يدور حول زواج « شفتري » ولم يكن في هذا من بأس ، الا أن هذه الاشاعة أسلمت أهل القرية الى اشاعة أخرى مؤداها ، أن « شفتري » تزوج فتاة تصغره كثيرا ، فانتفض الناس قليلا ، ولكن لم يكن الخطب جللا ، الا أن الكارثة اكملت حينما جاءت الانباء بأنها أجنبية ، وبأنها حولته الى شخص آخر .. فقد هجر ثيابه البلدية ، وانقطع عن اخوانه حتى في القاهرة ، وأصبح لا يرى الا مع أجانب يلبسون القبعات ويرطنون بغير العربية ، وان الخطر على إيمان « شفتري » ودينه ، محقق . وتبادل الناس التعازي فيما انتهى اليه « عزي شفتري » ، ولو ان بعض الذين لم يحترموا حزن القرية قالوها بصراحة :

— انه شيطان منذ ولد .. ولا رجاء فيه حتى يموت وخرج « شفتري » من حياة القرية والمديرية وحياة المرشحين ، والنواب والمديرين ، والتجارة ، واعتاد أرباب السوابق العتاة أن يعيشوا بغير زعامته ، وارتاح الشيوخ وأهل التقوى من كثرة ذمه في غيابيه ، ومن فرط الترحيب به في حضوره .. على أنه لم يكن يذكر اذا ذكر ، الا بلقبه الاسهل « الخباص » !

وشغل الفلاحون بدنياتهم التي لا تنتهي مشاغلها .. ثم عاد « شفتري » يطفو على السطح ثانية ، فلقد سمع أهل القرية وسط فرحة غامرة انه انفصل عن زوجته ، وانه عاد الى ثيابه البلدية ، الى حجرة الاولى في لوكاندة البرلمان ، وانه شوهد يدخل مسجد فاضل باشا لسمع الشيخ رفعت ، ويهتف من أعماق قلبه كلما مست آية وترا في قلبه :

— الله .. الله ياسيدنا الشيخ .. الله يقويك
وينور عليك .. وكانوا يقولون هذا والدموع تنهمر على
خدود بعضهم ، حينما كان يقول آخرون :
— ألم نقل لكم انه شـيـطـان ، فكيف تضحك
« خوجاية » عليه وتغير له دينه ؟ !

وفي ذات يوم ، خرجت القرية بأسرها .. نساءؤها
قبل رجالها ، واطفالها قبل الجميع ، يتدافعون بالمناكب
ويتزاحمون تزاحمهم يوم المولد ، وفوق اكتاف الامهات
الاطفال الرضع ، يمصون أصابعهم ، بدل الثدي الذي
انتزع منهم انتزاعا ، وفي آخر الموكب يسير الجدود
والجدات ، وقد انحنت ظهورهم وقصرت خطاهم ، ومع
ذلك بقيت الحياة فيهم رغبة لا تقهر الى الاستطلاع
والفضول

ولما وصل أهل القرية الى حدودها الخارجية ، حيث
الحقول الفسيحة ، انقسموا من تلقاء أنفسهم الى صفين
.. واتجهت الانظار الى سيارة سوداء ، وقفت عند
أعلى المنحدر المؤدى الى القرية ، ثم فتح بابها ، وخرج
انسان اصفر الوجه ، انحنى ظهره قليلا ، ومد يده
باحثا عن ذراع يستند اليها ، ومد شاب كان في السيارة
نفسها ذراعه اليه ثم طوقه بالذراع الثانية ، وخرج من
السيارة أيضا رجل ثالث ، كان أشيب ، طويل القامة
يبدو عليه حزن عميق فأحاط بالمريض من الناحية
الثانية، وسار الثلاثة بخطى قصيرة بطيئة ثقيلة ، تناسب
خطى الضعيف الشاحب الذي توسطهم . وحبس أهل
القرية أنفاسهم الى الحد الذي أحس معه الاطفال الرضع
فوق رءوس أمهاتهم ، ان من اللائق أن يكفوا عن مص
اصابعهم . وتابعت الاعين الرجال الثلاثة ، وهم يسرون
متجهين نحو الانحدار الذي لا بد للقادم الى القرية من ان

يهبطه . وعند اعلى هذا الانحدار ، وقف الرجل الشاحب وهو يلقف أنفاسه ، وكأنه يتهيب النزول . . فخرج في هذه اللحظة من بين الصفوف ، شاب طويل عريض قوى كانوا يطلقون عليه لقب « الرشاش » لائقانه استعمال مدفع « برن » استطاع أن يحصل عليه ، فاحتضن المريض من الورا ، وهبط به الانحدار كأنما يحمل طفلا لا رجلا ، والرجلان الآخران يتبعانه ويد كل منهما على ذراع من ذراعى المريض . . كأنما يعبران بهذه الحركة عن انهما لا يودان أن ينفصلا أو يبتعدا عنه . وفي هذه اللحظة عينها هتفت امرأة من بين الصفوف :

— شد حيثك يا « شفتري به » . .

وارتفع صوت امرأة في الصف المقابل ممتزجا ببكاء تحول الى عويل :

— ألف عمر على عمرك يا حبيبى . .

والتفت « شفتري » الى المكان الذى انطلق منه الصوت والبكاء ، ووجهه جامد لا تعبر تقاطيعه عن رضا ولا عن سخط ، ثم أدار رأسه ببطء شديد الى الامام دون أن يتكلم . .

ويبدو أن اجترأ امرأتين على الكلام والصياح ، شجع الآخرين على انتهاك حرمة هذا الصمت الذى خيم على المكان ، فخرج من بين الصفوف شاب ثان ، واندفع نحو « شفتري » الذى كان قد وصل اذ ذاك الى نهاية الانحدار ، وأمسك بيده ، وأهوى عليها يود أن يقبلها ، فنظر اليه « شفتري » بنفس الوجه الصامت ، وسحب يده فى أعياء ، بينما تقدم « الرشاش » الى الشاب ودفعه فى صدره بقوة وهو يقول :

— حاسب . . حاسب . .

والتفت الى الجموع التي خرجت عن النظام الذي فرضته
على نفسها بنفسها وهو يقول :

— خلوا في عينكم نضر .. الراجل عيان .. واللى
حيجرب حاجطع رجبته ..

وتعالت أصوات ، وتدافع الناس ، وجرى أطفال
ليسبقوا الركب ليستطيعوا المشاهدة بلا عناء ، وتزاحم
الرجال والنساء ، وجرى بعضهم ، كما يجرى الأطفال ..
وثار التراب حتى عقد فوق الرؤوس سحابة قريبة كانت
تظلل الموكب ، وكأنها مظهر من مظاهر الاحتفال الكثيب

وبعد قليل تعالى بكاء اختلط بما يشبه النواح ،
فصرخ « الرشاش » :

— انكتمى انت وهيه .. قال الله ولا فالكم يابعدا
ووصل أخيرا « شفتر » الى داره التي كانت دائما
مرفأه الامين الحبيب ، التي لم ينقطع عنها الا في الشهور
الاخيرة فأصيب بما أصيب به من مرض .. وعاد اليها ،
وهو يكاد يكون شبعا ، لا يشبه الاصل القوى الذي كان
يفيض بالحياة والتوثب والطموح . وبدأت القصص تخرج
من هنا ومن هناك ، تروى تاريخ الفترة التي انقطع فيها
« شفتر » عن بلده وداره .. فمن قائل ان المرأة التي
تزوج بها كانت أمريكية عجوزا ، ثرية بل صاحبة ملايين ،
وقد وقعت في هوى « شفتر » وحاولت أن تعود به الى
وطنها ، ومن قائل بل راقصة أجنبية وانها كانت طامعة
في ماله وشبابه معا ، وثالث يؤكد انها ابنة عائلة كبيرة
من عائلات الريف ، وان أهلها أقسموا أن يقتلوه ويقتلوها
معه ، لانها تزوجته من غير موافقتهم واذنهم ، وانه كان
أول الامر شديد الحب لها ، لكن حبه مع الايام فتر
فدست له السم من حيث لا يدري ..

وسكتت هذه الاشاعات المتضاربة ، حينما ذاع النبا

بأن « شفتر بك » يحتضر .. ومات « شفتر » وأقيم
السرادق ..

وفى نواح مختلفة من السرادق الكبير الرحيب ،
كانت مؤتمرات صغيرة تنعقد من أقباء « شـفـتـر »
الأقربين تتلاصق فيها الرؤوس ، وتتكلم الألسن همسا ،
وعلى الوجوه وقار وحزن مدعى به . وتحلق حول هذه
المؤتمرات عدد كبير من الطفيليين الذين يشمون رائحة
الكسب فى هذه المناسبات ، من بهيد ، ويأتون الى
مواقعها كالنسور الجارحة . أما المؤتمرات التى كانت
تجتمع لتنفض ، وتنفض لتجتمع ، وتتسع لتضيق ،
وتضيق لتتسع ، فكان محور مناقشاتها ومداولاتها
تفاصيل الجنازة والمآتم .. متى يكون التشييع ؟ وأين
يكون الدفن ؟ وماذا يكتب فى نيا النعى ؟ والمقرئون
الذين سيتلون القرآن ؟ .. ثم الأشخاص الذين يجب ان
يتصلوا بهم - على وجه خاص - لإبلاغهم النبأ ولكن
من تحت هذه المناقشات كان هناك اهتمام آخر ..
بالتحفظ على اوراق المتوفى ، وحصر تركته ، ووجوب
إيفاد أشخاص موثوق بهم الى شقته فى عاصمة المديرية
وحجراته فى اللوكاندة والسؤال عن اتصالاته بالقاهرة
والاسكندرية للوقوف على ديونه وأسماء مدينه . وكان
كل البحث فى كل عنصر من هذه العناصر ، قادرا على أن
يشير فى نفس أفراد الأسرة من الفرح والجزع مشاعر
متفاوتة ومتعاقبة ، ف « شفتر » لم يعرف له وارث من
والدين أو أولاد .. ولكن حياته كانت بالنسبة لذوى
قرباه كتابا مغلقا فلم يكن فى وسع أحدهم أن يقول انه
يعرف دخائل معيشتة ، وحقيقة ثروته ، الا ما اشتراه
من ارض فى القرية وفى زمام المركز . لذلك لبث الأقارب

فى توتر شديد ، يتوقعون فى كل ثانية ما يخيف ويفزع .
وقد زاد عذابهم ما عقد كل منهم العزم عليه من التظاهر
بأنه حزين على « شفتى » ، وأنه مشغول بالجنائز والمآتم
وما يقدم للمعزين من الطعام وغير الطعام ..
ولم يطل انتظارهم ..

فقد وقفت سيارة فاخرة على أعلى المنحدر الذى نزل
منه « شفتى » مريضا وكان مظهر السيارة دالا على ان
القادمين فيها ، ليسوا من أهل الناحية ، ولا من أهل
المديرية ، ولا من اصدقاء الفقيد المعروفين لذوى قرباه
اذ كانوا يسألون عن القرية سؤال الفريب ، وعن دار
« شفتى » فى تحفظ ظاهر ، وتردد يكاد يكون خوفا ..
وكانت معهم سيدة ، بقيت داخل العربة ، ومعها شاب
لازمها ولم تخرج مع من خرج من ركبها . وتجمع حول
السيارة فى لحظة قصيرة جمع ضخيم من الاطفال والنساء
والرجال ، وتزاحموا تزاحما شديدا وتنافسوا على أن
يروا من بداخل السيارة ، ولا سيما السيدة التى كانت
تضع على رأسها قبعة ، وتسدل على وجهها نقابا من
الحرير الخفيف ..

ولما علم ركاب السيارة الطريق الى دار « شفتى »
أدخل أحدهم رأسه فى السيارة - بعد أن كان قد خرج
منها - وتبادل مع السيدة والشاب كلمات سريعة وبدا
عليه انه اعتزم أمرا ، فقد اكتسى وجهه بشيء من الجد ،
لو أتيح لك أن تتأمله لادركت أنه جد مقترن بالخوف
والتوجس ، وهبط المنحدر وفى يده عصا ثمينة ، ومن
خلفه رجلان أحدهما يلبس الملابس البلدية الثمينة ،
وكان هذا الأخير عملاقا ، تحمل كتفاه عنقا غليظا
ضخما ، يذكره مرآه بعمود كبير من أعمدة المباني القديمة
الشاهقة . وتحول المتزاحمون من السيارة الى الرجال

الثلاثة الذين اتجهوا الى دار الفقيد ، الا ان بعض من تابعهم من الاطفال والرجال ، عادوا أدراجهم جريا الى السيارة ، وقد أحسوا أنهم أصبحوا قادرين على أن يروا من فيها وأن يملأوا عيونهم من وجه السيدة وملابسها .. فاستطاعوا فعلا أن يروا أنها تلبس ثوبا حريريا أسود ، يكشف عن بعض صدرها ، وأكثر ذراعيها ، وأنها كانت تدخن في شراةة ، وتضع رجلا على رجل ، وتتكلم بلهجة سريعة غاضبة ، وتفوح من ثيابها رائحة عطر لم يشموا مثله ، ولا حتى حين كان يمر بهم « شفتري » او يقتربون منه . ولما اطمأن هؤلاء الى أنهم رأوا جيدا كل من وما في السيارة ، وان شيئا فيها لم يفتهم حتى الشاب النحيف الجالس الى جوار سيدة أطلقوا سيقانهم للريح .. فامتلات بيوت القرية ودروبها بأن « خوجاية » في السيارة ، وأكدوا أنها لابد أن تكون زوجة « شفتري » التي سمعوا عنها أثناء غيابه عنهم

وانفجرت هذه الانباء في السراةة انفجار القنبلة ، فشحب لون أولاد عم « شفتري » ، وكان كل منهم قد قسم في ذهنه التركة التي يعلم بعض تفاصيلها ، وخص نفسه بجزء جيد منها ، وحضر حججه ليقنع الآخرين بأنه أحق بهذا الجزء دون غيره .. شحب لونهم ، وجفت في الحال حلوقهم ، وجمد كل منهم في مكانه ، فقد وقع الخطر المتوقع ، وحلت الكارثة الكبرى .. ولكنهم ما لبثوا أن تجمعوا واخذ كل منهم يقول كلاما كان أقرب الى هذيان المحموم ، من قول العاقل المتماذك ، ولكن كان ما انتهوا اليه - حتى بلا تفاهم أو اتفاق - ان التركة لن تفلت من أيديهم ، وان « شفتري » لم يتزوج ، ولم يعقب ، وان كل ادعاء بعكس هذا ، هو نصب واحتيال الأمر فيه متروك للحكومة والقضاء .. ووصل الرجال

الثلاثة الى مدخل السرادق ، فلم يخف لتحيتهم أحد من اولاد العم ، او غيرهم من اقارب « شفتى » . ودار الوافدون بأعينهم فى السرادق ، وقد بدت عليهم الحيرة الشديدة والاضطراب .. ولكن لم يطل هذا الموقف كثيرا ، اذ ان أكبر اولاد العم ، وكان أشدهم ثقة بنفسه ، تقدم اليهم فى جفاء ، ودعاهم للجلوس فى غير مودة ، وسكت .. وبعد فترة صمت .. قال زعيم القادمين :

— البقية فى حياتكم ..

فاجاب ابن العم فى اغتصاب :

— شكر الله سعيكم ..

وتملل الرجل فى مكانه ثم قال :

— خال الدنيا ..

فلم يرد عليه ابن العم ، وكأنه لم يسمع . واضطر

الضيف الى ان يقول :

— الوفاة حصلت فى الصباح ؟ ..

فهر ابن العم رأسه علامة النفى ، وصدرت عنه الفاظ لا تسمع وهو يتأمل وجه الضيف الذى بدا عليه انه قرر ان يواجه المهمة التى جاء من أجلها فقال :

— لقد قلنا لعزو بك لا تترك بيتك وزوجتك فى

القاهرة .. ! العلاج فيها أحسن ..

وسمع ابن العم كلمة زوجتك ، وكأنما لدغ ، ولكن

سره أن الرجل يقول عن عزى ، عزو

فقال : عزو ؟ ..

وأسرع الضيف قائلا :

— سوسو أختى كانت تناديه دائما عزو .. ولو

استطاع ابن العم أن يقوم لتوه ليقبض على عنق هذا

الرجل ويدقها دقا لما تأخر ، ولكن أقصى ما استطاع

أن يفعله ، هو أنه صوب اليه نظرات خارقة ، لو أنها

تعلقت بحطب لاشعلته .. ومد له الضيف يده بعلبة سجائره فتجاهلها وأخرج سجائره هو ، وأشعل منها لفافة ، وبصق في الارض في عصبية .. وأدرك محدثه مدى الانفعال الذى يهز كيانه ، فسكت .. وأخذ ينفث دخان السيجارة التى رفض أن يأخذها ابن الهم ، وتقدم أحد الفراشين في هذه اللحظة ، بصينية عليها فنجان قهوة ، وكوب ماء ، فمد الضيف يده اليها وأخذ كوب الماء ، وشربها حتى آخرها ، ثم اعتمد بذراعه على العصا وأخذ ينظر الى لا شيء لحظة ثم قال :

— لأحول ولا قوة الا بالله .. انا لله وانا اليه راجعون ولما طال الصمت ، ادنى شقيق ابن الهم الاخير ، مقعدا ، بعد أن مد يده للقادم الغريب ، وهو يقول :

— شكر الله سميعكم ..

ثم تماءل عن الحكاية ، فلم يرد أخوه أن يرد عليه ، وأحاله بيده الى الضيف قائلا :

— اسمع ياسيدى ..

ولم يرد الرجل ان يقول شيئا في الحال ، مكتفيا بالقول ، بأنه لا فائدة من الحزن ، واننا جميعا سائرون في هذا الطريق ، ونالواجب يقضى بأن نحمد الله ، اذ مات « شفتى » بك ، وقد ترك لزوجته وذريته ، ما يكفيهم وزيادة

ولدغ ابنا الهم للمرة الثانية ، لدغة كانت اوجع ، فقد كان يساورهما الامل فى ان يقتصر المصاب على وجود زوجة لا تظفر الا بالربع على اكثر الفروض .. فاذا بالقدر يكشف لهما عن وجود عقب لمورثهما ، يحرمهما من التركة جميعا ، فصرخا معا

— ذرية ..

فهز الرجل رأسه فى ثقة واطمئنان قائلا :

— حمل مستكن ..
وذهب نصف ما كان قد حل بالوارثين من جزع وقال
في صوت واحد :

— آه .. حمل مستكن ..
ولما وصل الحديث إلى هذه النقطة قال الضيف :
— ألا يمكن أن نتحدث وحدنا على انفراد .. نحن
لا نطلب إلا حق الزوجة وابنها .. أو ابنتها حسب ارادة
الله .. كل يأخذ حقه ، بشرع الله وسنة رسوله ..
ولم يرد ابن العم أن يجيبه إلى طلبه ، وفضل أن
يتكلموا حيث كانوا ، باعتبار انه ليس هناك من غريب
فمد الرجل يده إلى جيبه في بطء قاتل ، ثم أخرجها ،
وكانما يسيل سيفاً ، وفيها ورقة مطوية ، نشرها وقدمها
لابني العم ، فلم يزد أكبرهما أن يمد إليها يده وتساءل :
— ما هذا ؟ ..

فلم يجب الرجل وأخرج من جيبه ورقة أخرى مطوية
كذلك ، وبسطها بنفس البطء والتثاقل كأنما يتلذذ
بتمذيب هذين الطامعين ، فقال أصغر الاخوين :

— وما هذه أيضاً ؟ ..
فأجاب الرجل وعلى شفثيه ابتسامة لا تلاحظ :
— خطاب بخط « عزو بك » .. عزى شفىتر الله
يرحمه .. خطاب لكم ..

وردد أكبر الاخوين كلمتى « الله يرحمه » بسخرية
واضحة ، وقال :

— جواب لى أنا .. ؟
ثم ضحك ضحكة قصيرة كأنها هى نفخة من انفه
واستأنف الرجل حديثه قائلاً :

— خطاب يوصيك بزوجته وما قد يرزق به منها ..
وضحك أصغر الاخوين هازئاً :

— خطاب .. قد كان معنا هنا ، وكان يجب أن
يوصينا بلسانه ، لنسمعه بآذاننا ..

وهم الرجل باعادة الورقتين الى جيبه ، وكأنه لا يهमे
أن يطلعا عليهما ، ولكن الاخ الاصغر خطفهما وأجال
نظره عليهما دون أن يقرأ حرفاً فقد غامت الدنيا في وجهه
فلم يتبين مما قرأ شيئاً ..

وشعر الرجل بأنه لا فائدة من الحديث معهما ، فأنهى
الكلام ووقف ، وهو يقول انه جاء بنفس صافية ، ونية
خالصة للتفاهم ، وان أخته لا تريد أن تقع في نزاع مع
أهل زوجها الذى كانت تحبه اكراما له ، لانها تعرف
ما يكنه لهم من اعزاز

واجاب اولاد العم ، ومن اجتمع حولهم من الاقارب
والفضولين ، أن « شفتر » لم يتزوج ، وان فى البلد
حكومة ومحاكم ..

ولما وقف الرجل ، واقترب منه الرجلان اللذان جاءا
معه قال :

— والدفن ؟ ..

فأجابه أكثر من واحد :

— أن هذا ليس شأنهم ، وان « شفتر » سيدفن مع
أهله وبين أحبابه وأعزائه . ولما حاول أن يقول لهم أن
وصية « شفتر » أن يدفن عندهم ، وانه أقام لنفسه
قبل مرضه مدفنا كبيرا أنفق عليه كثيرا ، هموا بالاعتداء
عليه .. فhez رأسه ، وكأنما يتوعد الجميع ، وسار في
حزم ، ومن خلفه صاحباه ، وكأن العملاق منهما ، قد
ازداد فى هذه اللحظة طولا ، وازداد عنقه ضخامة ..

فقد اولاد العم ، الاهتمام بالماتم ، وبجنازة الغد ،
بعد أن اتضح لهم ان التركة التى كانوا يعتبرونها حقا

خالصا لهم بدأت تبعد عن أيديهم ، وقد تبادلوا الراى فيما سمعوه . . ومالوا الى ترجيح ان الامر كله نصب واحتيال ، وقرروا ألا يبدو عليهم الاهتمام بدعاوى هذه المرأة ومن جاء معها ، وأن يطعنوا فى كل وثيقة تقدمها ، وأن ينكروا « الحمل المستكن » الذى تزعم وجوده هذه السيدة ، ونشطوا فى تنفيذ خطتهم فأوفدوا من تعقب الرجال الثلاثة ، ومن نقل رقم السيارة ، ثم تابعها حتى خرجت من حدود المركز . .

وما كادوا يفرغون من هذه الاجراءات ، حتى حل عليهم تعب عظيم أحس معه كل منهم انه فى حاجة الى الراحة والنوم . وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بكثير . . وكان عمل كثير ينتظرهم فى الغد مع شروق الشمس ، وكانوا آخر الامر فى حاجة الى الخلوة ليفكر كل منهم فى المصيبة التى نزلت بهم . .

وما كادوا يأوون الى مخادعهم ، حتى سمع كل منهم على بابه طرقا شديدا ، تبعته أصوات وصياح ، وهرج ومرج ، كما جاء من بعيد صراخ وعويل ، ففزعوا وقفزوا من فراشهم ، وهب بقية أفراد الاسرة ، وخرج بعضهم فى ثيابه التى ينام بها ، وهى لا تزيد عن قميص وسروال . . وخرج آخرون خفاة وعراة الرؤوس ، وهم يسألون عن الخبر ، وأم يكادوا يتبينونه حتى اندفعوا الى بيت « شفتى » وكأنما جن جنونهم ، واتجهوا الى الغرفة التى رقدت فيها الجثة ، وحولها بعض القراء المكفوفين الذين تناولوا قراءة «الرابعة» ، وقد روع هؤلاء المساكين حينما تدفق سيل من الناس ، لم يلتفتوا اليهم ، فكادوا يدوسونهم بالاقدام ، فانكفأوا على وجوههم ، وأخذوا يزحفون التماسا للنجاة . . وسمعوا وهم على هذا الوضع المهين ، ان الجثة التى أحاطوا بها ، وراحوا يتلون

القرآن حولها ، قد اختفت ، سرقت وهم لا يدرون ..
وبحث أهل « شفترا » عن « أم جلجل » في هذه
اللحظة فلم يجدوها ، فاشتعلت في الدار مناحة ، كأن
« شفترا » قد مات مرة أخرى ، بل كأنه مات حقيقة هذه
المرة .. وأخذ الرجال يلطمون خدودهم دون النساء ،
وانطلق شاب الى بيت العمدة ليبلغ عن اختفاء الجثة ،
واسستيقظت الاسرة بأسرها ، ورفعت الكلوبات من
موضعها في السرادق ، لتضيء للناس طريقهم في دروب
البلدة الضيقة ، وطير الخبر للمركز ، وللنيابة ،
وللمديرية .. ولم ينقض الا وقت قليل حتى شوهد
رجال بوليس يمتطون ظهور الجياد ، ورجال بوليس
حضروا في « بوكسفورد » ، ورجال نيابة جاءوا في سيارة
أجرة ، والجميع تبدو عليهم آثار النوم ، والجميع يلفون
أعناقهم « بكوفيات » أعدوها لمثل هذه المناسبة ، وبعضهم
ارتدى معاطف ثقيلة وأعواد الثياب في أيد تضيء
وتنطفئ ، في صمت ..

وفتح المحضر في بيت العمدة .. ثم انصرف الجميع ،
وقد تركوا وراءهم بعض أفراد قوة المباحث في المديرية ،
وفي المركز ليتشمسوا الخبر ، ويتبينوا أين ذهبت الجثة ،
بعد أن أعطى رقم السيارة لنقط المرور .. وكلفت نيابة
القاهرة ، باستدعاء السيدة التي ورد اسمها في قسيمة
الزواج ، وسؤالها وسؤال من كانوا معها ، مع البحث
عن « أم جلجل » ، ومن اختفى معها من أهل بيت
« شفترا » .. وتفرق أفراد قوة المباحث في أنحاء القرية
ولم ينتظر الا القليل حتى عثر كل منهم على مكان دافئ
في القرية ، اتخذ له فيه مخدعا ، حيث نام فيه ملء
الجفون ، وترك أهل « شفترا » وحدهم ليواجهوا
الفضيحة التي نزلت بهم ، بغير تمهيد ولا تحضير ،

ولاحلوا المشكلة التى ستواجههم بعد ساعات .. مشكلة تشييع جثمان «شفتر» فى جنازة مهيبة سيشترك فيها قطعا المئات ، والجثمان نفسه غير موجود .. والوقت لا يسمح بتأجيل تشييع الجنازة ، واطار المشيعين بأن الجثة سرقت يخرج من حيز التفكير ، وتشيع نعش بلا جثة ، شئ أقرب الى النصب والتزييف ..

مرت الساعات سريعة .. وأصبح موعد تشييع الجنازة كالسيف المسنط فوق رقاب أفراد العائلة ، ولكن أهل القرية الذين لا يمتون الى «شفتر» بصلة قرابة كانوا أكثر من أهله شعورا بالفضيحة ، فقد كانوا يحسون أن ما حدث ليس إلا عارا حل بظله الاسود فوق رؤوسهم .. فراح كثيرون منهم ، يفتشون عن الجثة وهم معتقدون أن اخراجها من القرية لم يكن ممكنا ، لأن منافذ القرية مسدودة بأهل القرية ، الذين كانوا ساهرين ، ولأن الناس بقوا محيطين بالسيارة حتى تركت البلدة .. بل أنهم لم يكفوا عن التحقيق فى وجه من كان فيها ، والتحويم حولها ، والركوب فوقها .. فالجثة اذن فى القرية فى بيت من بيوتها ، أو فى مكان ما فيها .. وتفرق الشبان والصبيان وعدد من الفضوليين الذين كانوا قد اجتمعوا فى السراى ، كما تفرق كلاب الصيد ، وقد استحال كل منهم الى عيون وأنوف ، تبحث وتشم ، فى كل ركن ، وتحت كل حجر ، مشتبهة فى كل ماش ، وجالس ، وملتحف ، أو متحدث فى همس ، واسفرت هذه المهمة عن نتيجة سريعة .. فقد جاء من أقصى القرية صبي يلهث ، ويقول وهو يلتقط أنفاسه فى عناء ، أنه رأى جماعا من الرجال يحملون نعشا ، ويجرون ناحية المقابر . وخرجت البلدة بأسرها ، واستيقظ رجال المباحث ، وهم يفركون عيونهم

بأيديهم لا يدرون ماذا حدث .. خرجت البلدة في الاتجاه الذى أشار اليه الصبى ، وقد تقدمهم ، وكأنه قائد مفوار ، وتلفت حملة النعش ، ثم جدوا في السير ، ثم فى الركض ، لما أوشكت طليعة القرية أن تلحق بهم .. وهلت الطليعة الزاحفة ، واشتملت الجميع فرحة كفرحة النصر وتدافعوا .. وكل منهم يمنى نفسه بأن سيكون أول من يكشف الفطاء عن وجه الفقيد ، وأن يراه ، وعلى شفثيه ابتسامته الخالدة التى لا تفارقه ، ولو جلس على مقعد من نار .. ورفع الفطاء عن النعش ، وصرخ الذين سبقوا غيرهم الى رؤية ما فيه .. هل رأوا وجهها كريها ، أو جثة مشوهة ، أو لم يحتملوا النظر الى ميت تفيض منه أنوار ما بعد الموت ؟ ! ومد أحد الرجال يده الى داخل النعش ، ورفع فى الهواء جسما أسود اللون ، أو بنيا داكنا ، وتعلقت العيون باليد وبما رفعتها اليد ، ولكن ماذا يكون ؟ .. انه لا يمكن أن يكون جثة طفل ، ولا يمكن أن يكون عضوا من جثة . ومن الخلف جاءت صيحة ندت عن صدور رجال فى المؤخرة أدركوا ماذا كان فى النعش ، وسر عدو من كانوا يحملونه .. فلم يكن فى النعش الا عشرة طرب من الحشيش الفاخر .. !

وكان أصحاب النعش معذورين ، فقد امتلأت القرية برجال البوليس .. وعسكر فيها عدد من أفراد قوة المباحث ، ومنهم من تخصص فى مطاردة متعاطى الحشيش ومهربيه .. واذا كانوا قد ناموا ، فانهم لابد أن يستيقظوا فى الساعات الاولى من الصباح ، وقد أصبح من المنتظر أن يهاجم كل بيت وأن يفتش كل شخص ..

وعادت القرية وفى يد بعض أفرادها أجزاء من هذه الطرب ، واختفت أجزاء كبيرة من هذه الغنيمة ، ولما

اهتزت أسلاك التليفون بين بيت العمدة والمركز ، ظن
المأمور أن الجثة ظهرت ، ولكنه فوجئ بإشارة تليفونية
عن نعش به حشيش بدلا من ميت . ولم يكن ثمة مفر
من انتقال البوليس والنيابة مرة أخرى الى القرية ،
وهو أمر لم يحدث في تاريخ هذه القرية ، ولا أية قرية
أخرى . . . إذ لم يشهد التاريخ الجنائي أن تنتقل النيابة
مرتين في ليلة واحدة الى قرية واحدة بالذات . وعبرت
أحدى عجائز البلد عن ضيقها مما حدث فقالت :
- منك لله يا « شفتير » بيه . . . تعبننا في الدنيا
والآخرة . . .

فلكرتها حفيدتها وكانت شابة جميلة وقالت :
- هو ذنبه ايه كمان . . .
فسكتت العجوز ، ولما بعدت عنها حفيدتها عادت
تقول :
- تعبننا في الموت والحياة . . .

وعاد صبيان القرية الى مواضعهم الاولى ، حيث كانوا
في انتظار أية بادرة تلوح ، وتكشف عن المكان الذي خبئت
فيه الجثة . . . وجاء أحدهم يقول انه يشم رائحة عفنة
تنبعث بشدة من بيت من بيوت البلد ، وذهب معه بعض
زملائه . وبلغ من هذه الرائحة أن اتدفع الشبان الى باب
البيت فلم يترقبوه ، بل خلعوه خلعا ، إذ تأكدوا أنها
رائحة ميت بلا جدال . . . وفوجئ صاحب الدار
وزوجته بدخول هؤلاء الشبان ، ولكن بدا عليهم هلع ،
أكد للفيزاة المقتحمين ، أن شكهم له ما يبرره ، فان
الزوجة صرخت :
- ما ليش دعوة والله . . . لا انا شفت ولا نصرت
حاجة . . .

وصرخ زوجها :

- يا مجرمة دا انت الى تستاهلي الحرق ..

ونظر الشبان الى مكان في البيت فوجدوا سطحه
مرشوشا بماء ، وأشبه شيئا بأرض محروثة . والتفت
أحدهم الى فأس ، فأخذها وراح يضرب في هذا الموضع
من الدار ، وبعد بضع ضربات ، ظهرت أعضاء جسم
بشرى ، فاطمأن الشاب الى انه كشف الموضع الذي
خبئت فيه جثة « شفتري » ، ولكن كم كانت خيبة أمله
كبيرة ، حينما أخذ الزوج وزوجته يتضرعان اليه لكي
لا يفضحهما ، وفهم من توسلها أن القتل ليس سوى
ضرة المرأة ، وانها تعاونت مع زوجها في ذبحها ، ثم
دفناها في أرض الدار ، وعاشا أياما معا ، وكأنما يبدآن
شهر عسل ممتع ! ؟

وشاع في البلد الخبر ، فصرخ رجل :

- الله يقطع « شفتري » وسنينه .. الراجل سيخرب

البلد ، بعد ما مات ..

وانهالت الاشهارات التليفونية الى المركز ، والى
المديرية ، والى النيابة ، وعادت القرية تستقبل رجال
الامن من جديد ، وذاع النبا المدهل في أنحاء المديرية ،
فتولى بذلك اذاعة نبا تأجيل تشييع جنازة « شفتري » ،
وترك السراشق خاليا ، وفتر اهتمام الجميع بالبحث عن
جثته ، ولم يبق من هذا الاهتمام ، الا حرص عائلة
« شفتري » على ملاحقة منافسيهم في الميراث ..

ومرت أيام والقرية مشغولة بالقضيتين الجديدتين ،
وبالتحقيق فيهما ، فلما سمع بعض الشبان ، بأن امرأة
تهييء في الليل كفنا لمت ، لم يتحرك لدارها ، الا شابان

من أنصار « شفتر » أثناء حياته ، ولما دخلا الدار ،
وجدا عجوزا عمياء ، أمام ميت ملفوف في كفن . . وكشفا
عن وجهه ، فراعهما أنهما رأيا رجلا أشسبه ما يكون
بـ«شفتر» وهما أن يحملاه فتعلقت المرأة بهما ، وراحت
تتوسل اليهما أن يدعاه ، والا يبلغا ضدها . . فزادهما
توسلها شكا فيها ، وظنا أن جثة « شفتر » قد وصلت
الى خاتمة المطاف . وبينما هي تتوسل اليهما ، وهما
يأبيان الا أن يحملا الجثمان ، اذ يدخل حلاق الصحة
منزعجا ، وينضم الى المرأة في توسلاتها . . ويعجب
الشابان من أن يكون لحلاق الصحة صلة بالامر ، ولكن
ما يكادان يستوضحان حتى يعلما بأن البحث عن جثة
« شفتر » عبث لا طائل تحته ، وان في اختفائها سرا يعلو
على أفهام أهل القرية . . فالتيت الذى ظناه « شفتر »
ليس سوى ابن المرأة العجوز الكفيفة ، وكان مصابا
بالحمى ، وكان لابد من ابلاغ الصحة عنه ، ليعالج خارج
البلد ، فى مستشفى الحكومة ، ولكن الام ابت أن يبعد
عنها ابنها . . ووافقها على ذلك حلاق الصحة ، وكان
لابد أن يتم الدفن سرا ، والا تعرضت وتعرض حلاق
الصحة معها لما يستلزمه القانون من عقاب . .

واستخذى الشابان وأعادا الجثة للأم . .

وطوت الايام هذه القصة . .

الا أن قضية الميراث بقيت قائمة بين أولاد عم «شفتر»
وزوجته و « حملها المستكن » الذى خرج الى الحياة
طفلا ذكرا ، لو ثبتت بنوته لـ « شفتر » ، لحرمت عائلة
أبيه جميعا من التركة كلها . . وكبر الولد وكبرت القضية
معه ، وتوالى عليها قضاة شرعيون وأهليون ، وبلغ بعض
هؤلاء المعاش ، وخرج آخرون من القضاء الى المحاماة ،

ثم الى الوزارة .. والقضية تؤجل ، وتتسع ، ولا يحكم فيها ..

ونسى الناس أمر الجثة التي اختفت ولم يعثر لها على مقر ، بعد أن عجز أولاد عم « شفتري » عن اثبات أن زوجته وأهلها خطفوها ، وبعد أن اتضح أنه لا مصلحة لهم في الجثة ذاتها ..



وبعد سنين ، رأى أهل الناحية أنفسهم أمام ضريح مبنى من الحجر الابيض وطلّى بالجير الابيض ، وكتب عليه مقام سيدى « الخباش » ، وسأل الناس عن سر بناء هذا الضريح ، فعلموا ان أحد أتباع « شفتري » ممن تابوا واتبوا ، رأى فى المنام « شفتري » نفسه ، يوقظه من النوم ويقول له :

— تحت الصفصافة ..

وتوالت زيارة « شفتري » لتابعه ليلتين آخرين متتابعتين ، فأدرك أنه يطلب أن يقام له ضريح تحت الصفصافة خصوصا أنه قال فى الليلة الأخيرة :

— ستجدنى هناك ..

وذاعت للشيخ « الخباش » شهرة بعيدة ، وقصده المذنبون الذين تابوا ، بعد أن دوخوا الحكومة ، ثم قصده النساء اللاتى طال انتظارهن للولد .. وعاد أحد أهالى الناحية من زيارة له من الصعيد روى لجلسائه فوق المصطبة ، أنه رأى فى إحدى القرى هناك وتحت الصفصافة ضريحا لسيدى « الخباش » ..

وانقطع الناس عن التساؤل عن معنى هذا الاسم ..

الرملة



كانت الشوارع كأبهى ما تكون .. تفيض من واجهات
الخوانيت والاندية الليلية ، ودور السينما ، أضواء من
كل لون ، تدور حول نفسها ، وترسم دوائر ، ومربعات
والفاظا وصورا .. وكان الجو باردا بالنسبة لقادم من
القاهرة ، ولكنه كان عند أهل المدينة الكبيرة ، جميلا
ومنعشا ، فراح أفراد كثيرون يتأملون واجهات المحال في
استمتاع وفراغ بال ، وهم يتأملون في الوقت نفسه
خواطهم التي تدور في رؤوسهم .. وكان مثل هذا
«الجو خليقا بأن يملا نفس الدكتور « مجيد التلاوى »
بالراحة والدعة ، ولكن وجهه كشف عما امتلأت به
نفسه من ضيق ووحشة ، وشعور بالضعف والغربة ..
وقد راح يتنقل من واجهة محل الى واجهة أخرى ، ومن
مدخل سينما الى مدخل ناد ليلي ، ومن مكتبة تعرض
الكتب والصحف ، الى محل بقالة يعرض حبسـال
« السجق » المعلقة على بابه ، وكأنها أجساد مشنوقين ،
ضمرت مع الأيام ، ومع الإهمال .. وهو لا يجد في كل
ما يرى ما يسليه ، أو يخفف عنه شعوره القابض ، بأنه
متروك ومهمـل ، ولا شأن له عند أحد ..

ولم يكن مبعث هذا الشعور انه قادم من القاهرة ،
ليزور ابنه « أمجد » الذي يتعلم في إحدى جامعات
وسط أوروبا ، فأوروبا سواء أكانت بعواصمها الغربية
أو بعواصم الوسط ، كفيينا ، وبرلين ، وميونخ ، مألوفة
عنده .. فقد تعلم في أوروبا ، وتردد عليها بعد ذلك في
مؤتمرات ومهمات ورحلات شخصية ..

ولم يكن كذلك مرد شعوره بالوحشة انه وحيد ،
فقد فقد زوجته منذ أكثر من سبع سنوات .. فألف
حياة العزوبة ، ولم تعد المرأة عنده - سوى دواء
يتعاطاه المريض من الظاهر .. فلم يكن اذن ثمة داع
للاتقباض .. ولتفاقم شعوره بالوحدة - وبالوحدة على
وجه خاص - الا انه الان يتجاوز الخامسة والاربعين
يتسرب الى نفسه - من حيث لا يدري - شعور متسلل
خفى ، بأنه ينتهى، وبأن مابقى أقل بكثير مما فات .. بيد أنه
انسان طبع على التفاؤل ، فلم يدع لهذا الشعور فرصة
يغلبه فيها على نفسه .. ولكنه فى ذلك المساء كان
يتسكع فى عاصمة أوربية وحده ، والليل بارد ، وهو
يتأمل من الخارج حياة الناس والجميع يعرفونه ، وهم
لا يحفلون بوجوده ، والقبعه على رأسه تضيء على
وجهه تحتها كآبة ، تزيده شعورا بكراهية نفسه ..

ويزيد الامر سوءا انه كلما نظر الى واجهة زجاجية ،
لم ير فيها الا صورة رجل اشتعل رأسه شيبا ، ولبس
مناظر غليظة على عينيه .. كل ذلك هيا فرصة ذهبية
لشعور التشاؤم ، فانقض عليه .. ولو انه وجد ابنه
« امجد » فى البنسيون الذى يقيم فيه ، لهان الخطب ،
الا ان « امجد » كان قد سافر مع زملائه الى الشمال
فى رحلة تدريبية فى بعض المصانع الكبرى .. والسيدة
صاحبة البنسيون أرملة عجوز فقدت كل اولادها فى
الحرب ، ولم يبق لها من الدنيا الا آلام روماتيزم حادة ،
ووجه لا يذكر حتى بآثار جمال قديم .. وحديثها
لا يتجاوز فظائع الحرب وويلاتها وآلام الروماتيزم
وأهوالها ..

فلم يكن ثمة بد من البحث عن مكان فى فندق ،
فاهتدى الى فندق فى وسط المدينة .. فاستأجر فيه

حجرة تطل على الشارع الرئيسى ، من الطابق السادس،
فكأنه يشرف على المدينة من برج عال حيث لا يصعد اليه
من ضجيج الحياة الا أقل القليل ، فكان بمثابة خيط
رفيع يصله بها ..

وقد كان الامل أن تعينه هذه الحجرة الفسيحة ،
والانيقة ، على ان يتخفف من شعور الكآبة الذى لازمه ،
ولكن يبدو ان الانسان حينما تصيبه علة ، يكون كل
ما حوله ، سببا فى مضاعفتها .. فقد زادت الحجرة
شعورا بالغربة والوحدة . كان يرى فيها كل يوم باقة
من الورد الجميل ، تضعها ادارة الفندق تحية لضيوفها ،
وكان فى استقباله وتوديعه عند قدومه الى الغرفة
وانصرافه منها ، آنسات صغيرات ، يكاد يقفز الدم من
وجناتهن لفرط صحتهن ، ورقة بشرتهن .. فاذا حيته
احداهن فى الليل ، عند ذهابه للنوم بعد أن تسأله ان
كان يطلب شيئا ، ثم أقفلت الباب وراءها ، أحس انه
مسجون ، وانه سيختنق خلف هذا الباب ، وان اليسد
الرقيق التى اغلقتة لا تختلف فى السواقع عن يد أقسى
سجان فى الدنيا ..

وقد خطر للدكتور مجيد ، وهو يسير فى الطريق، على
غير هدى بأنه أخطأ اذ لم يسافر فى التو الى ابنه فى
الشمال ليطمئن عليه ويحدثه .. وسأل نفسه : يحدثه
فى اى شيء ؟ ورأى « مجيد أمامه علامة استفهام
ضخمة يكاد يمسكها بيده ، وعجب أن يحدث
له ذلك لأول مرة . انه لم ير فى حياته علامة استفهام
تضئ وتنطفئ ، وتقف أمامه كأنما تعابته وتهزأ به ،
وتخرج له لسانها .. لا بد اذن ان يكون مريضا بمرض ما ..
الكبد ، أو المرارة ، أو المصران الغليظ ، أو ضغط الدم
.. أو السكر .. مرض ما .. يجهله ، أصابه فجعله

كثيبا ، والقي في روعه ان حياته انتهت ، وانه اخطأ خطأ فاحشا اذ اختار جانب الجد والعمل والفضيلة ، وأطلق عليه من جراب ألوههم علامات استفهام تتصدى له في الطريق وتضيء وتنطفئ ..

وبقيت العلامة أمامه ، وكلما خطا خطوة زادت منه قربا ، حتى هم بأن يمد يده ليمسكها لولا خوفه من أن يراه أحد فيضحك عليه .. ولكنه أحس بأنه سيضطدم بها فعلا فخلع نظارته ، ومسحها بمنديله ، ورأى نفسه أمام علامة استفهام مضيئة ، موضوعة أمام دار سينما والناس حوله ، توقفت عن النظر اليها ، وأخذت تنظر اليه .. فتلفت حوله وقد غرق حتى الاذنين في خجله ، ثم جرى مدعورا الى باب أول مقهى صادفه .. واندفع الى المقهى ، وقد آلمه انه رأى ان عنوانه هو :

— الثور الازرق ..

وخيل اليه ان ما قراه ليس الا من فعل الوهم أيضا ، فقد كان يحدث نفسه ، وهو يجرى .. انه يعدو كالثور .. ورمى نفسه على أول مقعد ، بجوار أول منضدة صغيرة خالية ..

وصفق وأنفاسه تتلاحق كأنما جرى شوطا بعيدا ، وطلب فنجانا من القهوة باللبن — مع قطعة من فطائر الاهلة — مع انه لم يكن جائعا ولا قادرا على تناول أى طعام .. وجاءه فنجان القهوة الضخم ، يعلوه زبد أبيض تتصاعد منه أبخرة .. فشعر بالدفع ، وغمره احساس بالراحة البدنية ، فدفع كرسيه الى الحائط بشدة ، وكأنما يحتمى به ، ثم مد ساقيه ، وأخذ نفسا عميقا وبدأت نفسه تثوب الى الهدوء شيئا فشيئا .. فمد يده الى الفطيرة ، وأخذ يقضم منها قطعة صغيرة ، وهو يتأمل في الجالسين ، والقائمين ، والخارجين

ولكن لم يمض وقت طويل حتى دخلت الى المقهى
شابة طويلة شقراء .. تبدو عليها العصبية ، ادارت
عينها في المكان ثم اخذت مقعدا وجلست في الناحية
الثانية من المنضدة الصغيرة التي جلس الدكتور «مجيد»
اليها ، ولم يكن في ذلك شيء يدعو الى الاستغراب أو
الاحتجاج ، فقد جرت عادة الشعب الذي نزل « مجيد »
ضييفا على عاصمة بلاده ، أن يجلس رواد المقاهي فيه ،
الى مائدة واحدة ، ولو لم يكونوا على معرفة سابقة ، ثم
ينصرف كل منهم الى شأنه ، كأن أحدا لا يشاركه هذه
المائدة أو يجلس اليها ..

وأخرجت الفتاة من حقيبتها سيجارة ، واشعلتها
وكانها تطلق رصاصة .. ثم أخذت تنفث دخانها ، وكأنما
تزيح شيئا جثم على صدرها .. فانتقل الى « مجيد »
الشعور بالقلق ، أو عاوده ذلك الشعور - بعبارة أدق -
بعد أن كان قد أوشك أن يطمئن ويستقر ويستريح ..
ثم أخذ يختلس النظر الى جارته ، فلما وجد انها لا تلتفت
اليه ازداد جراءة في النظر اليها ، ومتابعة حركاتها ، بينما
راحت هي طوال الوقت تنظر بغير انقطاع الى باب
المقهى .. فقطع « مجيد » بأنها لابد تنتظر قادما .. ولم
يطل انتظارها ، فقد تحقق صدق ما توقعه ، دفع الباب
رجل ضخيم ، يوحى منظره بأنه مصارع أو ملاكم ..
وجلس الى جانبها وهو يلهث ، وأدرك « مجيد » مما
قاله الرجل انه يعتذر عن تأخره ، ثم راحا يتحدثان في
صوت هامس فترة من الوقت ، صافحها بعدها ، وقد
أخذ يدها الرقيقة بين يديه الضخمتين ، ورفعها الى
شفتيه ، في تأثر باد ، وأمتنان عظيم .. ثم طبع عليها
قبلة طويلة أردفها بثانية وثالثة ..

وخيل الى « مجيد » أن عيني الرجل قد امتلأتا

بالدموع ، وانه أصبح صغيرا جدا ، ورقيقا جدا ،
وضعيفا جدا . ولما انصرف وضعت المرأة ، رجلا فوق
رجل وأشعلت سيجارة ثانية ، في هدوء تام ، كأن الرجل
قد أخذ معه - وهو ينصرف - كل ما كان في نفسها من
انفعال ، وتأزم ، وهياج ..
ونظرت الشابة الى « مجيد » ، وكأنها تعرفه من قبل
قائلة :

- من ايران ؟ ..
فخيل اليه ان حبلا قد تدلى اليه في أعماق البئر التي
سقط فيها .. بئر الوحدة والكآبة ، فأجاب :

- انا .. ؟ لا ..
وقبل ان يجيب عادت تسأل :

- اذن اسباني ؟ ..
وهز رأسه ، فقالت فيما يشبه صرخة ضعيفة :

- ما أغباني .. من مصر قطعا ، كيف لم افطن الى
ذلك ، ان وجهك اكثر بياضا من وجوه المصريين ولكن
تعبير الوجه ، والجو ..
فاندفع « مجيد » يسألها وتهلله باد :

- هل زرت مصر ؟ ..
فهزت رأسها قليلا وكأنما تفكر في هل تجيبه بصراحة
أم تخفى عنه الحقيقة ، ثم قالت في بطء :

- لا .
ثم أكدت هذا النفي - بغير داع - قائلة :

- أبدا .. لم أرها ، ولعلني لم أفكر في ذلك ..
فاندفع « مجيد » وقد ادنى مقعده منها بحركة لا
شعورية وقال :

- ولكن مصر ..
فقاطعته :

— أعرف أنها بلاد جميلة .. ولكنك لا تقابل انسانا حتى يقول لك ان بلاده أجمل بلاد الدنيا .. حتى الانجليز لا يترددون في أن يقولوا نفس هذا الكلام ، على الرغم من الضباب الذى يكادون يختنقون به .. والمطر والبرد ..

وقاطعها « مجيد » قائلا وهو يلوح بيديه كطفل غمرته موجة ماء فكادت تفرقه :

— ولكن بلادكم ..

فابتسمت ابتسامة من يسمع فعلا كلام طفل وقالت :

— أشكرك مقدما .. بلادى جميلة طبعاً .. ولكن لماذا كل هذا .. ان الناس حينما يبدأون فى التعارف يقولون شيئا من هذا القبيل ، التماسا لموضوع يتكلمون فيه . ولكنى وفرت عليك هذا العناء ، وهاجمتك فدعنا من الجغرافيا ..

فضحك « مجيد » من الاعماق .. ولو التفت لرنين ضحكته ، لادهشه ان انتقل فى قفزة واحدة من وهدة الكآبة الى قمة البهجة المشرقة .. ولكنه لم يكن قادرا — وقتذاك — على مراقبة نفسه ، فقد انطلق — ككل السعداء — على سجيته ، فلما سمعها تقول له : « ولكن أرجوك أن تقول لى بصراحة هل لديك ما يمنعك من مبارحة هذا المكان القبيح .. هل تنتظر مثلا أحدا ؟ الثور الأزرق ! ما معنى ذلك ؟ لقد جن الناس بحق .. ثور أزرق

وانتفض « مجيد » بفرحة هزته من منبت شعره الى اخمص قدمه ، فقال والبشر يطفح على وجهه :

— أنتظر أحدا .. لا .. لا .. أنه اقترح جميل ..

ووقفت الشابة فى بطء ، ثم أخرجت مرآة صغيرة من حقيبتها ، نظرت فيها الى وجهها .. وضفطت بخفة

بشفتها العليا على شفتها السفلى ثم بالعكس ، بعد
أن أخرجته القلم الاحمر ، ومرت به عليهما .. ثم أعادت
المرآة الى الحقيبة وتهيئات للانصراف ، بينما جرى
« مجيد » الى عامل المقهى ، ودفع له ثمن مشروبه في
لهفة وعجلة باديتين .. ثم عاد الى الشابة بعد أن ترك
اكرامية ، لا بأس بها للعامل .. ولما أصبحت خارج المقهى
على أفريز الطريق ، ملأت الشابة رثتها من الهواء ، ثم
نظرت الى « مجيد » نظرة تساؤل قائلة :

— ما الذى جاء بك الى هذا المكان القبيح ..
المصريون لا يضعون فيه اقدامهم ..

وارتبك « مجيد » ، وتلعثم ثم اجاب ، دون أن يلتفت
الى أنها تتحدث عن المصريين كأنها تعرفهم :

— قبيح .. انه كغيره من الامكنة ، ثم .. ثم انك
جئت اليه ، ويبدو انك أكثر من التردد عليه حتى
أصبحت تضيقين به ..

فرفعت كتفها فى استخفاف وهى تكاد تضحك
وقالت :

— ماذا أفعل .. مكتبه فوق هذا المحل مباشرة ..

فرد « مجيد » فى الجلال :

— مكتبه !

فقالت :

— نعم .. مكتبه .. مكتب الصديق الذى رأيته معى

ولم يزد « مجيد » على أن قال :

— آه ..

وبدأت الشابة تسير فى خطى بطيئة متقطعة ، و« مجيد »
وراءها لا يدرى الى أين تقوده ، غير أنها بعد بضع خطوات
بدأت تتكلم وكأنها تحدث نفسها :

— انه يعمل رساما في جريدة تقع مكاتبها فوق الثور
الازرق .. فهل فهمت ؟

ولم يستطع « مجيد » أن يمنع نفسه من صيحة
تعجب ! .. « رسام » ! ..

والتفتت اليه في ثاقل وفي هدوء تام وقالت :

— نعم .. رسام ! ما وجه الغرابة في هذا ؟ ..

وكان « مجيد » خليقا بأن يتخرج من التعليق على
صديق هذه الشابة التي لم يعرفها من قبل .. ولكن
سعادته ، والاسلوب الخالي من التكلف الذي تحدثت
به الشابة اطلقا لسانه ، فآمال :

— ظننته شيئا آخر .. ملاكما أو مصارعا أو حامل
أثقال ..

فانفجرت الشابة في ضحكة قوية ، احتقن لها وجهها
بدم احمر قان ، زادتها حيوية ، وأخذت تهزها هزا ..
فزال عنها تماما مظهر الكتابة الثقيل الذي كان يظللها
في المقهى ..

وحاولت أن تتكلم ، ولكن الضحك كان يقطع عليها
الكلام ، ويملا عينيها بالدموع ، فأخرجت منديلها صغيرا
من حقيبتها ، وأخذت تمسح دموعها ، دموع الضحك ،
ثم قالت بعد أن توقفت عن السير تماما :

— هو كذلك .. مصارع .. أو ملاكم .. ولكنه
رسام .. وهو في الحقيقة طيب ووديع ، وهذه مصيبتى
ثم استأنفت سيرها وهي تقول :

— هذه هي الكارثة .. !

والحق أن « مجيد » لم يكن مستعدا أن يفهم أى كلام
عن الكوارث والمصائب فقد بلغ قمة السعادة ، ولكنها
التفتت اليه وسأله بحماسة :

— هل سمعت ؟ .. هذه هي الكارثة ..

فقال على الفور دون أن يفكر :
- بالتأكيد .. بالتأكيد .. هذه هي المصيبة ..
الكارثة ..

وأدهش الشاب انه اخذ يردد لفظ المصيبة والكارثة ،
ووجهه تفيض منه علامات السرور ، فسألته :

- انت لا تحب أن تسمع كلاما جادا .. حزينا ..
ومع ذلك لقد كنت في الثور الازرق ، تغمرك أمواج من
دخان السجائر ، وسط ضجيج كضجيج الاسواق ..
وسر « مجيد » انها تعاتبه ، كأنما يمر فان بعضهما
بعضا مند دهر ، فاندفع يعتذر لها وعيناه تلمعان بالسرور :
- بالعكس .. أريد أن أسمع كلاما .. كلامك ..
وعادت خطى الشاب تقصر ، وعادت الكتابة تظلل
وجهها بسحابة حقيقية ، وراحت تستأنف الحديث بنفس
نبرتها الاولى ، كأنها تحدث نفسها :

- نعم .. انه طيب بلا شك .. طيب جدا ، ويزيد
الامر تعقيدا انه يود أن يسعدني بأي ثمن .. ولو فهم
الحقيقة لتحطم وانتهى .. ومن هنا يجب على أن اتحمل
وأصبر حتى يظهر مخرج للأزمة ..

وعلى الرغم من أن سعادة « مجيد » كانت قد بلغت
قممتها ، الا ان حكاية الصوت الذي كان يسمعه ، استطاعت
أن تعكر عليه قليلا احساسه بالسعادة ، فازداد انتباها
الى ما تقول ، بعد أن كان فرحاً بمجرد وقوع نبرات
صوتها على أذنه ، كما يسمع الانسان لحنا موسيقيا دون
أن يتبين فقراته

وعادت الشاب تقول :

- حينما رأيته كنت لا أتوقع أن تقوم بيننا علاقة
.. أية علاقة .. فنحن من طرازين جد مختلفين .. انه
فنان ، وأنا أشتغل في شركة تأمينات .. انه يعيش في

عالم الاحلام ، وأنا أعمل في دنيا الأرقام .. وأنا لا أحب
السهر ولا أطيع الموسيقى الكلاسيكية ، ولا تعجبني
الحياة البوهيمية المبعثرة .. وهو لا يذهب الى بيتيه
الا قبيل الصباح ، ولا يتصور الحياة بغير موسيقى ..
وحفلات الاصدقاء ، هي زاده ومتعته ، والاضطراب في
المواعيد وفي الحياة ، هو القانون الاسمى له .. ومع ذلك
تعارفنا ، والاعجب اننا تألفنا .. ان الحياة تتحدى كل
منطق لنا نحن الأدميين ..

ولم يستطع « مجيد » أن يطبق الصمت ، فقال :

— انتما صديقان ولا تزالان صديقين ..

فأجابته في تناقل :

— نعم .. ولكنه بدأ يدرك — على صورة ما — ان
في الامر خلا .. انه أخذ يلح أخيرا في أن نتزوج .. ولم
يكن يفعل ذلك في الماضي .. انه يرجو أن يكون في الزواج
وسيلة لمعالجة الشروخ التي بدأت تظهر في بناء صداقتنا
.. وأنا أؤجل وأسوف وأنتحل الاعذار حتى فقدت كل
الاعذار ، وأصبح لا مفر من أن أواجه الحقيقة معه ..
اننا في طريقنا الى قمة الازمة

وكانا قد وصلا في سيرهما الى مكان قريب من مطعم
فاخر يعرفه « مجيد » فسألها ان كانت لا تمانع في أن
يتناولوا معا طعامهما هناك .. ولم تجب ، بل اتجهت الى
باب المطعم ، وسار خلفها ، حتى أخذتا مكانهما على مائدة
.. فأحس بالفارق العظيم ، بين قبح مكان الثور الأزرق
حينما قارنه بهذا المكان الانيق الفسيح .. ولكن
ما لبث « مجيد » أن ذهل عن المكان وعن السيدة التي
معه ، حينما أدرك بوضوح انه سيتناول الطعام مع
سيدة لم يكن يعرفها منذ ساعة مضت — أو أقل من
ذلك — وهي مع ذلك ليست من بنات الهوى .. بل ان

كل ما حولها ، وما صدر عنها يدل على أنها جادة وعاملة
في الحياة .. وهمس لنفسه :

— هذه هي أوربا .. وهؤلاء هم الناس .. الحروب
المروعة ..

وأفاق « مجيد » على ورقة طويلة تمتد أمامه ..
تمسدها يد عامل المطعم ، فنظر إليها ، وقد أخجله أن
يسرح بخواطره بعيدا عن المكان ، فنظر الى العامل في
ارتباك واعتذار ، وأخذ قائمة الطعام ..

وعندما كانا يتناولان الطعام ، استطاع أن يتأمل
وجهها .. جمال يخالطه فخر وزهو ، ولكنه لاحظ أن
هذا الجمال تلونه الكتابة بلون قائم نوعا .. كأنه تبدو
في نظراتها التي تطلقها ، الى لا شيء ، ثم تستردها في
بطء ، كأنها تحار الى أية جهة تنظر ، كما استطاع أن
يتبين شيئا آخر ، هو ثققتها الشديدة بنفسها ، وسخريتها
بالناس ، وربما بالحياة كلها .. ولم يحس انه يأتي تصرفا
مخرجيا حين سألها :

— ولماذا ترفضين الزواج به ؟

فلم تضطرب ولم تتردد في أن تقول :

— لانه في الواقع لا يريد أن يتزوج .. وهذا هو عيب
الرجال .. انهم لا يعرفون انفسهم .. انهم كالاطفال الذين
يخرجون مع أمهاتهم .. لا يقع نظرهم على لعبة أو حذاء ،
أو قبعة ، أو فطيرة ، الا ورغبوا فيها واشتهوها .. ان
ادولف .. لا يبحث عن زوجة .. انه يبحث عن أمه ..

وبدت على « مجيد » حيرة حقيقية ، وخيل اليه ان
الشابة تعاتبه أو ان الخمر بدأت تلعب برأسها ، أو انه
خدع في منظرها وأنها لا تزيد عن أن تكون واحدة من
اللواتي يقتنصن الرجال ، ولكن في ثوب أكثر احتشاما

وبأسلوب أكثر خفاء .. وأدركت الشابة بفريزتها ان
الاجابة صدمت « مجيد » وأبعدته - للحظة - عنها .
فرفعت كأسا الى شفيتها ، وأخذت ترشف منها ببطء ،
وهى تنظر الى « مجيد » ثم استأنفت حديثها :

- انه يبحث عن أمه .. أى شيء غريب فى هذا ..
أمه ماتت ، وقد كان وحيدها ، وقد دلته كثيرا ، وأسعدته
وحملت عنه كل عبء .. كان يضع رأسه على فخذها
ويضع - فى الوقت نفسه - على رأسها كل أزماته
ومشاغله .. وكانت تطيعه وتنفذ أوامره فى الظاهر ،
وتقوده وتعلمه ، وتنفذ رغباتها فى الواقع .. وهذا هو
صيب الامهات القويات .. حينما يختفين من حياة
أولادهن ، يصيبهم اللعز ويصبحون فى حاجة الى
« عكايز » .. وادولف ، يعتبرنى « عكازا » .. ولكنى
لا أصلح لهذه المهمة .. انه يفضح نفسه فكلما رأى منى
شيئا يشبه أمه ، صاح :

- انا اعبدك .. واذا استعملت الرائحة التى كانت
تستعملها أمه شعرت بأنه أصيب بدوار .. ان أمه - بعد
ان ماتت - لا تريد أن تدع ابنها لامرأة أخرى ..

وأفاق « مجيد » على هذا الكلام الذى لم يعتد أن
يسمعه فى بلاده ، وقال فى سداجة :

- اتغارين منها ؟ ..

فقالت فى ابتسامة حزينة :

- ولم لا .. ؟ ومع ذلك فقد كان ذلك فى البداية ،
والآن لقد سلمت لها بالانتصار وأحاول أن أترك ابنها
ولكنه لا يريد .. لانه لا يعرف ..

وبدأت فرقة المطعم الموسيقية الوترية تعزف ..
فابتسمت مرة أخرى ابتسامة حزينة قائلة :

— هذه هي الموسيقى التي يقول ادولف ان الله خلقها
أولا .. ثم خلق الدنيا لتسمعها ، ومع ذلك هو رسام
وليس موسيقيا .. وخيل الى الشاب أن « مجيد »
لا يهتم أن يسمع مثل هذه القصة ، أو أنها أسأته ،
فغرت الكلام . ولما أتما تناول الطعام ، كان يبدو عليها
أنها في حالة طبيعية وان ما كان يلاحقها أو يملؤها من
انفعال قد زال ، واقترح عليها أن يذهبا الى ملهى أو
سينما ، ولكنها اعتذرت بأنها مضطرة للايواء الى
فراشها مبكرة ، لان لديها عملا في الصباح . وقاما يسيران
في الشوارع .. ثم توقفت بعد قليل ، واستأذنته في
الانصراف ، ثم شكرته على الدعوة ، واعتذرت له عن
الاثقال عليه بحديث ممل ..

وعرف «مجدد» أنها ستتركه بعد ثوان ، وأنه سيعود
الى وحدته الموحشة، فشعر بما يشبه الاختناق وأمسك
بيدها باندفاع ، وسأل في لهفة :
— لن نتقابل ؟ !

وجاءه الرد في هدوء وبلا تردد :

— سنتقابل .. ولكن هذا يتوقف أولا على عملي ،
وثانيا على مدة اقامتك هنا فأنا أعمل في الصباح
والمساء ، وأعمل بين فترتي الصباح والمساء بعض الوقت،
لاستزيد من دخلي ..

والتوت شفتاها كأنما تحتج على هذا الأسلوب من
الحياة ، وقبل أن يفتح فمه بكلمة سألته :
— في أي فندق تنزل ؟ ..

فأسرع بإعطائها اسم الفندق ، ورقم التليفون ، بل
ورقم الحجرة .. فضحكت ضحكة قصيرة ووعدته بأن
تتصل به تليفونيا ابتداء من الرابعة ، حتى الخامسة من
مساء اليوم التالي ، فان مرت الخامسة دون أن تكلمه ،

فليعلم ان ظروفها لم تسمح بمكالمته ..
وكان « مجيد » راغبا في أن يلحف في الرجاء ، ولكنه
خجل فسكت . ولما صافحته في مودة ظاهرة كان أشبه
شيء بمن غاب عن صوابه .. استدارت وتركته .. ووقف
هو يتابعها كالأخوذ ، ووقع حذائها يرن في أذنه ، كأنه
الموسيقى التي يحبها صديقها ادولف .. وأخذت خطوط
قوامها الرشيق تختفى قليلا حتى أصبحت سرايا ..
ودار « مجيد » على عقبه في الاتجاه المضاد .. وسار
كالخالم ، وهو لا يكاد يقوى على مساءلة نفسه :

— ماذا دهاه ؟ ولكنه مع ذلك كان يحس بخدر عذب
يسرى في جسمه ، ونشوة خفيفة تملأ رأسه وحرارة
شديدة تنطلق من قلبه الى كل ناحية في بدنه ..
ووصل الى حجراته في الفندق ، بعد أن كلت قدماه
من السير على غير هدى . وكان قد اشترى في اليوم
السابق صندوقا من الاقراص المنومة او المهدئة ، فكان
يخرجه من درج « الكومودينو » الملاصق لفراشه ويلقى
به من النافذة ، فقد كره أن يتعاطى منوما وهو في هذه
السعادة المختلطة بالحيرة والدهشة والخجل .. انه يريد
الآن أن يحيا بكل جراحة في نفسه .. ولما استلقى في
الفراش بثيابه أولا ، ثم بملابس النوم بعد ساعات ، أخذ
يجيل عينيه في سقف الحجرة ، وكأنه لا يصدق كأنه بعث
من جديد .. انسانا بقلب وعاطفة ! ورأى وجه ابنه في
هذه اللحظة ، فأدار وجهه للحائط ، وبقي هكذا ، حتى
جاءه المنقذ السحري .. النوم !



مرت ساعات اليوم التالي ، بطيئة متخاذلة ، قضاها
في أكثر من مكان ، وهو قلق نافذ الصبر ، غير ملتفت

للناس ، ولا لما يجرى حوله .. وقبل الرابعة ، بأكثر من ساعة ، جلس ينظر الى التليفون في حجراته بالفندق وكأنه ينتظر الحكم عليه .. وجاءت الرابعة ، فخيل اليه أن قلبه توقف تماما ، ثم تجاوزت عقارب الساعة ، الرابعة ، ومضت تحصد الدقائق والثواني وكأنها هي قطرات من دمه تتساقط قطرة قطرة ، مع كل جزء من كل ثانية من دقيقة ..

ودق الجرس أخيرا ، عند منتصف الخامسة ، فأهوى على السماع ، ورفعها قبل أن يتم الجرس دقته الاولى ، وجاء صوت عاملة التليفون ، معلنا انه مطلوب .. ثم جاء صوت الشابة ، ثم لم يدر ماذا سمع ولا ماذا قال ، فقد عرف شيئا واحدا .. انها ستقابلها اذا لم يكن لديه مانع ، في مقهى الثور الازرق ، في الساعة السابعة .. ولم يتبين حتى انها اختارت نفس المقهى الذى لعنته واعتبرته أقبح مكان في الدنيا .. ولما أفاق من فرحته ، أدرك أن عليه أن ينتظر ساعتين ونصف ساعة ، وهو ما يساوى عنده اذ ذاك دهرا كاملا .. الى أين يذهب أو ماذا يفعل في هذا الوقت الطويل ؟ .. خيل اليه أن أحسن ما يفعله ، هو أن يتناول حبتين من الاقراص المنومة ليغيب عن الدنيا ، ولكنه خشى أن هو نام الا يستيقظ في الموعد المأمول .. وقبل السادسة ، كان في مقهى « الثور الازرق » فوجده غاصا برواده ، الذين أحاطت بهم سحابات من دخان السجائر والسيجار والدخان المتصاعد من أكواب المشروبات الساخنة ، وقد اختلطت ضحكاتهم بأصوات حديثهم بوقع الاقدام بصوت الباب الذى ما يكاد يفتح الا يقفل ، بفعل فواصل آلية ، ترده حيث كان مع صوت يشبه صوت جناحي طائر قوى ..

وبحث عن مكان خال ، فلم يجد الا مقعدا في أقصى المقهى قريبا من الممر المؤدى الى القسم الداخلى حيث تعد طلبات الزبائن .. وجلس يتأمل هذه الحركة الدائبة فنسى نفسه فترة لا يدرك طالت ، ولكنه افاق حينما رأى « ادولف » صديق صاحبه ، الفنان الطويل الضخم قد مر به ، وهو يبحث عن مكان .. وود «مجيد» أن يقوم من مكانه ، وأن يتابعه ولكنه خاف ، وخجل ، فبقى حيث هو ، وقد استولى عليه قلق جارف ..

وقبل أن تخف هذه الصدمة لاحت عند الباب صاحبه جميلة متأنقة ، نشيطة ، دارت بعينها في المكان كله وبددت سحبه المتكاثفة ، ثم لوححت بيدها ، ثم ابتسمت ابتسامة ، أحس «مجيد» بأنها أضاعت المكان وأسرعت الى الناحية الاخرى من المقهى ، وأيقن «مجيد» أنها لابد أن تكون قد اتجهت الى حيث يجلس «ادولف» .. وشعر بألم ، وكأنه طعن في صدره ..

وعبثا حاول أن يقنع نفسه بأن أفراحه وآلامه هما عبث صبيانى لا مبرر له ، وان هذه الشابة ليست في حياته الا عابرة سبيل تجرى بسرعة الى غايتها هي ، دون أن تلتفت اليه .. وبعد قليل رأى الفنان على باب المقهى يفتحه ثم ينصرف وحده .. ونظر «مجيد» في ساعته فعرف أن عليه أن ينتظر قرابة الساعة ، ولكنه لمح على عتبة الباب الشابة تهم بالخروج ، وفيما هي تستدير ، يقع نظرها عليه ، فتعدل عن الخروج ، وتقبل نحوه بسرعة ، وتمد له يدها مرحبة ، ويمسك بتلك اليد ، وهو لا يكاد يصدق ما يرى ..

وقبل أن تجلس سألته :

— لماذا حضرت مبكرا هكذا ؟ ..

وأجابها مرتبكا :

- ليس عندي ما أعمله ..
 وعادت تسأله :
 - هل رأيته ؟ ..
 فهز رأسه وهو لا يكاد يستطيع أن يرفع عينيه اليها
 كطفل ضبط متلبسا بجرم .. وجلست الفتاة بنشاط
 على مقعد كان قد خلا عند المنضدة المجاورة وقالت في
 اشفاق ظاهر ، متسائلة :
 - ماذا هنالك ؟ ..
 ورفعت أصبعها حتى دانت فمها :
 - لا .. لا ..
 وسألها والخجل يعقد لسانه :
 - ماذا تعنى بسؤالها هذا ؟ ..
 فوضعت يدها فوق يده ، وربتت عليها بسرعة
 وهي تقول :
 - اذن يجب أن نفترق ..
 ثم وقفت فجأة قائلة :
 - هيا بنا نخرج من هنا ..
 وخرج وراءها .. ولم يكاد يستقبلان هواء الطريق
 المنعش حتى وضعت يدها في ذراعه بتودد ، وبلا كلفة ،
 وسأله :
 - أنا لم أسألك بعد .. هل انت متزوج ؟ ..
 وبعد فترة من التردد أجابها :
 - لا .. مانت زوجتي ..
 ووقفت الشابة وقد بدا عليها أسف صادق ، وقالت :
 - هذا شيء مؤسف حقا .. لو اني خمنت ذلك لما
 قبلت دعوتك . ومع ذلك لابد أن تتغلب على كل شيء ،
 ولحسن الحظ ، لا يزال الامر في بدايته .. اسمع يا صديقي
 لا تستسلم لؤهم ، انها الوحدة وتغيير الجو .. والحرية

فى الاتصال بالنساء اللاتى لا تجدونهن فى بلادكم .. المرأة
هنا فى متناول الرجال ، والاقتراب منها يوهم الرجال
عندكم ، بما لا يوحى به أبدا لرجالنا . لقد بردت أعصاب
رجالنا ، وأحكموا ضبط خيالهم ، فأصبح بين الحب
ومجرد الحديث أو المزاملة فى رحلة ، أو المجاورة فى مسكن ،
أو المشاركة فى عمل ، أبعاد عظيمة .. ثم توقفت قايلا ،
وكأنها تهم بعمل خطير ثم قالت :

— وعلى كل حال لست حرة .. فأنا مرتبطة ، نعم
أنا مرتبطة برجل آخر

وغاض الدم من وجه « مجيد » حينما سمع ذلك وكاد
يترنح .. فشدت الشابة على ذراعه ، وأسرعت وهى تكاد
تجره جرا ، وتقول فى الوقت نفسه :

— لقد أعددت لك برنامجا حافلا ، سنذهب الآن، الى

« لونا بارك » ..

وفى « لونا بارك » ، اختارت له أول ما اختارت لعبة
« الاطباق » التى يشتري اللاعب فيها بنقود قليلة ، صفا
من الاطباق الرخيصة ثم يأخذ فى قذفها بأقصى قوته ،
ليشبع فى نفسه غريزة التحطيم ، وليسمع بأذنيه صوت
الاطباق وهى ترتطم بالجدار ، وتقع شظايا صغيرة ..
وقالت وهى تغريه بممارسة هذه اللعبة :

— ستستريح بعدها ..

وألقى صفا وراء صف من الاطباق حتى تصبب عرقه
فأخذته الى مقهى داخل الملعب يطل على بحيرة صناعية ،
تسبح فيها أسراب الاوز والبط والبجع ، ولم يكذ يجلس
حتى سألها :

— تقولين انك ..

فهزت رأسها علامة الإيجاب ، وهى تزم شفيتها على
صورة لم يفهم منها اذا كانت آسفة أو سعيدة ، أو انها

تبقى مجرد اغاظته ، ولكنها لم تلبث حتى تكلمت :
- لقد كنت منتوية أن أحدثك اليوم عن باقى
قصتي .. فلقد أحسست منذ اللحظة الاولى ، أنك تأثرت
اذ هاجمتك بالحديث وزاد تأثرك بجولة الامس ، وكان
ذلك أكثر مما حسبت أو توقعت ، لقد أحسست بخطئى
وخيل الى انه من واجبى أن أبتعد عنك ، وألا أتصل بك
اليوم .. ولكنى أشفقت من أن يزداد ضيقك بالوحدة
وأن تتجاوز الصدمة القدر الذى يجب أن تبقى فى حدوده
.. لقد ظننت أول الامر أنك قد تكون فى حاجة الى صحبة
زميل أو زميلة ، لمجرد التحدث الى انسان ، وكان الافضل
لى أن يكون انسانا مجهولا بالنسبة لى ، لا يلبث أن يختفى
من حياتى . وكان كل ما حسبته خطأ فى خطأ . من يدرى
قد يكون أسلوب حياتكم القائم على التحفظ ، والاثاد ،
أفضل من أسلوب حياتنا العاصفة السريعة .. على كل
حال يجب أن نعرف ، ان هذه آخر مقابلة لنا .. سيذهب
كل منا الى حال سبيله .. ولكيلا نتورط بأكثر مما
تورطنا أحب أن تعرف أيضا اننى سأتزوج

وصاح « مجيد » : ستتزوجين ؟

فضحكت وقد تجاوزت فى عينيها دلائل السعادة ،
بآيات اشفاق عميق وقالت :

- لا ليس أدولف انما هو شاب أجنبى .. ليس الامر
سهلا تماما ولكن يبدو لى أنه لا مفر من ذلك .. فأنا
أحبه ، انه فى الواقع ممتاز وباهر

وأحس « مجيد » عند كل كلمة ، بما يشبه اللدغة
السامة .. وكان بوده أن يكون وحيدا لشئ ما استطاع
الانين ، ولكنه لم يستطع سوى التجلد ، وهمس
لنفسه : لابد أن يكون الامر كذلك .. شسباب ..

ما أغباني ، وما أعماني عن حقيقة سنى
وقصت عليه ، وهما يتنقلان فى « لونا بارك » انها
زاملت فى احدى الرحلات شابا شرقيا ، ثم تقابلت معه
وصادقته بعد ذلك فتعارفا وتصادقا وتحابا . . وبجثت
فى حقيبتها عن صورته ، ولكنها لم تجدها ، ولقد كان
« مجيد » أشوق ما يكون الى رؤية صورة هذا الشاب
.. وبعد أن تجولا حتى كلت أقدامهما ، افترقا على انه
سيسافر غدا الى ابنه فى الشمال . وفى الليل ، احتاج
« مجيد » الى أكثر من قرص من أقراصه المنومة ليفر
من الحقيقة التى واجهته بلا رفق ولا انذار . .

وعلى المحطة استقبله « امجد » فرآه على الافريز
وهو يكاد يقفز من الفرح . ونسى «مجد» آلامه وخيبة
أمله وخجله فى أحضان ابنه ، الذى خيل اليه انه رآه
زاد طولا وعرضا ، وان شخصيته نضجت ، وان رجولته
كملت . . وقضى معه يوما جميلا ، وليلة أجمل ، تحدثا
فيها كصديقين . ولم تكن عادة « مجيد » أن يتخفف من
قيود الابوة فقد كان دائما والدا ، وكان « امجد » دائما
ابنا صغيرا . . ولكنه هذه المرة ، كان هو فى حاجة الى
صداقة ، الى عاطفة خالية من كل تكلف ، عاطفة حارة
صادقة . . وأعطاه ابنه كل ما طلب وقدمه للاساتذة
الذين رحبوا به ، زميلا لهم ، وقدمه لزملائه وزميلاته
من الطلبة والطالبات ، فأغرقوه بمباهج حياتهم الشابة
وفى ذات مساء ، كانا يسيران الى حيث يبيتان معا ،
وأحس « مجيد » أن « امجد » يود أن يقول شيئا ،
ولكنه لا يجد الشجاعة الكافية ، فالتفت اليه أبوه ،
وسأله :

— لماذا تتردد فى الكلام ؟ . . انت تريد أن تفضي الى

بشيء . .

فأنكر « أمجد » ولكن الحاح أبيه سهل مهمته ، وخفف عنه العبء ، فقال :

— الحق اننى اخترت لى زوجة ، وكنت أحب أن تراها ، وأن توافق على اختيارى ..

ولامر ما أحس « مجيد » أن وراء هذا الحديث ما يدعو الى القلق ، وأحس « أمجد » بدوره ، أن أباه وجم ، وحالته تغيرت ، فأمسك عن الكلام ، حتى وصلا الى حجرتهما . وهناك ، عاود الكلام للوالد هذه المرة واستجاب الابن لابيّه ، ولكن فى استحياء وعلى حذر .. فلما سأله الوالد .. من تكون وما حظها فى التعليم ، الى آخر ما يسأل عنه الوالد فى مثل هذه الظروف .. مد « أمجد » يده الى درج مكتبه ، وأخرج «البوما» ضم صوراً عديدة له ، ولخطيبته هيلدا .. ونظر «مجد» الى الصورة الاولى وانتابه فى الحال هياج ، كان كالاعصار .. وراح يصرخ :

— كيف تتزوج أجنبية ، وكيف ترتبط بواحدة ، لا ندرى من أى أى طريق التقطتها ، ثم ألقى «الالبوم» ناحية المدفأة ، وجمد « أمجد » فى مكانه ، ولم يجرؤ حتى على التقاط « الالبوم » فتركه مكانه ، والسنة النار تكاد تلتهمه ..

ولم يتكلم الابن والاب بعد ذلك فى هذا الموضوع .. أثر « أمجد » أن يؤجل الحديث الى فرصة أخرى ، وراح « مجيد » فى وجوم مستمر ..

وحان يوم العودة ، وذهب الابن يودع أباه على افريز المحطة ، كما استقبله يوم جاء .. ولكن كان الوجوم يظلهما ، حتى اذا ما أوشك القطار على الرحيل وتعالى صسفاراته ، وجرى الركاب ، يمينا ويسارا ، ولوح للمودعون بأيديهم ، اندفع « مجيد » الى عنق ابنه ،

واحتضنه بشدة ، ثم انفجر في بكاء يهزه هزا . وانفعل
الابن بانفعال الاب ، وراح يبكي ، وهو لا يدري لهذا كله
سببا مفهوما .. وبدأ القطار يتحرك ، فوثب الاب اليه ،
وابنه يعاونه وهو يسير الى جانب القطار ، وقبل أن
تزداد سرعته ، سمع « امجد » أباه يقول - وهو يمسح
دموعه بيده - وفي وجهه وعينيه اختلط سرور بحزن :
- تزوجها .. تزوجها .. انها ممتازة وجميلة
وباهرة ! ..

وفرح « امجد » بما سمع ، وجرى وراء القطار ،
وهو يصيح :

- هل تعرفها يا أبي ؟ ..
ولكنه لم يسمع ردا ، فقد اختفى القطار ..



فهرس

صفحة

مقدمة بقلم المؤلف	٧...
حاسب ياعم	١٥ ...
الساعة	٣١ ...
صراخ فى النافذة	٦١ ...
طلعت ادب	٧٥ ...
انا القاتل	٩١ ...
قصة السريالى	١١٧ ...
أسطورة حب	١٣٧ ...
فى الطفولة	١٦١ ...
الجثة	١٧٥...
الرحلة	٢٠١ ...

وكلاء مجلات دار المهملات

العراق : السيد محمود حلمي - المكتبة العصرية
ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن علي نحاس - ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد - ص.ب ٢١

Dr. Michel H. Tomé,
Praetorio Colegio No.
3º Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

البرازيل :

Messrs. Allie Mustapha & Sons,
P.O. Box 410,
Freetown Sierra Leone

سيراليون :

M. Ahmed Bin Mohammad Bin Samit,
Almaktab Attijari Asshargi,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

سنغافورة :

ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU,
7, Bishopsthorpe Road,
London S. E. 26,
ENGLAND

انجلترا :

Mr. Mohamed Said Mansour,
Atlas Library Company,
126, Nnamdi Azikiwe Street,
LAGOS NIGERIA

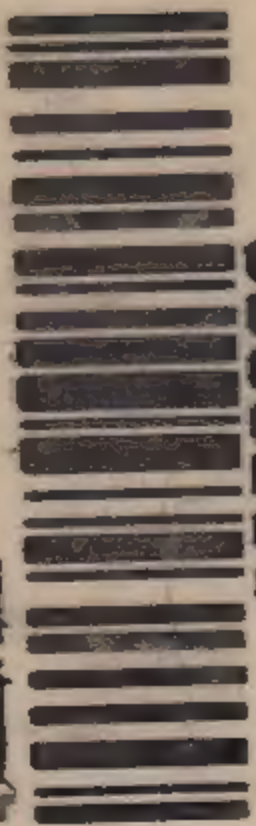
نيجيريا :

هذا الكتاب

ان السير مع الانسان في
سراديب حياته المظلمة .. سراديب
التآمر والاعتداء ، والحق على الغير
والخوف منهم ، والتحقيق معه في
اجواء تحرره وسبحات تطلعه الى
ما هو اعلى ، وانبل ، وانقى ،
والطف .. ان هذا كله هو عالم
الفنان ، سواء اكان كاتب قصة ،
ام ناظم شعر ، او مؤلف
مسرحية ..

ويضم هذا الكتاب مجموعة من
القصص الطريف الزاخر بالفواطف
والمفاجآت ، تعالج كل قصة منها
مشكلة من المشاكل التي يصادفها
البشر في حياتهم الاجتماعية
والعاطفية .. ويغوص فيها مؤلفها
الكاتب الفنان الى ابعاد اغوار
النفس البشرية و « سراديبها »
ويعرضها في اسلوب شائق
بارع ..

Bibliotheca Alexandrina



0250823

